

حالا

العدد صفر، أيار / مايو - 2014

مجلة يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام، دمشق - لندن



دراسات:

- المثقف والمعارضة والشأن السوري
- غيلان الدمشقي في سياقات مختلفة
- بين الشعر والفيس بوك
- السينما كمعبر عن تفاوت الصراع
- محدّدات تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري
- قراءة في دعوات تطبيق الشريعة

مراجعات كتب:

- إيقاعات أدبية على أنغام سورية
- التحول الديمقراطي.. سورية نموذجاً

ريبورتاجات:

- إبداع وسط الأم
- حول مراكز بحوث السياسات

مقالات:

- الأصولية الإسلامية في المشرق العربي
- نحو تأسيس وعي اجتماعي مختلف
- العرس في أوكرانيا والطبل في سوريا
- دور النساء السوريات في العدالة الانتقالية
- الدولة الريعية زمن التحول السياسي
- التدوين السوري وجدلية الالتصاق بالواقع
- الحقيقة 'ليست' هناك



العدد 0 - أيار / مايو - 2014

صورة الغلاف:

‘ملائكة في زمن الحرب’

عدسة رامي مكي، المزيد في محور
‘المشهد البصري’ في الصفحة 134

دلتا تُنـون مجلة يصـدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام. دمشق - لندن. السنة الأولى، العدد صفر، أيار/ مايو 2014

للاتصال بنا:

مكتب دمشق:

شارع العابد - جادة العاني
ص.ب: 10250

مكتب لندن:

436A Hamilton House
Mabledon Place, Bloomsbury
London, WC1H 9BB
Tel. +44 20 75 54 85 30

email: editors@c-tpa.org
www.delta-n.c-tpa.org



مركز دراسات الفكر والشأن العام

Centre for Thought and Public Affairs
email: info@c-tpa.org
www.c-tpa.org



التصميم والإخراج الفني:

Omran Attar

gaea.goddess@gmail.com

هيئة التحرير:

طلال الميّهني
فرزند عمر
حسين برو

محررون مساعدون:

مجد جمول
صفاء جمعة
متين الميّهني

الفريق الصحفي:

ماهر المونس
دما نيقولا
طارق العبد
نور شلغين
علاء إحسان
قصي عمامة

تصميم الصور:

رامي مكي
لجين حاج يوسف

مسؤول الإنترنت:

طارق سواح

فريق الملتيميديا والمكتبة الصوتية:

خالد هربش
كندة يوسف
مصطفى دباس

يَضَعُ 'مركز دراسات الفكر والشأن العام' بين أيديكم العدد صفر من 'مجلة دِلْتَا نُون'. يَضُمُّ العدد أكثر من عشرين مادة تم إعدادها بأقلام شابة وواعدة لتبحث، من زوايا مختلفة، في إشكالية العلاقة بين الفكر والشأن العام. وتتراوح هذه المواد بين المقالات والدراسات ومراجعات الكتب والتحقيقات الصحفية، إضافةً إلى قسمٍ خاصٍ بالمشهد البصري يشتمل على مجموعةٍ من الصور الفوتوغرافية ورسومات الكاريكاتور.

المحتوى

5

تحرير

6	رئيس التحرير	كلمة رئيس التحرير
7	هيئة التحرير	كلمة العدد

9

مقالات

10	مازن علي	الأصولية الإسلامية في المشرق العربي
14	عماد العبار	نحو تأسيس وعي اجتماعي مختلف
19	رهام كوسا	العرس في أوكرانيا والطبل في سوريا
23	علياء أحمد	دور النساء السوريات في العدالة الانتقالية
27	مجد جمّول	الدولة الريعانية في زمن التحول السياسي
31	وليد بركسية	التدوين السوري وجدلية الالتصاق بالواقع
34	عمار المأمون	الحقيقة ليست هناك

38

مراجعات كتب

39	فرزند عمر	إبداعات أدبية على أنغام سورية
45	عبد الحاج	التحول الديمقراطي .. سوريا نموذجاً

- 51 الفريق الصحفي في المجلة إبداعٌ وسط الأمم
- 66 الفريق الصحفي في المجلة حول مراكز بحوث السياسات

- 72 محمد ديبو المثقف والمعارضة والشأن العام في سوريا
- 89 فراس الحواط غيلان الدمشقي في سياقات مختلفة
- 99 سلاف علوش بين الشعر والفيس بوك
- 106 فيكتور يوس شمس السينما كمُعَبِّر عن تفاوت الصراع
- 115 ياسمين عيود محددات تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري
- 127 عزّام قصير قراءة في دعوات تطبيق الشريعة

- 134 رامي مكي ملائكة في زمن الحرب
- 135 سمارة سلّام عناق الأخطبوط
- 136 مصطفى دباس إصرار
- 137 هاني عباس انتصرنا
- 138 دعاء نشار نزوح
- 139 أسامة حويجة ابتسامة
- 140 بانا ماخوس قصة محاربة
- 141 مرهف يوسف ضاع المفتاح

تحرير

◆ كلمة رئيس التحرير
◆ كلمة العدد



كلمة رئيس التحرير حول 'مجلة دِلْتَا نُون'

تَطْمَحُ 'مجلة دِلْتَا نُون' لأن تكون منبراً مفتوحاً يسعى إلى دراسة 'العلاقة' بين 'الفكر' وبين 'الشأن العام'. هذه المجلة نشاطٌ من نشاطات 'مركز دراسات الفكر والشأن العام' (دمشق - لندن)، حيث تصدر بجهود فريق يتوزع أعضاؤه بين دمشق وبيروت والقاهرة والسويد وتركيا وباريس ولندن. وتعمل 'هيئة التحرير' حالياً على إصدار 'دِلْتَا نُون' كل شهرين في نسخة إلكترونية (متوفرة مجاناً عبر الموقع الإلكتروني للمركز والمجلة)، مع الأمل في إصدارها في نسخة ورقية مطبوعة بعد مرور السنة الأولى.

تُولي 'مجلة دِلْتَا نُون' أهمية خاصة للقضايا المُلِحَّة في منطقة 'الشرق الأوسط' عموماً، وسوريا خصوصاً. وتتراوح المواد التي تنشرها المجلة بين المقالات والدراسات ومراجعات الكتب والريورتاتجيات الصحفية، إضافةً إلى الصور الفوتوغرافية، والرسومات التشكيلية، والكاريكاتور. وتركز 'هيئة التحرير' في صورة خاصة على جذب الأعلام الشابّة والموهوبة، والمعتمدة على تفكير نقديٍّ وخلاق. كما تسعى إلى تشجيع شريحة الشباب الذين لم يسبق لهم اقتحام غمار الكتابة، أو أولئك الذين ما زالوا يَتَهَيَّبُونَ نشر كتاباتهم لأسباب مختلفة.

تتبع المجلة سياسةً تحريريةً تنظّم استلام المواد وقراءتها والتواصل مع الكتّاب. ومن المهم أن نشير إلى أن 'هيئة التحرير' لا تتخذ أية مواقف سياسية أو فكرية أو أيديولوجية مُسَبَّقة، ولا تتدخل بالتالي في الأفكار الواردة في المواد المُرسَلة، لكنها قد تضيف اقتراحاتٍ أو تعديلاتٍ معينة فيما يتعلق بأسلوب عرض هذه الأفكار (بما يجعلها أكثر وضوحاً ومتاحةً لشريحة أكبر من القراء). ويمكن الاطلاع على كافة التفاصيل والشروط المتعلقة بالكتابة في المجلة عبر الموقع الإلكتروني.

أخيراً لا بُدَّ من كلمةٍ فيما يخص اسم المجلة 'دِلْتَا نُون' الذي يحمل بُعْداً رمزياً قد يدفع بالقرّاء الأعزاء إلى التساؤل عن معناه. إذ يُرْسَمُ حرف 'الدلتا' الإغريقي-الفينيقي على شكل مثلثٍ رأسه نحو الأعلى: نحو المُجَرَّد، نحو المُطْلَق، كرمزٍ للنار، للسُّمُو، والعقل، ومكافئٌ مجازيٌّ 'للفكر'. أما في الإرث العربي فيرمز حرف 'النون'، كما في 'كُنْ فيكون'؛ إلى اكتمال الوجود، إلى تحقُّق الكينونة، إلى تشكُّل الأشياء في الواقع المُعاش المحيط بنا، كمكافئٍ مجازيٍّ 'لِلشأن العام' الذي يعيشه الناس ويتفاعلون معه، ويتأثرون به، ويؤثرون فيه. هذا الجمع، بين حَرْفي 'الدلتا' و'النون'، بين 'رَمْزِيَّة الدلتا' و'رمزية النون'، هو جمعٌ مجازيٌّ بين 'الفكر' و'الشأن العام'، مع استحضارٍ لرسالة المركز؛ 'مركز دراسات الفكر والشأن العام'.

نتمنى أن تكون هذه البداية المتواضعة عند حسن ظنّ القرّاء الأعزاء، على أمل الاستمرار في سَعْيِنا الطَّمُوح لتأسيس مساحةٍ فكريةٍ جديدةٍ تحترم كُلاً من الكاتب، والقارئ، والكلمة التي تجمع بينهما.

د. محمد طلال الميّهني
رئيس التحرير

كلمة العدد

نضع بين أيدي حضراتكم العدد صفر من 'مجلة دِلْتَا نُون' الصادرة عن 'مركز دراسات الفكر والشأن العام' (دمشق - لندن). هذا العدد حصيلة جهدٍ بذله فريق العمل على مدى شهورٍ عديدة، بالتعاون مع شريحةٍ مميزةٍ من الكُتّاب والفنانين الشباب، بغية تقديم عملٍ جديدٍ في الساحة الفكرية والثقافية والنقدية في المنطقة.

لا يمكن في هذه العُجالة وصف انتقال الفكرة، التي بدأت بحواراتٍ جانبيةٍ بين ثُلَّةٍ من الزملاء، من حيزِ التخيلِ وفضاء الحلم إلى عالم الواقع والتحقّق. لكن مهما كانت مشاعرنا، وبغضّ النظر عن لحظات التلهّف التي رافقت ظهور هذا العمل، فإن خيرَ تقييمٍ لأدائنا، وخيرَ تصويبٍ للهِفوات التي قد نكون وقعنا فيها سيأتي من القُرّاء الأعزاء، ومن المشتغلين في الحقل الفكري وحقل الشأن العام؛ أولئك الذين نأمل أن يطلعوا على هذا العمل دون أن يتردّدوا في التعبير عن آرائهم وملاحظاتهم وانتقاداتهم، وإرسالها إلى هيئة التحرير.

يحتوي العدد على خمسة محاور؛ مقالات، ومراجعات كتب، وريبورتاجات، ودراسات، إضافة إلى المشهد البصري. تضم هذه المحاور في مجموعها ما يزيد على عشرين مادة زُوِّدَ معظمها بخلاصةٍ من بضعة سطور، كي يتسنى للقراء الأعزاء الاطلاع على الأفكار المطروحة في يسرٍ وسهولة. وقد تعددت المواضيع والقضايا التي أثارته المواد المنشورة في هذا العدد. ففي محور المقالات يكتب مازن علي مقالته عن 'الأصولية الإسلامية في المشرق العربي' يناقش فيها دور الأنظمة السياسية في توفير البيئة الحاضنة لأفكار التطرف، في حين يناقش عماد العبار الدور المهم لقراءة النص الديني في التأثير في الشأن العام للمجتمعات. وبينما تُعلّق رهام كوسا على التأثير بالحدث الأوكراني من خلال عرض بعض الأمثلة من تعليقات السوريين، تشير علياء أحمد، في مقالته المعنونة 'دور النساء السوريات في العدالة الانتقالية'، إلى ضرورة إشراك المرأة في قضايا شديدة الأهمية على مستوى الشأن العام السوري. كما يكتب مجد جمّول مقالته في الشأن الاقتصادي يناقش فيها 'الدولة الريعية زمن التحول السياسي'، مع الإشارة إلى أن المقالة المذكورة تمهيدٌ لورقةٍ بحثيةٍ مُعمّقة بقلم الكاتب سيتم نشرها مستقبلاً. وسيجد القُرّاء مقالاتين حول الواقع الافتراضي؛ إحداها بقلم عمار المأمون يتحدث فيها عن الحرب الرقمية التي تطحن السوريين على شاشات الكمبيوتر، أما الأخرى بقلم وليد بركسية يشير فيها إلى واقع التدوين السوري والمُدوّنات السورية في ظلّ التحولات التي تمر بها البلاد.

يضم العدد أيضاً مراجعتي كتب؛ الأولى بقلم فرزند عمر يناقش فيها كتاباً أدبياً بعنوان 'الوحدة تُدللُ ضحاياها' للكاتب الشاب دارا عبدالله، والثانية بقلم عبد الحاج يلقي فيها الضوء على كتابٍ سياسيٍّ لرضوان زيادة بعنوان 'التحول الديمقراطي.. سوريا نموذجاً'.

في محور الريبورتاجات الصحفية عمّد الفريق الصحفي في 'مجلة دِلْتَا نُون' إلى إعداد مادتين. الأولى عبارة عن ريبورتاج بعنوان 'إبداعٌ وسط الألم' يتناول المظاهر الثقافية والفنية التي تكاثرت في سوريا في ظلّ الدمار. أما

الثانية فهي لقاءً مع بعض الباحثين في 'المركز السوري لبحوث السياسات' يتحدثون فيه عن أهمية ودور المراكز البحثية في العملية التنموية.

كما يحتوي العدد على ست دراساتٍ دسمة. إذ ينشر محمد ديبو دراسةً عميقةً بعنوان 'المثقف والمعارضة والشأن السوري' يقدم فيها مراجعةً أوليةً للواقع السياسي والاجتماعي في سوريا وجهل كثير المثقفين السوريين بواقع بلادهم، مع الإشارة إلى أن هذه الدراسة ليست سوى جزءٍ من ورقةٍ بحثيةٍ مطوّلةٍ من المخطّط إصدارها في تموز/يوليو من قِبَل 'مركز دراسات الفكر والشأن العام'. وللتاريخ نصيبٌ في العدد صفر من 'مجلة دِلْتَا نُون' مع مادةٍ شَيْقَةٍ حول 'غَيَّالان الدمشقي في سياقاتٍ متعددة' بقلم فراس الحواط. ومرةً أخرى إلى الفنون حيث تُلقِي سلاف علوش في دراستها الضوء على أثر التكنولوجيا (فيسبوك) على المادة الأدبية الشعرية، في حين يعطي فيكتور يوس شمس في دراسته ثلاثة أمثلةٍ عن دَوْر السينما في مقارنة قضية شأنٍ عامٍ هي القضية الفلسطينية. وفي دراسته يقدم عزّام قصير قراءةً نقديةً ومُركّزةً لدعوات تطبيق الشريعة التي تكتسح الفضاء العام في غير بقعةٍ في سوريا والشرق الأوسط. وأخيراً ننشر بالتعاون مع مؤسسة اتجاهات الجزء الأول من دراسةٍ لياسمين عيود حول 'مُحدّدات تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري'، على أمل أن يتم نشر الأجزاء المتبقية في الأعداد القادمة.

في المحور الأخير المعنون بـ 'المشهد البصري' اخترنا لكم باقةً من الأعمال الفنية التي تتراوح بين التصوير الفوتوغرافي ورسومات الكاريكاتور. وقد أُرْسِلَت المساهمات إلى العدد الحالي من قِبَل عددٍ من الفنانين والفنانات الشباب هم: رامي مكّي، وسامرة سَلَام، ومصطفى دباس، وهاني عباس، ودعاء نَشَار، وأسامة حويجة، وبانا ماخوس، ومرهف يوسف.

د. محمّد طلال الميّهني، د. فرزند عمر، أ. حسين برو
هيئة التحرير

مقالات

- ♦ الأصولية الإسلامية في المشرق العربي
- ♦ نحو تأسيس وعي اجتماعي مختلف
- ♦ العرس في أوكرانيا والطلب في سوريا
- ♦ دور النساء السوريات في العدالة الانتقالية
- ♦ الدولة الريعية زمن التحول السياسي
- ♦ التدوين السوري وجدلية الالتصاق بالواقع
- ♦ الحقيقة 'ليست' هناك





مازن علي*

الأصولية الإسلامية في المشرق العربي: استثمار النظام السوري

الخلاصة:

ثلاثة عوامل تعزز من ديناميات الفعل الأصولي وتتضافر في شكل غير مسبوق في منطقة المشرق العربي. أولها: انحسار وضعف السلطة المركزية في ثلاث دول هي سوريا والعراق ولبنان، وثانيها: انسحاب الكثافات المدنية على وقع تجريفيها من قبل السلطة، أما الثالثة: تكمن في الحاجة لأيديولوجيا الحشد المزدوج ضد محتل خارجي وسلطة مستبدة بخطاب سهل له في الذاكرة والوجدان مكانة لا ينافسه فيها أي خطاب. يتأسس على هذه العوامل مضاعفة الانحطاط في المشرق العربي لثقافة مأزومة أساساً في ذاتها وهويتها وعلاقتها مع 'الآخر' لتصبح مخرجات هذه الثقافة حركات أصولية راديكالية تجد من يستثمرها في تكتيكات إبتزاز وتصفية حسابات دولية وإقليمية ومحلية، نكون أمام مشهدٍ عبثيٍّ تضجُّ فيه الحركات الراديكالية الدينية المتصارعة مع نظمٍ سياسية تقلّصت إلى ميليشيات سطوٍ تدير حروباً أهلية، ويتغذى كلُّ منها على الآخر بما يشبه 'تواطؤ الأعداء'.

* خريج كلية العلوم السياسية في جامعة دمشق. تقدم برسالة الماجستير تحت عنوان 'المتطلبات السياسية للتنمية: دراسة تحليلية في تنظيم السلطة والتحديث السياسي'. عمل كباحث متفرغ في 'مركز الدراسات الإستراتيجية' بدمشق بين 2008-2012، وكسكرتير تحرير وعضو الهيئة الاستشارية في مجلة 'دراسات فكرية'. كما ساهم بمجموعة من الأبحاث والدراسات لهيئات سياسية وحكومية في سوريا أهمها: 'قانون الأحزاب'، 'قانون الانتخابات'، 'دراسات عن المجتمع المدني' و'الحياة الحزبية في سوريا'. له العديد من الأبحاث المكتوبة منها 'أسئلة في النهضة'، و'الديمقراطية بين الخصوصية والعالمية'، فضلاً عن مشاركته في برنامج التعاون الأكاديمي 'وعي الذات ووعي الآخر في السياسة والتاريخ والثقافة' بين جامعتي دمشق وإرلانغن الألمانية.



تطورت الحركة الأصولية الإسلامية وتنقلت عبر مراحل عدة وصولاً إلى شكلها الحركي الراديكالي الناجز كما نعاصره اليوم والذي يتعين 'منظومة شبكة العلاقات' الواسعة للحركات الإسلامية الجهادية 'ذاتية الحركة' التي يتموضع في مركزها تقريباً تنظيم 'القاعدة'. وباتت معروفة للكثيرين تلك السيرورة التي مرت بها الأصولية الإسلامية والظروف الدولية والإقليمية التي سوغت قيامها، هذا فضلاً عن المعارف الدينية التي قدمت النص والمنطق العقيدي لها. كما يمكن تلخيص العناصر المميّنة لها من فقر وأمية في مجتمعات احتضنتها كأفغانستان والصومال وغيرها بمقابل فشلها في إيجاد الحواضن اللازمة في أكثر من بقعة جغرافية مفترضة.

كان يكفي غياب أي سلطة مركزية قوية، وتعيين عدو محتل بدايئةً، حتى تستدعي أيديولوجية مبنية على يقين إيماني كالإسلام، تحشد بخطابه وتنظم بشريعته حتى تقترب من النموذج الأعلى في الوعي المجتمعي كما وصل إلينا عبر أمهات الكتب التاريخية، وتسحبه على الواقع كمرسجة تنكزية نشاهد فصولها على مسرح الواقع، ثم تنتقل وتمدد على بقاع جغرافية ذات مجتمعات موسومة بالإسلامية تقوم بالتعويض عن فشل المشاريع النهضوية من ماركسية ويسارية وليبرالية وقومية في حمل مهام التنمية والتحرير.

تأخذ القضية مضاعفات أكثر جدية بالنظر إلى ظاهرة الأصولية الإسلامية في منطقة المشرق العربي بالتحديد الذي يزخر بقصص 'الماضي المجيد'، والذي تعيش مجتمعاته على وقع إرث تاريخي ثقل يحكم قيمها ويشكل وعيها لذاتها وللآخر. فقد انتشرت الحركات الأصولية الإسلامية بعد احتلال العراق وسقوط بغداد التي كان لها صدى بالغ التأثير في النفسية العربية في المشرق، محدثة تحولاً جذرياً في المفاهيم النضالية الكلاسيكية بمختلف توجهاتها القومية واليسارية. إذ تحول البعث العلماني إلى داعية إسلامي، والفتحاوي إلى مربي ديني، وانبثقت من قلب الحركات السياسية دعوات إسلامية كفتح الإسلام (التي خرجت من رحم تنظيم فتح الانتفاضة برئاسة أبو خالد العملة) في كناية عن رفض وقطيعة كاملة مع الإرث الأيديولوجي والنضالي المرتبط بالنظام الرسمي المقاوم وصولاً إلى معاداته.

وعلى وقع وجود الولايات المتحدة الأمريكية في العراق كان أحد محفزات استنهاض الخطاب الإسلامي التعبوي يتحضر للانفجار في قلب المشرق، فها هو الآخر المحتل قد أصبح على الأرض بيننا ويهدد التوأم الجار؛

سورية. وسرعان ما بدأت حركات 'الصحوّة الإسلامية' بنسختها الجهادية بالتوالد والتكاثر تحت عنوان المقاومة التي لقيت مدّاً لوجستياً وبشرياً من بعض دول الإقليم مستثمرة هذه الحركات في استنقاع الولايات المتحدة في العراق. إذاً كان هناك من يقتنص الفرصة في لحظة تهديد، إنه النظام السوري الذي وجد في هذه الحركات أجهزة معدة للتحريك بما يشبه الإمساك بمقود (روبوت) مفخخ يهدد به تارة ويلوح به تارة أخرى، صانعاً بعض تشكيلاته في قصيدة متدبرة.

وتفيد تجربة الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي أن هذه الحركات تمتلك إمكانية تفلت كبيرة بعد شراكة موحى بها غير مبنية بعقد أو اتفاقية لتصبح علاقة عداوة وانتقام ما بعد الشراكة، تماماً كما حدث مع الولايات المتحدة وبعض حلفائها في أفغانستان. لكن النظام السوري استطاع تحاشي ارتداد الحركات الأصولية عليه بعد عودة أفراد من العراق لامتلاك تلك القاعدة التفصيلية من البيانات عن أفراد التنظيمات الجهادية العاملة بالعراق، وأظهر قدرة عالية على الضبط وعدم تفلت زمام الأمور من يده. يدخل النظام السياسي في المشرق العربي كعنصر أصيل في معادلة الأصولية هذه المرة، تتبدل وظائفه بتغير شروط المعادلة منتجة مشهداً مختلفاً في كل ظرف، فتدعم الأصولية تحت عنوان المقاومة وتحارب تحت عنوان الإرهاب، والعنصر المتحرك في قلب المعادلة كان دوماً النظام السوري على مستوى هذه المنطقة.

لقد تبدى الدور السوري في استثمار الحركات الأصولية مرة أخرى في لبنان بعد اغتيال الرئيس الراحل رفيق الحريري عندما لاحت بوادر تهديد داهم للنظام إثر اتهامه مباشرة بعملية الاغتيال، وللدلالة على ذلك يمكن استعراض جملة القرائن التي وردت في أحد البرامج الوثائقية التي يعدها الصحفي العربي يسري فودة والتي تلت عملية الاغتيال. إذ يذكر أن اتصالاً جرى بصحيفة صدى البلد اللبنانية من قبل مجهول اسمه أبو عبيدة مبلغاً عن نية تفجير ثكنة عسكرية في صيدا، وقد حدث ذلك التفجير في المكان والزمان الذي حددهما، مما أكد التكهّنات القائلة بإمكانية تواجد وفعالية تنظيم القاعدة في لبنان، وتكررت هذه الحادثة أكثر من مرة في عهد ما بعد الوجود السوري، وفي نهاية عام 2005 تم تبني عملية إطلاق صواريخ (كاتيوشا) من قبل تنظيم القاعدة من جنوب لبنان الواقع تحت سيطرة حزب الله الذي تتنافر معه القاعدة عقائدياً وتتهمه بالوقوف عائقاً بينه وبين إسرائيل. لقد كان هذا التفلت العسكري لتنظيم القاعدة على التخوم الإسرائيلية مثيراً للريبة بالتوقيت وتخفي عناصره على غير عادة أعضاء تنظيم القاعدة الذين يجاهرون بأسمائهم وهوياتهم وأهدافهم عادةً. وما غص النظر الذي مارسه حزب الله عن تلك العملية بالتحديد -التي لا يمكن أن تحدث دون علمه- سوى إشارة لملاحج البديل الممكن في حال غياب حزب الله حيث كانت الأصوات تتعالى لسحب سلاحه في تلك الأيام.

وفي ظل غياب الوجود العسكري والأمني السوري فإن القاعدة هي من ستكون على الحدود الإسرائيلية دون ضابط أو رقيب. كان النظام السوري يمتلك خريطة شبكة التنظيمات الإسلامية المرتبطة بالقاعدة أو غير المرتبطة بها ولديه قاعدة بيانات شبه شاملة لعناصرها العائدة من العراق على وجه الخصوص، نتيجة انخراطه بصورة مباشرة في العراق، ويمتلك القدرة الإيحائية لتحريك بعضها في أي اتجاه يريده، مستخدماً إياها ورقة ابتزاز أمام الغرب وإسرائيل، ويفيد استعراض للأسماء الكثيرة التي نسبت إلى القاعدة أنها إما كانت في السجون السورية أو نالت مباركة الأجهزة الأمنية أيام القتال في العراق.

لربما استطاع النظام السوري أن يلعب ورقة الأصولية الإسلامية والاستثمار بها في أعلى إنتاجية لفرض رؤيته وتجنب المواجهة مع الولايات المتحدة بعد حرب العراق، إلى جانب كونه نظام نموذجي في التسليطة تتغذى الأصولية على سياساته العامة المنتجة للفقر والامية ومشاعر الحرمان لدى شريحة واسعة من سكانه مما خصب

حالة الراديكالية وشحنها بطاقة كامنة لا تلبث أن تتفجر لحظة انعدام النظام العام والسلطة المركزية، هذا في حقيقة الأمر محاولة في فهم دينامية صعود تنظيمات مثل 'داعش' و'النصرة'.

قد لا يملك أي نظام أن يصنع كل حيثيات البيئة الراديكالية بكليتها، إذ أنها تسير وفق دينامية انحطاط حضاري وتاريخي تعيشه المجتمعات العربية منذ قرون، لكن تضاعف منه النظم السياسية في الدول النامية، أي لا تكون مهمة النظام توليدها جذرياً بقدر ما يحفر لها الممرات لتنساب وفق إرادته كما فعل النظام السوري، إلا أنها تخرج عن السيطرة إذا أصبحت طوفاناً شعبياً مدفوعاً بكم هائل من القهر والظلم والاستهانة بإنسانية الإنسان كما يحدث في سورية اليوم.





عماد العبار *

نحو تأسيس وعي اجتماعي مختلف: مع آية {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}

الخلاصة:

لا شك بأن الممارسة الاجتماعية الخاطئة تقوم على فهمٍ مشوّهٍ للدين، أو على تطبيق انتقائيٍّ لنصوصه دون الأخذ بعين الاعتبار النصوص المكملّة، وهذا ما وجدناه مع استخدام الناس في مجتمعنا لآية {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، فكان فهمها وتطبيقها المجتزأ عند كثيرٍ من الناس يؤدي إلى الاستغراق أكثر في الحياة، ما أدّى إلى حالةٍ من الفردية، والانعزال التدريجي عن المجتمع. ولذلك وجدنا أن نعيد التفكير في كثيرٍ من الآيات التي تقوم عليها مثل هذه الممارسات الاجتماعية الخاطئة، وبهذه الآية نبدأ.

* طبيب مقيم في فرنسا. أحد المؤسسين في 'مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية'. كاتب للعديد من المقالات الفكرية والسياسية المنشورة في مواقع وصحف سورية، كصحيفة 'طلعنا عالحرية' و'عنب بلدي' و'سنديان' وموقع 'أورينت.نت'. باحث في الفكر الإسلامي وقضايا التغيير الاجتماعي، ومسألة الحرية واللا إكراه من منظور إسلامي، من خلال عدة دراسات منشورة في موقع 'الجمهورية لدراسات الثورة السورية'، وموقع 'أون إسلام نت'. صدر له كتاب بعنوان 'قصة الحرية بين النص القرآني والتطبيق التاريخي للإسلام'.



للنص الديني حضور مركزي في عملية تشكيل الوعي الاجتماعي في مجتمعاتنا، فهو حاملٌ أساسي للثقافة الإسلامية، ومجتمعاتنا الحالية بجميع مكوناتها، إسلامية وغير إسلامية، مجتمعات تحمل ثقافة وعادات وتقاليد لعب النص الديني دوراً أساسياً في تكوينها، وبالتالي فإن أي إصلاح فكري يعمل على إعادة تفعيل النص بشكل سليم، سيكون له تأثير على المجتمع بكل فئاته.

تقوم الممارسات الاجتماعية الخاطئة إما على فهم مشوه للنص، أو على استخدامه واستخدام تفاسيره بشكل مجتزأ، ومُعزل عن بنية النص الأخلاقي ككل.

يمثل التطبيق الاجتماعي للآية {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} ⁽¹⁾ نموذجاً للتطبيق الانتقائي للنصوص، أو الاختيار الانتقائي لتفاسيرها، فلطالما كان الفهم الجمعي للآية؛ أن على الذي أنعم الله عليه أن يظهر أثر النعمة على نفسه بين الناس، ولطالما كان التطبيق العملي لها يتظاهر على المستوى الاجتماعي بالمزيد من التباهي بالنعمة والمال؛ لطالما فهم أن الحديث عن نعم الله يكون من خلال الإكثار من التمتع بها، وأن حرمان النفس من هذا الإكثار 'المتاح عادة لمن يملك الإمكانية' هو نوع من الجحود بهذه النعمة، وأن ذلك يعني في المحصلة أن هذا الشخص 'المُنعم عليه لم يكن يستحق النعمة من الأساس.

معرفة سياق الآية ضروري وأساسي هنا لضبط معنى مفردة 'فحدِّث'. الآية جاءت مباشرة بعد مجموعة من الأوامر التي تحدد جملة من التزامات الفرد الاجتماعية تجاه آخرين يعيشون ظروفاً حرجية كاليتيم والمحتاج؛ {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} في سورة الضحى. الحديث عن نعم الله يأتي هنا ضمن سياق الحز على العطاء والتكافل الاجتماعيين، الآية التي يفهمها معظم الناس على أنها تحض على ظهور أثر النعمة على الشخص المخاطب، موقعها لا يخدم هذا الفهم نهائياً. حتى أن الفهم الحرفي للعبارة على أنها دعوة للحديث 'بمعنى الكلام' عن وجود هذه النعمة، لا ينسجم مع سياق الآية.



لهذا الفهم أساس في التفاسير المعتمدة، فقد أورد الطبري في تفسيره للآية: «{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} قال: بالنبوة، حدثني يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَبة، قال: ثنا سعيد بن إياس الجبري، عن أبي نضرة، قال: كان المسلمون يرون أن من شُكِرَ النعم أن يحدث بها»⁽²⁾.

كما أورد القرطبي رأياً مشابهاً حول معنى الآية فقال: «أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد 'وأما بنعمة ربك' قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوة؛ أي بلغ ما أرسلت به»⁽³⁾، وللحق، فإن المفسرين حين تناولوا الآية لم يتهاونوا في تفسير الآيات التي سبقتها، والتي تحض على مراعاة أمر اليتيم والسائل، بينما أتى التطبيق الاجتماعي للآيات على اجتزاء كلام المفسرين من سياقها، فأصبح التطبيق العملي للآية محصوراً في الحديث عن النعمة، يختلف أشكال الحديث.

بالعودة أيضاً إلى السورة التي تسبق سورة الضحى من حيث الترتيب، وهي سورة الليل، سنجد أن الآيات تتكلم في السورتين ضمن جوٍّ واحد، هو نفسه جو الحز على العطاء والنهي عن البخل وتكديس المال: {فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} (4).

في المحصلة يمكن قبول أي فهم وتطبيق للآية، طالما انسجم مع تحقيق الالتزامات الاجتماعية التي تذكرها للآيات، 'فحدث' يجب أن تكون مصداقاً لتدبير شؤون اليتيم، ومعالجة مشكلة السائل، للعطاء والتقوى، ولقهر البخل وفتنة المال؛ إن كان الفهم والتطبيق كذلك فحدث ولا حرج، لأنك إن فعلت ذلك، ستكون تصرفاتك هي أول من سيحدث عنك، وسيكون من حقك أن تحدث، بل ومن واجبك أيضاً!

نفس الإشكالية تواجهنا عند مراجعة التطبيق الجمعي لآية ثانية أنت ضمن سياق مختلف ضمن سورة القصص: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (5). الفهم الشائع للآية يظهر من خلال التطبيق السائد لها، حيث تستخدم اجتماعياً للتذكير بضرورة أخذ القسط الضروري من متع الحياة. الملاحظ أن الآية تقول {لا تنس نصيبك من الدنيا}، والطبيعي أن يكون خطاب 'لا تنس' موجهاً لمن هو على وشك النسيان أو قد نسي بالفعل، وأن تكون موجهة لأشخاص قد أجحفوا بحق أنفسهم وحق أقرب الناس إليهم. التطبيق الاجتماعي للآية يظهر بدوره فهماً مختلفاً عن ذلك، فتجد أن من يستخدمها يريد عملياً نصيباً إضافياً، يرى أن غيره قد سبقه بالحصول عليه ضمن متوالية تنافسية لا نهائية. الاستخدام الاجتماعي يضع الآية كمدخل شرعي نحو استغراق أكثر في الحياة، ويجعلك مذنباً إن كنت ممن لا يضع حدوداً لحياته بالشكل الذي يرتضيه التصور السائد أو 'الجائح' للنص وللحياة ككل.

الفهم السائد لهذه الآيات يخرج بالآيات عن المنحى الذي تريد إيصاله، ولكن هذا لا يعني أن ما يريده هذا الفهم هو مسألة غير مشروعة 'بالكامل'، أو تعارضه النصوص بالمطلق. إن الإنفاق على الذات والأسرة ضمن حدود معينة لا يعد سلوكاً خاطئاً بكل تأكيد، ونحن هنا لا نسعى لإثبات خطئه أساساً. ولكن ما نعمل على مناقشته، أن هذا النوع من الإنفاق هو مسألة فطرية غريزية، ليس من شأن النص الديني أن يثبتها بقدر ما من شأنه أن

(2) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار هجر، القاهرة 2001، ط1، ج24، ص491

(3) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت 2006، ط1، ج23، ص351

(4) سورة الليل.

(5) سورة القصص.

ينظّمها، وأن يضعها في خدمة بناء المجتمع، شأنها بذلك شأن جميع الغرائز البشرية. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"⁽⁶⁾، والحديث النبوي يحذّر الإنسان بدايةً من السرف ويحضّهُ قبل ذلك على الصدقة، قبل أن يردّه إلى غريزته بعد أن أعاد له تنظيم حياته بالشكل الذي يخدم الهدف منها. وبحسب الآية السابقة من سورة القصص، فإن نصيب الدنيا يتموضع بالضبط ما بين التفكير بالدار الآخرة من جهة {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ} ومنهج الإحسان من جهة ثانية {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}. ضمن هذه الإحداثيات المضبوطة يأتي نصيبك من الدنيا. لكن لماذا هذه الإحداثيات الصارمة؟ الجواب تجده في الشطر الأخير من الآية نفسها {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}؛ فانعدام الحس والمبادرة الفردية تجاه المجتمع يعني مع الوقت تراكم الفساد فيه، العملية ليست فقط عبارة عن ضرائب وزكاة مفروضة، فهذه كلها مجتمعة هي الحد الأدنى والضروري ولكنها ليست كل شيء. الخطاب القرآني يسعى إلى جعل الإحسان منهج حياة، ويشير إلى أن غياب هذه القيمة له صلة ما بالفساد والإفساد. غياب الإحسان يؤسس لبداية فرديةً أنانية، وعزلة عن هموم المجتمع واحتياجاته، وهذا يسهم في تراكم مشاكله الاجتماعية والاقتصادية بما يعني تراكم الفساد، ولا شك أن أغلب المفسدين مرّوا بحالة الانفصال هذه في البدايات.

نشير هنا إلى أننا نعيش عالماً تجتاحه فردانيةً أنانيةً كوّناء، فردانيةً على المستوى الشخصي قبل تكوين أسرة، ثم تأخذ شكلاً مختلفاً مع وجود الزوجة والأطفال، فتستمرّ بالعطاء الأسري، الذي يتمظهر من خلال تفاني الفرد في تسخير هذا العطاء داخلياً على نطاق الأسرة. يرافق هذا الأمر شعور تبريري أن هذا أحد أنواع العطاء الاجتماعي، بل يتم تعميم فكرة أن هذا هو أعلى درجات العطاء، وما هي إلا فردانيةً أسريةً تؤسس لبدايات عزلة عن مشاكل المجتمع، وهي فرع من فردانية الذات، فالأسرة هي الامتداد الطبيعي للذات الفردية.

وفي المجتمعات الإسلامية يتم تمرير 'جائحة الفردانية' تحت غطاء كثير من الآيات أو التفاسير المجتزأة - كما يحدث عند استخدام آية {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}- بما يخدم فكرة العطاء الأسري بالدرجة الأولى، حتى إذا ما أخذت الأمور أكثر من حد الإشباع بكثير، يتم عندها الالتفات نحو مصارف أخرى للعطاء خارج محور الذات الشخصية والأسرية، هذا إن بقي هناك قدرة على العطاء بعد كل هذا!

المجتمع السوري لم يكن يوماً بعيداً عن هذه الجائحة، وكان يفترض أن تكون الثورة مناسبة لا تعوّض لمعالجة الكثير من المشاكل الاجتماعية، كون الأزمة ستغيّر من الركود الذي أصيب به المجتمع ككل، ومع أن هذا التغيير حدث بنسبة ما، إلا أن الملاحظ أيضاً أن نسبة كبيرة من الناس لم تُغيّر نظام حياتها أو طريقة فهمها للنصوص ورغم كلّ ما جرى، كثيرون هم الذين لم تُغيّر الأحداث نظام حياتهم اليومي، منهم في الداخل وفي بلاد النزوح أو في بلدان الاستقرار في الخارج. ولا نبالغ إن قلنا أن مجرد الحديث عن 'النصيب من الدنيا' في مثل هذه الظروف هو مسألة فيها نسبة عالية من الترف والأنانية، في الوقت الذي تعيش فيه شريحة لا يستهان بها من السوريين تحت خط الحياة بكثير!

قد تبدو الفكرة غير ذات أهمية في نظر كثيرين، لكنها تتعلّق بتفاصيل صغيرة جداً بالمقارنة مع المشاكل التي تجتاح عالمنا العربي والإسلامي؛ لكن من الضروري هنا أن نعيد تذكير أنفسنا بأن إحدى أكبر مشكلاتنا أننا

(6) رواه النسائي، وقال عنه الحاكم صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

مشغولون دائماً بالقضايا الكبرى، أو بالأحرى بقضايا نعتقد أنها الأكبر والأكثر أهمية ضمن سلم أولويات التغيير، وهي إن افترضنا 'جداً' أنها أكثر أهمية، إلا أنها بالمقابل أكثر صعوبة كون تغييرها لا يحتاج إلى قرارنا نحن فقط، بل تؤثر فيها قرارات لجهات متعددة. وفي خضم ذلك تغيب عنا الجزئيات الصغيرة التي تقع ضمن نطاق الممكن، والتي نستطيع التأثير فيها بشكل مباشر ومضمون، وهي تمثل محور أي عملية تغيير اجتماعي، ولا أبالغ إن قلت أن مسائل الإنفاق والعطاء الأسريين إن تم تنظيمها كما يجب مع إعادة قراءة النصوص المتعلقة بها، فإننا سنكون أمام ثورة تغيير اجتماعية بكل معنى الكلمة.

كثيرة هي التفاصيل الحياتية التي لا نلقي لها بالاً، بينما تكون في الحقيقة هي العتبات الأولى للتغيير!





رهام كوسا*

العرس في أوكرانيا والطبل في سوريا

الخلاصة:

افتراضياً يخرج الحدث الأوكراني من ساحته الإعلامية الأوروبية، ليصبح أحد مواضيع الحديث بين السوريين على شبكات التواصل الاجتماعي. تتخصص صفحة 'وَجْه نصيحة من ثوار سوريا إلى ثوار أوكرانيا' بمعالجة الشأن الأوكراني من زاوية محلية تلقائية. تسلط هذه المادة الضوء على ما تعكسه منشورات الصفحة من حالة نفسية وذهنية لقطاعٍ سياسيٍّ معينٍ في الشارع السوري، وما تشكّله هذه الصفحات من وسائل مشاركة سياسية بسيطة تخرج من إطارها المحلي هذه المرة لتتعامل مع حدثٍ عالمي.

* طالبة ماجستير في كلية الإعلام بجامعة دمشق، ومعيدة في قسم الإذاعة والتلفزيون في الكلية ذاتها. تعمل صحفية لجمعية قرى الأطفال SOS، ومقدمة ومعدة برامج في إذاعة ميلودي سوريا. عملت محررة لعدد من المواقع الإلكترونية السورية واللبنانية، ومراسلة لمجلة Syria Today الورقية. لديها مدونة شخصية أدبية تحمل اسم 'فتات أيام'.



بينما يسيطر الغموض على الوضع السياسي في أوكرانيا نتيجة التطورات المتسارعة هناك، ومع بدء البرلمان الأوكراني إدارة شؤون البلاد دون انتظار توقيع الرئيس على القرارات المختلفة، يعلن الشارع السوري نجاح الثورة في شرق أوروبا، بعد أسبوع فقط من بدء الاحتجاجات الشعبية ضد الرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش. تخرج المشاركة المحلية الافتراضية للأحداث السياسية من نطاقها الجغرافي المعتاد، لتتناول حدثاً عالمياً في دولة لم يكن للسوريين احتكاك قوي معها قبلاً. تربط وسائل التواصل الاجتماعي وما توفره للعامة من منابر للحديث والتعبير الشخصي بين دول وثقافات العالم بشكل أكثر حقيقية ومباشرة مما استطاعت أن تضطلع به الأقمار الاصطناعية قبلاً. تحمل هذه الوسائل مفهوم العولمة السياسية والثقافية إلى مرحلة جديدة كلياً، تتبسط بها الأدوات وتتوفر في يد الجميع، ليكون الكل مشاركاً في هذه العولمة وليس متلقياً لها فقط.

تكثر التعليقات المحلية على ما يحدث في أوكرانيا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وينفرد 'فيس بوك' بتغطية خاصة لما حدث في ثاني أكبر دول أوروبا الشرقية منذ بداية الأحداث حتى اللحظة، فتحت عنوان 'وجه نصيحة من ثوار سوريا إلى ثوار أوكرانيا' أطلق السوريون حدثاً استطاع اجتذاب حوالي سبعة آلاف متابع نشط خلال بضعة أيام، لتزدحم الصفحة الصغيرة بـ 'نصائح' سورية للأوكرانيين في ثورتهم الناشئة، نصائح يحمل معظمها طابعاً ساخراً يدرك أن لا رسالة حقيقية سترسل للأوكرانيين من المنبر الافتراضي، ليذهب آخرون في توجيه نصائح تتبع من ندم وإعادة نظر فعليين حول ما ارتكب في 'الثورة السورية' من أخطاء.

ضمن الإطار التهكمي المنشور على صفحة الحدث، نصائح تتفاوت بين تموين المواد الاستهلاكية الترفيهية التي ارتفع سعرها محلياً وفقد بعضها الآخر، إلى سخرية من الرئيس الأوكراني المخلوع، "اليوم انهزم الرئيس الأوكراني دقلي الظهر قال بدو جنسية رقاوية ... قتلتمو قوم انقلع من هيين بست ايدك وقت كان لك كلمة ع النفوس الأوكرانية منشان جنسية ما رديت علي". ينشر الرقاوي الفراقي معلقاً على عزل الرئيس.

يرى مستخدمون آخرون في الصفحة فرصة حقيقية لنقد ما حدث خلال السنوات الثلاث الماضية تحت شعار الثورة، وينفرد عدد من المنشورات في ذكر ملاحظات يرى أصحابها أنه كان حرياً بمن قام بالثورة تطبيقها في سوريا أولاً، فيما ينتقل البعض إلى توصيف ما يجب على المعارضة الأوكرانية تجنبه مستقين ذلك من سقطات كثيرة تقع

فيها المعارضة السورية حتى اللحظة، خاصة تلك التي تحاول بناء سلطة شرعية لها خارجياً، ينشر أحمد أبو الريم: "مبروك انتصاركم بس ديرو بالك من كلمة (الأنّا)".

يصدم نجاح الثورة الأوكرانية الشعب السوري من كافة الاتجاهات السياسية، توقعوا سيناريو موازياً للقصة السورية بلغة شرق أوروبية. ليس لؤماً سورياً بل بحثاً عن مشاركة في الأزمة الدولية في الشمال حيث ما زالت الأحداث تحتل المزيد من التهكم والمشاركة والإسقاطات على الواقع السوري، فالثورة شقراء استطاعت أن تستفز السوريين لكشف المزيد مما خفي طوال سنوات.

ففي محاولة لاستقراء الرأي العام السوري حول نجاح الثورة في أوكرانيا، يطرح مرتادو الصفحة على بعضهم البعض عدداً من الأسئلة الجوهرية، يرجح تصويت المشاركين أن أسبوعاً واحداً لا يكفي لنجاح ثورة ما مقارنين ذلك بسنواتهم العجاف الثلاث التي لم تجلب سوى الخيبة، كما تصرح أكثرية المشاركين في الاستفتاء أن الفرق بين نجاح الثورة الأوكرانية في مواجهتها مع ما يحصل في سوريا يعود إلى التآمر العالمي على الشعب السوري، وقميل الكفة في تصويت آخر أيضاً إلى جدوى الثورة المسلحة مقابل الاحتجاجات السلمية مبرزة المواقف السياسية للأغلبية المتفاعلة على الصفحة.

ويوضح مؤسس الصفحة (رفض الكشف عن اسمه لأسباب خاصة) وهو 'ناشط في الثورة السورية' على حد تعبيره، أنها المرة الأولى التي يطلق فيها حدثاً على 'فايسبوك'، مؤكداً أن إنشاءه للحدث كان تهكمياً بحثاً دون دوافع سياسية واضحة، ليتجاوز انتشار حدثه التوقعات.

تعبّر بعض المنشورات عن يأس وإحباط شديدين يغرق فيهما السوريون اليوم على اختلاف توجهاتهم السياسية بعد ثلاثة أعوام من الأزمة السورية التي ستمتد إلى أمد بعيد على ما يبدو، ولا يشكل الحدث الافتراضي الجديد سوى إضافة لعشرات الصفحات والأحداث الافتراضية العديدة، نشاطات أطلقت بتأثير النوستالجيا والحنين الشعبي لحقبة ما قبل آذار 2011، ليعود السوريون فيها إلى تكرار أمنيات متشابهة ترغب لو عاد الزمن بضعة أعوام، ليس للقيام بشيء أو نفيه، سوى لتقدير حياة اعتادوها كان الأجدر بهم أن يقدروا نعمتها، ولا يبدو واضحاً مدى جدوى كل تلك النشاطات من عدمها في ظل عدم تقديمها فائدة على أرض الواقع.

في ذات السياق، تشي منشورات الصفحة بحالة نفسية منهكة لمعظم روادها، هم في الغالب سوريون معارضون وصل بهم ياسهم لمرحلة التهكم، منهم من لم يصل تلك المرحلة بعد، ولا يرى الصحفي السوري علي إبراهيم مشكلة في ذلك بل يراها "فسحة لتلافي الأخطاء بنفس تهكمي مبدع". تحمل الأحداث الافتراضية التي باتت 'موضة' فيسبوكية جديدة الروح ذاتها، يصبح فيس بوك منبراً لأحداث تشتاق الماضي، أو تتخيل مستقبلاً فقد السوريون الأمل في حدوثه. تصطف أسماء هذه الأحداث في أذهان شريحة واسعة بات الموقع الأزرق مهرباً الوحيد، في ساعات منزلية طالت مؤخراً لأسباب عديدة.

خارج الصفحة، وتعليقاً على الحدث الأوكراني، ينشر إعلاميون وكتاب سوريون رؤيتهم لما حدث، ينشر الإعلامي السوري فيصل القاسم مصبراً جمهوره على 'تويتر' و 'فايسبوك': "لا تقارنوا أنفسكم بأوكرانيا، فالشعوب مثل أصابع الكف ليست متساوية"، كما يتساءل الإعلامي رفيق نصر الله: "هل الألعاب الشتوية أهم من خسارة أوكرانيا؟" مبيناً أن الروس أخطأوا مرة أخرى، ليلخص الكاتب الساخر لقمان ديري ما يحصل افتراضياً بقوله: "الشعب الأوكراني أسقط النظام، والناشطون السوريون يتباهون".

تكشف صفحة 'وجه نصيحة لثوار أوكرانيا' اعترافاً غير مباشر بأخطاء عديدة شلت الثورة محلياً؛ يتحول

الآلاف إلى منابر وهمية هروباً من الواقع المتعب بعد آذار 2011، يدرك معظمهم ألا إنجاز فعلياً لهذه الصفحات إلا الهذر المزدحم، يواصل السوريون تفتيت ساعات نهارهم بكلام لا طائل له إلا التعبير عن الذات حتى وإن كان عبثياً بحثاً، في ظل غياب واضح للأسماء الثقافية والمدونين والأقلام الصحافية عن المشهد ككل وتركه للأسماء المعتادة التي اعتلت منابر التعبير الفعال لثلاث سنوات وما تزال.





علياء أحمد*

دور النساء السوريات في العدالة الانتقالية

الخلاصة:

تؤكد المقالة على ضرورة مشاركة النساء في العدالة الانتقالية باعتبارها شكلاً من أشكال مشاركتها السياسية، وبضرورة العمل على التحضير لهذه المرحلة على جميع المستويات. وتشير المقالة إلى أن مشاركة النساء، وبالمناصفة مع الرجال، في آليات العدالة سيساهم في تحديد شكل الدولة السورية الجديدة، مع المطالبة بتفعيل المنظمات النسوية ودعوتها لاتخاذ دورها الفعّال في هذه المرحلة.

* خريجة علم اجتماع - جامعة حلب. باحثة في قضايا المرأة والطفل، نشرت عدد من الدراسات والمحاضرات الثقافية. مدربة في الآليات الدولية لحماية حقوق الإنسان، ورفع الوعي الجندري. كتبت في مواضيع اجتماعية وثقافية متنوعة في منطقة الشرق الأدنى، ونشرت في العديد من المواقع الإلكترونية منها: موقع الأوان، موقع نساء سوريا www.nesasy.org، موقع معهد جينيف لحقوق الإنسان www.gihr.org، وغيرها.



تعيش سوريا مرحلة مخاض عسير تهدد بموت الجنين والأم في الوقت نفسه، بدلالة ارتفاع نسب العنف في المجتمع السوري، وتزايد عدد ضحاياه من قتلى ومهجرين ونازحين ومخطوفين... إلخ، إلى جانب تدمير البنى التحتية في الدولة، وغيرها من الآثار الكارثية للصراع الممتد منذ ثلاث سنوات، ولا يزال مستمراً بدون توضيح ملامح حل لو بعيد الأمد يلوح في الأفق.

ورغم أن الوضع الحالي على الصعيد السياسي والميداني بعيد عن تحقيق حلم العدالة الانتقالية، والتي هي ضرورة ملحة للخروج من هذا المأزق الدموي، إلا أن التخطيط لها وتهيئة البنية المجتمعية والكوادر اللازمة لتحقيقها مسألة في بالغ الأهمية، عدا عن كونها عامل مساعد في نشر السلام وتكريس قيمه في المجتمع السوري الذي يشقاق لسلام ابتعد عنه طويلاً.

وكما أكدت كثير من الاتفاقيات الدولية⁽¹⁾ من خلال تجارب الدول، مأسوية نتائج النزاعات المسلحة على النساء والأطفال، ركزت اتفاقيات أخرى⁽²⁾ على أهمية دور النساء في صنع السلام. ولا يبتعد الواقع السوري وحال النساء عن التوصيف الذي استقت منه الاتفاقيات السابقة خلاصاتها، فالإحصاءات والدراسات الميدانية المهتمة بواقع النساء السوريات ومعاناتهن على اختلاف أشكالها، حقيقة تؤكد على ضرورة انتفاض النساء ذاتهن على الواقع المأسوي الذي يعشنه، والمساهمة في تحقيق السلام السوري الذي سيولد من رحم السوريات اللواتي يجب أن يؤمن بقدراتهن على إنتاجه والمشاركة الحقيقية في صنعه.

ترتبط العدالة الانتقالية بمسألة الانتقال الديمقراطي، وكلا المفهومين من قضايا الشأن العام وتساهم الدراسات الفكرية في تبين ملامحهما ودور النساء ومشاركتهن في تحديد مستقبل الدول الساعية إلى تكريس المنهج الديمقراطي السليم.

الأمر الذي يستوجب توفر جملة من الشروط الذاتية والموضوعية تأتي في مقدمتها ضرورة تصالح الدولة مع ذاتها، والاعتراف بأخطائها وتصحيح ما اعوج من تشريعاتها وقوانينها ويشكل صعوبات وتحديات تمنع من تحقيق هذا الدور.

1 إعلان بشأن حماية النساء والأطفال في حالات الطوارئ والنزاعات المسلحة والصادر عام 1974.

2 قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم 1325 و1820 و1888 حول المرأة والأمن والسلام.

ويمكن توضيح مصطلح العدالة الانتقالية بأنه مجموعة من الإجراءات التشريعية والاجتماعية والقضائية والإدارية التي تعالج ما حدث خلال فترة سابقة تخللتها انتهاكات لحقوق الإنسان من قبل أجهزة الدولة وجماعات منظمة أو غير منظمة، بهدف إظهار الحقيقة، وحفظ الذاكرة الوطنية، وجبر الضرر، ومحاكمة المنتهكين، وتكريس السلم الأهلي للتأسيس لدولة الحق والقانون.

في محاولة للتأكيد على ضرورة مشاركة النساء في العدالة الانتقالية، نتصدى لمجموعة من الأسئلة التي لا يمكن تقديم الإجابة الوافية عنها في هذه العجالة منها: هل يمكننا اعتبار مشاركة النساء في العدالة الانتقالية شكلاً من أشكال مشاركتهن السياسية، التي لا يمكن وصفها حالياً على جانبي الصراع 'النظام والمعارضة' إلا بالمشاركة الشكيلة والتجميلية؟

للإجابة عن هذا التساؤل نستأنس بتعريف المشاركة السياسية عند صموئيل هانتجتون وجون نلسون بأنها "النشاط الذي يقوم به المواطنون العاديون بقصد التأثير في عملية صنع القرار الحكومي، سواء كان هذا النشاط فردياً أم جماعياً، منظماً أو عفويّاً، متواصلاً أو متقطعاً، سلمياً أو عنفياً، شرعياً أو غير شرعي، فعلاً أم غير فعال"، ويتضمن مصطلح المشاركة السياسية قدرة المواطنين والمواطنات على التعبير عن إرادتهن/م في القرارات السياسية، وإمكانية تحقيق هذه الإرادات بشكل مباشر أو عن طريق ممثلين يختارونهن/م.

وهنا لابد لنا من الجزم بأن المشاركة السياسية هي المعيار الحقيقي للمواطنة والمؤشر الدال على تمتع الدولة بنظام سياسي ديمقراطي، فالمواطنات والمواطنون المتساوون في الحقوق والملتزمون بأداء الواجبات، يشاركون بكامل حريتهم في بناء مجتمعهم الذي ينتمون إليه ويكفل لهم حقوقهم الإنسانية. وهنا ننقل لتساؤل جديد، هل تكون معيقات مشاركة النساء في آليات العدالة الانتقالية هي نفسها المعوقات التي حددت شكل مشاركتهن السياسية؟

وضحت الكثير من الدراسات الأسباب الكامنة وراء ضعف المشاركة السياسية للنساء، وتتنوع هذه الأسباب نتيجة عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية وحتى سياسية ترتبط جميعها بالبنية الفكرية البطيركية للمجتمع التي تستفيد من الدين والتشريعات والقوانين والعادات والتقاليد كوسائل لقونة المعوقات والتحديات التي تحد من مشاركة النساء، ونتيجة للصراع الدائر، الذي كان له أثرٌ كاشفٌ أكثر منه منشئٌ للقضايا المجتمعية في جوانبها السلبية بشكل عام، وللمشكلات التي تعاني منها النساء بشكل خاص، فإن الصعوبات والمعيقات السابقة أصبحت أكثر وضوحاً، الأمر الذي يستوجب معالجتها بحزم وبدون مراعاة واستحياء، ولأننا نستطيع أن نجزم وبجراحة أن شكل مشاركة النساء في آليات العدالة الانتقالية سينبئ بالشكل الذي ستكون عليه الدولة السورية الجديدة.

فإذا قلنا أن 'المجال العام' مصطلح يُطلق على المساحة الرئيسة التي يتشكل فيها الرأي العام المكون من آراء مختلفة لتجمعات بشرية تتمتع بحق المشاركة ولها نفس الحقوق والواجبات، ومكونة من أفراد ومجموعات تتحد أمماتهم الفكرية ومنظومتهم القيمية، حسبما تقتضي تنشئتهم الاجتماعية في 'المجال الخاص' (الذي يتضمن كل ما يناقشه قانون الأحوال الشخصية من علاقات أسرية وزواج وطلاق و..إلخ)، فهو مرتبط حكماً بشكل الدولة ويُرعى من قبلها، لذلك لابد من قطعية الربط بين المجالين الخاص والعام وتأثير كل منهما في الآخر، وبالتالي فإن مرحلة العدالة الانتقالية مرحلة حاسمة في العمل على تحرير وتطوير المجال الخاص لينعكس إيجاباً على المجال العام، وبالتالي لبدء العمل الممنهج لبناء الدولة الديمقراطية المنشودة.

وهنا لابد من المرور على دور المنظمات النسوية ومساهمتها في تفعيل دور النساء للمشاركة الفعالة في العدالة الانتقالية لا نجد تحرجاً من ضرورة مطالبة هذه المنظمات النسوية إلى جانب هيئات المجتمع المدني

لأخذ دورها الحقيقي والجاد في تمكين المرأة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومنح التسهيلات للعمل على إزالة الصورة النمطية للمرأة من خلال جميع الوسائل مع ضرورة التركيز على وسائل الاعلام بكل أنواعها، للوصول إلى مرحلة حقيقية في إنجاز المطالب وألا تكون جعجعة بلا طحين، وأن تعد مشاركتهم في إجراءات العدالة الانتقالية على قدم المساواة مع الرجال، مقدمة ضرورية لهذا الدور المرجو، ومن الضروري يمكن الإشارة إلى أن المطالبة بـ 'كوتا' نسائية في آليات العدالة الانتقالية أمر غير وارد، بل يجب تحقيق مبدأ المناصفة بين النساء والرجال في هذه الآليات، وخاصة أن النساء هن الأكثر تضرراً من النزاعات.





مجد جُمُول*

الدولة الريعية زمن التحول السياسي: عقبة أمام الديمقراطية وغياب الطرح عن النخب السياسية

الخلاصة:

يسعى المقال إلى عرض إشكاليتين تواجه، ما درج على تسميته، دول 'الربيع العربي' في سياق التحولات التي تتعرض لها. تكمن الأولى في البنية الريعية لهذه الدول، والثانية في غياب طرح هذه الإشكالية عن النخب السياسية مع أن حلّها مطلبٌ رئيسيٌّ في صميم عملية التحول الديمقراطي. فالدولة الريعية تُشكّل عقبةً أمام تحقيق الديمقراطية لارتباطها بالاستبداد كأسلوب للحكم، لما توفره هذه البنية للسلطة الحاكمة من قدرة على السيطرة والتحكم بموارد المجتمع بما يخدم مصالحها دون مساءلة، ولأن هذه الدولة تنبثق عنها شرائح اجتماعية - اقتصادية ترتبط مباشرةً بالسلطة وتتنافى مصالحها مع بنية الدولة الديمقراطية والحامل الاجتماعي الذي تفرزه. تغيب معالجة هذه القضية وغيرها عن معظم النخب السياسية، في حين أن تغيير بنية الدولة والعقلية التي تحكم مؤسساتها وهيكل الاقتصاد، إلى جانب الانتقال السياسي، هي شروطٌ أساسية للانتقال إلى دولة ديمقراطية. هذا المقال مقدمةٌ لورقةٍ بحثيةٍ سيتم إنجازها مستقبلاً.

* مجد جُمُول طالب في السنة الأولى ماجستير، في كلية الاقتصاد، جامعة دمشق. بعد انطلاق الانتفاضة السورية، آذار 2011، وخلالها تنقّل بين عدة تجمعات سياسية وشارك بعدة نشاطات مدنية وسياسية، وهو حالياً عضو في 'تيار بناء الدولة السورية' حيث شارك في نشاطاته المدنية والسياسية وتأسيس 'منتدى البناء السياسي'.



عند بدء ظهور الحركات الاحتجاجية في المنطقة العربية من تونس إلى البحرين مروراً بسوريا، كان هنالك مجموعة من العوامل؛ الذاتية والموضوعية، الداخلية والخارجية، عوامل في سياق الفعل وأخرى في سياق رد الفعل، ساهمت بهذا القدر أو ذاك في تشكّل هذه الظاهرة ومآلاتها، أي الاحتجاجات العلنية الغاضبة، وإعادتها إلى المسرح السياسي العربي بعد عقود من الجمود. وسرعان ما تحوّلت من مستوى الظاهرة إلى مستوى يقارب حالة من القُطْع التاريخي بين مرحلتين متميزتين بشكل جليّ: ما قبل الانتفاضات الشعبية، وما بعدها. وإن كان لكل دولة ظروفها الذاتية التي تخصّها دون غيرها، إلا أن هناك ظروفاً موضوعية تتشابه فيما بين الدول وينسب متفاوتة بحسب اكتمال هذا الطرف ونضجه، يتجلّى هذا الشرط الموضوعي بوضوح على مستويين: البنية الريعية للدولة والعقلية الريعية المسيطرة عليها، وبنية المجتمع المحكوم وطبيعة مؤسساته وتنظيماته غير الخارجة عن سلطة الدولة.

فعلى مستوى الدولة، يمكن الحديث عن الاقتصاد الريعي، الذي يقوم على مصادر ريعية - غير إنتاجية - خارجية: كالعوائد النفطية والمساعدات الخارجية وعوائد خدمات السيادة (ترانزيت) نقل بحري ... إلخ؛ بالإضافة لتحويلات المغتربين والعاملين بالخارج، أو داخلية: كالدخول التي تتكون في القطاعات الخدمية كالمصارف والتأمين والأسواق المالية والعقارات والسياحة. يُعتَبَر الاقتصاد الريعي حجر الأساس للدولة الريعية، تحديداً عندما يقترن هذا الاقتصاد بنظام سياسي تديره عقلية ريعية، مما تحمله من أبعاد سياسية واجتماعية فضلاً عن الاقتصادية، فالعقلية الريعية هي أسلوب متكامل لإدارة الموارد المادية والبشرية، ينطلق من نمط اقتصادي (ريعي)، ليتجاوز الاقتصاد ويطال البنية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية أيضاً، ليصبح في نهاية المطاف ناعماً ومسيراً لكيفية إدارة الدولة وصنع القرار السياسي، لسلطة تجني ولا تنتج، تكسب ولا توزّع، تثبت ولا تتغيّر. ويذكر الاقتصادي المصري حازم الببلاوي في كتاب 'الدولة العربية'، الذي شارك جياكومو لوتشيانى بتأليفه، أنه في الدولة الريعية يعمل الجزء الأساسي من المؤسسات وقوة العمل في التوزيع والاستهلاك، وتستطيع الدولة عن طريق التمرکز والاحتكار أن تجعل مجموعة صغيرة مرتبطة بها تعمل في ميدان الاقتصاد والسياسة.

وعلى مستوى المجتمع، تعيش الأغلبية من شعوب هذه الدول حالة من التهميش والفقر والبطالة ونقص

العدالة الاجتماعية بمستويات صارخة، بالتوازي مع علاقة بين الدولة والمجتمع أساسها القهر والاستبداد بطابع تأميمي احتكاري لجهة الدولة، فهذا التقارب، على مستويي الدولة والمجتمع، هو ما يفسّر (ليس وحده وإنما مجال البحث في هذه النقطة) حالة الانفجار الجمعي الغاضب والمطالب بتغيير حال معيشتها بدءاً من تغيير النظام السياسي.

والجدير بالبحث هنا، هو جوهر هذا التغيير ومسارات تطوره على مستويي الدولة والمجتمع، فمن المعروف أن تغييراً سياسياً يستهدف تغيير النظام السياسي من استبدادي شمولي إلى ديمقراطي تعدّدي يتضمّن، أو عليه أن يتضمّن، تغييراً بنيوياً في النظام الاقتصادي الاجتماعي السائد والذي يحدّد بالضرورة بنية الدولة وهيكل الاقتصاد وطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة. ولاستحالة فصل السياسي عن الاقتصادي عن الاجتماعي فلا بدّ وأن تكون طبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي متكاملة مع شروط النظام السياسي السائد؛ إذن، النظام السياسي الذي يدير الدولة والمجتمع بآليات ديمقراطية يحتاج لنظام اقتصادي اجتماعي يؤسّس ويكمل هذه الإدارة ويعزّز القدرة الديمقراطية للمؤسسات، نظام من شأنه أن يخلق تقدّماً اقتصادياً وعدالة اجتماعية، فالفقراء والمرضى والأُميين ليسوا من مكونات الدولة الديمقراطية التي يُفترض، لتكون ديمقراطية بالفعل، أن يتساوى مواطنوها الأحرار - من الفقر والمرض والجهل - كي يكونوا أحراراً في المشاركة والتمثيل السياسي.

ومُودج الدولة الربيعية المحدّد لطبيعة الدولة السورية منذ بدايات تشكّلها، أو في الجمهورية الثالثة على وجه التحديد، لا يستقيم مع ديمقراطية الحكم والتمثيل المؤسّس على قاعدة المشاركة السياسية الواسعة والفعّالة، ولا يمكن لهذا النموذج إلا أن يحول دون الديمقراطية لتشبّثه بالاستبداد، فالثروة لا تُنتج بل تُجنّى دون جهد أو ابتكار أو مشاركة مجتمعية واسعة، والسلطة هي مصدر الثروة، وهذا ما يضطر بالحاكم لأن يبقى حاكماً ولأن يدعم بقاء حكمه بكل الأدوات فهو يملك الثروة، التي مصدرها السلطة، وينفقها في سبيل ديمومة حكمه في مسارين رئيسين: الأول في تدعيم عظمة السلطة وكياناتها بضخامة الإنفاق على الجيش والأمن الاستخباراتي المحلي لقمع وجود ومنع ظهور أي تشكيل مجتمعي، من الثقافي إلى السياسي، خارج سياق السلطة وسيطرتها، دون إهمال الإنفاق الملحوظ على الإعلام الرسمي، أداة الدعاية السلطوية، ويتمثّل المسار الثاني في 'رشوة' المجتمع بتوزيع علاوة هنا ووظائف وهمية هناك تحت مسميات من قبيل 'المنحة' أو 'المكرمة' التي تدنّأ على طبيعة العقلية الربيعية التوزيعية الحاكمة للدولة ومقدّراتها، وسمة هذا الإنفاق، إضافة إلى أنه لا يحتكم لأولويات اقتصادية، ويعدّ أداة هامة لامتصاص غضب الناس وإقناعهم بالارتباط المصيري بينهم وبين الدولة/السلطة.

وبعد أن صارت فرصة أو مرحلة التغيير السياسي، دون النظر إلى أنها تحققت بأقل من الحد الأدنى من الطموح ومع خرابٍ فاقت تكلفته عن عوائد التغيير المنتظر والمُقدّر له أن يكون مخيباً للأمال، هل ستبقى بنية الاقتصاد كما هي - ريعية خدمية وليست إنتاجية؟ وهل ستؤزّع دخول عوائد النمو على السوريين بنفس الشكل ليزداد غنى الأغنياء وفقير الفقراء أكثر؟ لقد غاب عن رؤى النخب السياسية السورية وبرامجها، خصوصاً في المرحلة الحالية، طرح ومعالجة مسائل من قبيل: طبيعة الدولة السورية وبنية الاقتصاد السوري وعلاقات الإنتاج وعلاقات التوزيع والعقد الاجتماعي المؤسّس، وضرورة تغيير هذا البنية لتغيير فعلي للنظام - ربّما لأن غالبيتها اعتادت مؤخراً على معاداة النظام الحاكم من بوابة السلطة - "في مرحلة ما بعد 10 حزيران 2000 لم تعد سياسة المعارضة تُبنى إلا بدلالة 'الأخر'، سواء كان في الداخل أو خارج الحدود، ولم تعد تبنى كما كانت في مرحلة 1976-2000 على أساس ما تراه الذات المعارضة من برامج وفقاً للتوازنات، سواء كانت السقوف عالية أم منخفضة، حيث كان ما تراه الذات السياسية المعارضة هو الذي يرسم الحركة، نحو الأعلى أو سقوف أخفض وفقاً لتغير موازين القوى،

وليس بدلالة 'آخر' تتحدد برامج وحركة المعارضة من خلاله. (محمد سيد رصاص. المعارضة في بداية عهد الأسد، الأخبار اللبنانية، العدد 2166، 2013/12/3). كما وأن هذه المسائل غابت في الأساس، أو ظلت غائبة، عن العقلية الحاكمة للسلطة دون أي مواجهة للواقع ومآلات انحداره لتستمر في ذات النهج الذي أدارت وقادت به البلاد والعباد طيلة العقود الماضية وأدى إلى ما أدى إليه اليوم، حيث لم تستطع هذه العقلية قراءته إلا بوصفه 'مؤامرة خارجية' عليها أو على الدولة وشعبها - حيث لا فرق عندهم بين المفهومين - وليس جراء عوامل داخلية تراكمت وتفاعلت عبر سنين طويلة لتتجلى بهذه الصورة الحركية المعقدة.

والنموذج المصري مثال صارخ ومليء بالدروس، في مصر، حيث وقع تغيير سياسي لسلطة الحكم، برموزه وحزبه، ولكن النهج الاقتصادي لإدارة الموارد وتوزيعها المجتمعي استمر على حاله، وظهر الحكم العسكري، ليظهر عند أول عملية انتخابية بعد الثورة، الحكم الذبني، أو مشروعه بصيغ الدولة بلونه، وليعود الحكم العسكري مجدداً مع احتمال بقائه 'ديموقراطياً'. فهل تتحقق الديمقراطية بمجرد تغيير سلطة الحكم إلى سلطة أخرى بظروف أقل استبدادية من السابق بقليل؟ أي مع تعديلات دستورية ومشاركة عدد من الأحزاب السياسية عبر صندوق انتخاب، دون الأخذ بالحسبان أن النمو الاقتصادي والتوزيع العادل للدخل والخدمات الاجتماعية، من تعليم وصحة وسكن، هي من مقومات الديمقراطية وشروط موضوعية لانطلاقها، لأن حجمها ونوعيتها وعدالة توزيعها هي التي ترتقي بالإنسان وبطموحه وبإنتاجيته وخياراته، الذي يُعدّ، أي الإنسان، الهدف النهائي لعملية التنمية وأساسها، والتنمية حرية ... حسب ما تعلّمنا من أمارتيا سن Amartya Sen.

الاقتصاد الريعي هو ضد الاقتصاد الإنتاجي والعقلية الربيعية ضد العقلية الإنتاجية بالضرورة، الاقتصاد الريعي يستسهل الحصول على الثروة/الريع ليوزعها على مراكز السلطة ثم على القلة المقربين ومن ثم يوزع القليل الذي تبقى على الشرائح الأوسع من المجتمع.

فلا بدّ من تغيير يتناسب والمضمون المعرفي والتاريخي لمفهوم 'الثورة'، تغيير يُحدث فارقاً في النهاية لصالح الشرائح الاجتماعية المهمّشة، الحامل الاجتماعي للحراك المطالب بالتغيير والذي يرتبط حاضره ومستقبله، وجودياً، بهذا التغيير. تغيير يطال البنى المؤسسية للدولة والمجتمع بمستوياتها المادية والقيمية: هيكل الاقتصاد ونمط الإنتاج والتوزيع، عقلية وذمنية الإدارة الحاكمة لموارد المجتمع المادية والبشرية. إن تغيير هذه المنظومة القيمية يسبقه تغيير في المنظومة المادية للمجتمع، عبر حشد كل الطاقات لبناء قاعدة إنتاج مادي حقيقي تخلق القيمة وتوزعها من خلال عمليات الإنتاج والتبادل والتوزيع والاستهلاك بالسياق الذي يوظف ويستخدم القسط الأكبر من الموارد المادية والبشرية استخداماً أمثلاً، هذه القيمة وبهذا الأسلوب في التشكل والتوزيع من شأنها أن تسرّع من عملية التراكم المادي والمعرفي للبدء بمشروع التنمية المستدامة الذي يعود على الإنسان السوري ارتقاءً ويعبر به عتبة التأخر، وليتعاقد السوريون فيما بينهم على أساس حتمية التكامل ووحدة المصالح الوجودية، ولتقوم علاقة بين الدولة والمجتمع أساسها التصالح وتبادل المنفعة لا القهر والاستبداد، وليستقل القرار السياسي -المستند لنظام اقتصادي غير تابع- بدلاً من خضوعه لمنطق التوازنات الإقليمية بصفرية تأثيره على تلك التوازنات.



وليد بركسية*

التدوين السوري وجدلالية الالتصاق بالواقع

الخلاصة:

ازدادت أهمية التدوين السوري كحركة فكرية وثقافية بعد الأزمة السياسية والحرب الأهلية التي تشهدها البلاد اليوم، ومع تنامي أعداد المدونين تدريجياً، ينقسم أولئك إلى قسمين يتشبه أحدهما بالواقع لرصده والتدوين حوله بطروحات شخصية أو عامة، فيما يبتعد الآخر عن الواقع الإنساني والسياسي نحو مواضيع أخرى قد تكون خيالية على صعيد التأليف الأدبي مثلاً أو متخصصة في إطارات ضيقة، لتبقى جدلية الالتصاق بالواقع التي تسعى المقالة إلى توضيحها محكومةً بشخصية المُدَوِّن أولاً وأخيراً.

* كاتب وصحافي ومدون سوري مقيم في بيروت. خريج كلية الإعلام في جامعة دمشق 2011، يحضر لرسالة الماجستير في جامعة بيروت العربية حول المدونات السورية، متخصص في النقد الإعلامي لصالح قسم الميديا في جريدة المदन الإلكترونية منذ آذار 2013. ينشر كتاباته الأدبية ومقالاته النقدية (سينمائياً وأدبياً) في مدونة 'فقاعات صابون' منذ تموز 2011، مهتم بالشأن الثقافي والفكري بالدرجة الأولى.



لم يكن انتشار المدونات في سوريا حتى فترة قريبة بالكثافة المطلوبة مثلما هو الحال في دول العالم والمنطقة العربية، حيث بقي التدوين لأسباب تقنية وحكومية بتأثير سياسة الحجب السابقة، محصوراً بفئات قليلة من المهتمين النخبويين والصحافيين العاطلين عن العمل أو السوريين المغتربين، ليكتسب التدوين تدريجياً أهمية أكبر في ظل الأزمة السياسية التي تعيشها البلاد، حتى تكرر في الأذهان كنشاط فكري معاصر بشمولية الملتيميديا، ولم يعد مقبولاً النظر إليه كمجرد هواية لقطع أوقات الفراغ بعكسه فنوناً كاملة من الكتابة والأدب إلى التصوير والجرافيكس مروراً بالصحافة وإعلام المواطن وغيرها، لتبرز بحدة قضية انعكاسات الأزمة الطويلة في البلاد سياسياً وأمنياً واجتماعياً واقتصادياً، على قرارات المدونين السوريين فيما يقدمونه للجمهور.

وتشهد أروقة الإنترنت اليوم، ولادة جيل كبير من المدونين الذين وجدوا في التدوين صيغة أكثر رسمية ربما للتعبير عن أفكارهم مقارنة بالثرثرة اليومية على الشبكات الاجتماعية التي احتلت صدارة اهتمام شرائح واسعة من الجمهور في عصر الومضات على 'فايسبوك' و'تويتر'، وبتنا نلاحظ ولادة مجتمعات افتراضية تضم المدونين معاً كـ 'اتحاد المدونين السوريين' وصفحة 'مدونات سورية' على 'فايسبوك'، أو موقع 'كوكب سوريا' الذي يجمع التدوينات السورية لعدد كبير من المدونات ويعيد نشرها عبر الـ 'RSS'.

لا يوجد إحصاء دقيق لعدد المدونات السورية اليوم، خاصة أن هناك قسماً من المدونين لا يفصح عن هويته الشخصية لسبب أو لآخر، وتنشط معظم تلك المدونات على محركي 'ووردبرس' و'غوغل' فيما يبقى استخدام منصة 'تامبلر' محدوداً، وتنوع اهتمامات أولئك جميعاً بين المذكرات الشخصية البسيطة وصولاً للتحليلات السياسية المعقدة مروراً بعشرات المواضيع المتخصصة والعامة الأخرى.

مدى التصاق المدونين بالواقع السوري في ظل الحرب الأهلية التي تعصف بالبلاد منذ العام 2011 ليست متشابهة لدى الجميع، حيث تتحكم القرارات الفردية والمزاجية الذاتية بالتدوين إلى حد كبير، نقطة فاصلة بين التدوين كفن إعلامي (مجازياً) وبين العمل الاحتراقي في وسائل الإعلام التقليدية، وإن كان العمل الاحتراقي محصوراً بضوابط الزمان والمكان وقيم الأخبار المتعددة، فإن التدوين يتحرر من ذلك نحو آفاق أوسع للتعبير عن الذات دون قيود.

في ضوء ذلك، فضل عدد من المدونين السوريين تحويل مدوناتهم العامة القديمة إلى الجانب السياسي أو رصد الجانب الميداني في البلاد موضوعية حرفية أو شخصية ذاتية كما في 'مدونة مدينة'، 'مدونة بلا اسم'، 'مدونة مؤنس'، وقام آخرون بإغلاق مدوناتهم العامة القديمة وافتتاح مدونات متخصصة بأسماء جديدة كبدية للتعبير عن الواقع المعاصر 'مدونة خريشات' تحولت إلى 'مدونة آدم' كما ارتأى البعض الآخر الابتعاد عن تلك المعمة الخطرة نحو مواضيع بعيدة عن الأزمة في البلاد لتتحول مدوناتهم إلى عالم خيالي من الخواطر والأفكار المنفصلة عن الواقع والمعبرة عن أحلام أصحابها بغد أفضل كما في 'خطر في بالي'، 'مرافئ النورس'، 'قمر لا يكتمل'، ولا يتعدى النوع الأخير الميكانيزمات الدفاعية النفسية المعتادة في العقل البشري عند الأزمات عبر التجاهل أو الهروب من الحقيقة.

المدونات الأدبية كنوع من المدونات المتخصصة تشغل قسماً كبيراً من اهتمامات السوريين أكثر من غيرها إلى حد ما، حيث باتت ملجأ دافئاً في ظل تنامي صعوبات النشر محلياً وإقليمياً، وتعكس تلك المدونات ذات الانقسام السابق بين الواقع والخيال، فبينما باتت الكتابات الأدبية لبعض المدونين انعكاساً لحقيقة الحرب والتشرد واللجوء والمآسي الإنسانية في البلاد كما في 'ماجدالينا'، و'جرعة زائدة' حافظت مدونات أخرى ولو جزئياً على خصوصيتها كأدب قد يعكس خيال صاحبه فقط بمعزل عن تفاصيل المكان والزمان عبر مواضيع عن الحب والجسد والموت وغيرها كما في 'بلوكة'، و'فتات أيام'، والنوعان عموماً يبشران بأفلام واعدة في الأدب المستقبلي بشرط الاستمرار والاهتمام والحصول على الفرص للنشر والبروز.

الانفصال عن الواقع قد لا يكون سيئاً مثلما يبدو، بل هو ضروري إلى حد ما للاستمرار في الحياة رغم الظروف المحيطة كنوع من التحدي للموت المجاني في البلاد، فلا يمكن تعميم الجانب السياسي فقط على الحياة ككل رغم أهميته النسبية حالياً، بل تبقى هناك جوانب أخرى فنية وأدبية وسينمائية وشخصية تستحق تسليط الضوء عليها من منظور مختلف، ويبقى ذلك مرهوناً بالأهمية النسبية التي يراها المدون نفسه في المواضيع المختلفة، ومن هنا لا يمكن الحكم على التدوين من وجهة نظر المتلقي فقط لأنه يمثل في الأساس إشباعاً لحاجة المدون وحقه الطبيعي في التعبير عن نفسه بالطريقة التي يراها مناسبة.

من جهة أخرى لا غنى للمجتمع عن التدوين الملتصق بالواقع من أجل كسر روتينية تدفق الأنباء والمعلومات عبر وسائل الإعلام بأجنداتها السياسية المختلفة، إضافة لطرح الرؤى السياسية الخاصة بمختلف الاتجاهات، وتبرز في هذا الإطار المدونات البعيدة عن الانقسامات السياسية في سوريا اليوم التي تعارض كل ما يجري في البلاد من قبل النظام والمعارضة والكتائب الإسلامية المتشددة، كما يمكن القول أن الأزمة في البلاد فتحت المجال أمام المدونين لدخول عالم 'صحافة المواطن' باستحياء بنقلهم الواقع اليومي في محيطهم الجغرافي وخاصة من النواحي الأمنية والميدانية والمعيشية، بعدما كان ذلك النوع من التدوين محصوراً بالدول الغربية.

جدلية الالتصاق بالواقع لا يمكن حسمها حتى من وجهة نظر أكاديمية، حيث ترجع د. إيمان عليوان، المحاضرة في قسم الإعلام بجامعة بيروت العربية، المسألة إلى طبيعة التدوين الملتصقة بشخصية صاحبه ومميزاته الفردية، خاصة أن المدونات نشأت بداية كبديل افتراضي للمذكرات الشخصية قبل عصر الشبكات الاجتماعية، لتتطور المدونات فيما بعد إلى مساحة حرة للتعبير لا يشترط فيها الحرفية الإعلامية، ومن هنا لا يمكننا كجمهور عام أو متخصص مطالبة المدونين الالتصاق بواقعهم أو تحميلهم مسؤوليات اجتماعية فوق طاقاتهم، كما لا يمكننا إطلاق صفات إعلاميين أو صحفيين أو أدباء أو مفكرين عليهم إلا إن كانوا كذلك في الواقع، لتبقى شخصية المدون وخصائصه الفردية هي العامل الحاسم في تحديد طبيعة مدونته ومدى التصاقها بالواقع، سواء كان الواقع شديد الشخصية بنطاق اجتماعي - جغرافي ضيق أو عاماً يحاكي قضايا المجتمع الراهنة.



عمّار المأمون*

الحقيقة 'ليست' هناك: سوريا، الحرب الرقمية 'قراءة عامة'

الخلاصة:

تحدد المقالة العلاقة بين الإعلام ودوره في التأثير على ما يحدث في سوريا، وتعرض أساليب الاستخدام الجديدة (كالتطبيقات، الوسائط المتعددة، التابليت)، وتناقش التفاعل بين وسائل الإعلام الجديدة والتقليدية، والرأي العام، والعالم الحقيقي، بالإضافة إلى تدفق المعلومات ومصادرها. توليد محتوى هذه الحرب الرقمية هو أحد العوامل المهمة في هذه المقالة التي تحاول طرح سؤالين: هل يمكننا الاعتماد على الأشخاص الذين يُؤلّدون هذا المحتوى؟ هل ما يقولونه يمثّل الحقيقة؟

* صحفي سوري مستقل يعمل من دمشق في عدد من الصحف والمواقع العربية والدولية. مهتم بشؤون الثقافة والمجتمع. حاصل على شهادة الماجستير بالإعلام، ويسانس في النقد والدراسات المسرحية.





أصيب الناس بالصدمة - على الأقل البعض منهم - عندما اكتشفوا أن وسائل الإعلام الجديد وتقنيات الاتصال عبر الإنترنت قد تؤدي إلى حدث جلل كالربيع العربي. الحالة السورية كانت الأكثر تعقيداً، حيث ما زالت مستمرة منذ ثلاث سنوات، فوسائل الإعلام الجديدة والإعلام التقليدي لعبت دوراً هاماً في صناعة الحرب وتحريك الرأي العام بصورة أثرت على حياة الأفراد الشخصية.

كان من الصعب على أحدهم أن ينضم إلى المنظومة الإعلامية الرسمية، قبل ما تمر به سوريا الآن من 'ثورة/ حرب'، إذ كان لا بد له من صلات واسعة و'واسطة' مع الحكومة بالإضافة إلى الكثير من المعاملات الروتينية والبيروقراطية، فالإعلام الرسمي محكوم بـ 'مافيا' حسب العاملين بالمجال، وقليلون هم القادرون على الانضمام إلى المنظومة الإعلامية الرسمية.

هذا الاحتكار أصبح من السهل كسره فوسائل الإعلام 'المعادية' للنظام السوري ترسل مراسليها إلى الداخل تسلاً - النظام السوري يمنع عمل الصحفيين والمراسلين الأجانب دون رقابته - أو بالاتفاق مع القائمين في بعض المناطق التي خرجت عن سيطرة النظام، أو ببساطة تتعاون مع بعض الناشطين في الداخل خوفاً على طاقمها، إذ تم تصنيف سوريا كالبلد الرابع سوءاً من حيث حرية الصحافة حسب التقرير السنوي لمنظمة مراسلين بلا حدود عام 2013. المفارقة تكمن في الإعلام 'البديل/الجديد'، الذي يعمل القائمون عليه من داخل سوريا أو خارجها لبث ونشر صور وفيديوهات وتقارير على منصات خاصة بالناشطين أو بيعها لوسائل إعلامية كبرى حيث ثمن الصورة من أحد المناطق الساخنة حوالي \$20 كأدنى قيمة، ما خلق مسارين متناقضين للمعلومات ويمكن للجمهور اختيار الأنسب، أو الأكثر قرباً من توجهه.

حرب شخوص رقميين

الجانِب الأهم الآن هو ما يسمى بـ 'الإعلام الشخصي - الجماهيري' حيث يتم إنتاج المحتوى من قبل فرد أو أفراد - على صعيد شخصي، ثم نشره عبر الإنترنت على مستوى عالمي، يمكن أن يؤدي إلى تَوَرُّط المؤسسات الإعلامية - وأحياناً الحكومات - ضمن صراع على المعلومات وصحتها، فالبرامج على القنوات السورية الرسمية وشبه

الرسمية تستخدم نفس المواد التي تستخدمها قنوات معادية للنظام كـ 'أورينت' لإثبات وجهة نظرها، حيث يكذب طرف الآخر أو يتم اكتشاف أن المحتوى بحد ذاته ملفق من أحد الطرفين أو من قبل 'المصدر/الفرد' نفسه. المثال الصارخ على هذا هو مدونة 'فتاة مثلية من دمشق' والضجة الإعلامية التي ثارت حولها، حيث أفقدت المواطن السوري ثقته بوسائل الإعلام سواء التقليدية أو الجديدة. فالفتاة 'آمنة' التي أصبحت تتحدث عن تجربتها في سوريا وما تتعرض له ضمن دمشق من ضغوطات وتهديدات، تتحول في النهاية -بعد اكتشاف الخدعة عبر صحيفتي التليغراف والغارديان- إلى المدون الأمريكي توم ماكماستر الذي كان يكتب ما يراه ملائماً لوجهة نظره. وعلى إثرها استخدم التلفزيون السوري الوطني هذه القصة كدليل لفضح الكذب والتضليل ضده، ضمن حملة دعائية عالمية معادية. ما يثير الجدل أن هذه القصة تنتمي للعالم الرقمي 'السايفري' ولا تمتلك أساساً واقعياً ولا ترتبط بما يحدث فعلياً داخل سوريا على الأرض، فالحرب الآن هي حرب إنتاج المعلومات وإعادة إنتاجها.

هذا 'التورط' الإعلامي قاد الجماهير إلى حالة من فقدان الثقة بوسائل الإعلام والرسائل التي تبثها، حتى وسائل الإعلام الجديد التي كانت تمتلك مصداقية عالية فقدت جزءاً من ثققتها، بسبب عمل القائمين عليها سواء من داخل سوريا أو من خارجها، أو سلوك أصحاب منصات النشر نفسها كـ 'فايسبوك' الذي قامت إدارته بإغلاق صفحة 'أكاد الجبل' التي توثق للثورة السورية وذلك في تموز 2013.

حرب تطبيقات الإنترنت

لا يمكننا أن نغض البصر عن الحرب الحقيقية، لكن الحرب الرقمية على ذات المستوى من الأهمية فالناشطون يخاطرون بحياتهم للوصول إلى الخبر أو الصورة. هم في الداخل أو الخارج يقومون دائماً بنشر أساليب مختلفة لكسر رقابة النظام وتخطي جدران الحماية التي يقيمها النظام، أو كالذي قام به الناشط 'دلشاد عثمان'، حيث طور تطبيقاً يحدد مكان سقوط صواريخ 'السكود' ثم يرسل الإحداثيات إلى المُستَقْبِل. المُستَقْبِل يمكن أن يكون أي جهاز من الجيل الجديد 'تابلت'، بالإضافة إلى أساليب إدارة المحتوى عن بعد (عن طريق تحرير المادة المُرسَلة عبر منصات مختلفة، وحماية هذه المنصات بـ 'جدران الحماية' وبرامج الحماية من القرصنة).

يقول الناشط و.أ - 32 عاماً: "علينا دائماً أن نتابع التطور التقني لحماية النشاط في الداخل وحماية المنصات التي نستخدمها من التعرض للاختراق من قبل القرصنة"

حرب الجنس السايفري

أحد العناصر الجديدة في هذه الحرب هو تسريب أشرطة جنسية سواء كانت تحوي شخوص من النظام أو المعارضة، كالفيلم المسرب للإعلامي حسين مرتضى مدير قناة العالم في سوريا. الشريط ليس بالدقيق ولا يمكننا التأكد من مدى صحته، لكن البعض يأخذ حقيقة وجوده بعين الاعتبار. وعلى الجانب الآخر هناك الشريط الذي يحتوي عبد الرزاق طلاس قائد كتبية الفاروق وهو يمارس الجنس الرقمي. ما يثير الاهتمام هو أن كلا الشريطين مأخوذان من محادثات سكايب، ما يعني -سواء صدقنا حقيقة الشريط أم لا- أن كلا الطرفين لم يجبر الآخر على التصرف، إذ لا يمكن لأحد ما أن يغتصب الآخر عبر سكايب أو يجبره على نزع ثيابه. تسريب هذه الشرائط أو تصنيعها يلعب دوراً أخلاقياً هاماً فيما يتعلق بمصداقية هذه الشخصيات وتحويلهم إلى مادة دسمة للدعاية.

حرب الكلمات

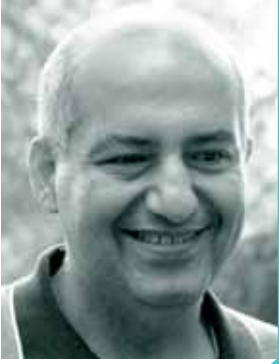
ضمن هذا المستنقع الهائل من المعلومات التي يتم تبادلها وإعادة إنتاجها ثم نشرها نجد أنفسنا تحت تأثير نظرية 'ما بعد حداثة' تفسر جزءاً من هذه الظاهرة. فنحن محكومون بالـ 'الواقع الفائق' ويسعى الجميع إلى حماية 'الصورة' التي يقدمها طرف ما عن نفسه أو حدث ما. هذا أدى إلى خسارة المعرفة الحقيقية، ما جعل كل ما يحدث الآن يخضع لتسميات متعددة تتفق مع سياسة المنصة التي تقوم بالنشر. فما يحدث في سوريا الآن متعدد التسميات فهو بالنسبة لإعلام النظام الرسمي 'أزمة، أحداث، مؤامرة كونية ... إلخ' في حين أن أطراف أخرى تسميه 'ثورة، حرباً، حراكاً حراً، جهاداً مقدساً .. إلخ'، حتى أن هذا الموقع الذي ينشر هذه المادة يمتلك سياسة خاصة به للتسمية. بتطبيق هذه السياسة على مستوى أكبر بحيث تشمل 'النصوص والصور والفيديوهات' نرى أن قنوات المعلومات المختلفة أصبحت تؤثر على إدراك الأفراد لما يحدث من حولهم وردة فعلهم تجاهه، فيمكن لـ 'مظاهرة ضد النظام' أن تُسمى 'مجموعة تدعو لهطول المطر' حسب قناة سما -الدنيا سابقاً- الموالية للنظام السوري، وهذا ما يترك الجمهور/الرأي العام أمام نسخٍ مختلفةٍ من قصةٍ ما، بعضها متماسك منطقياً ومدعوم بالصور والنصوص.



مراجعات كتب

◆ إيقاعات أدبية على أنغام سورية
◆ التحول الديمقراطي.. سورية نموذجاً





فرزند عمر*

إيقاعات أدبية على أنغام سورية: سرد بين الواجب والخيال

مراجعة لكتاب 'الوحدة تدل ضحاياها'
تأليف: دارا عبد الله، 71 صفحة، قطع متوسط، دار مسعده، 2013.

الخلاصة:

هذه مراجعة لكتاب 'الوحدة تدل ضحاياها' للكاتب الشاب دارا عبد الله. تنطلق هذه المراجعة من فكرة أن الفن مستودعٌ رئيسيٌّ للاوعي الجمعي، والحافظ التاريخي له ولطبيعة حراكه. ضمن هذه الرؤية ستكون المادة المقدمة هنا محاولة لرصد البنية الحركية للمجتمع السوري من خلال قراءة لمثال أدبي، وتتبع الحالة الفكرية وتفاعلاتها مع الشأن العام، ومدى تأثيرها وتأثرها به. كتاب 'الوحدة تدل ضحاياها' مجموعة من النصوص المتأقلمة مع ذاتها التفاعلية اللحظية، حيث اللحظة تتفوق على كل ما عداها؛ هذه اللحظة التي تصاحب التغيير الجذري والثورات عامة، والتي تهتم بالهدم أكثر من البناء أو حسابات النجاح والفشل. هذه الآلية التي تنتمي أصولاً لقوانين الحركة، وبالتالي تتبنى نهجاً أقرب للفوضى من النظام، وأقرب للحياة منه للجماجم والموت، تحاول أن تكسب اللحظة، مؤمنة أن الفوضى تخلق في النهاية قوانين جديدة. في هذه المادة أسعى إلى تقديم تحليل نقدي مع الإشارة إلى نقاط ملحوظة في فقرات الكتاب ككسر المألوف، والاعتماد على روح النكتة، وغلبة الجملة الاسمية على الفعلية.

* طبيب سوري خريج جامعة حلب. له كتابات أدبية ونقدية في الشأن السوري والفكري العام، والملف الكردي في المنطقة.



كتعريف أولي بالكتاب

الكتاب منشور عن 'دار مسعى للثقافة والنشر' عام 2013، يحوي على عدة نصوص، عُنوت بعناوين مختلفة بدءاً من الرقم 1 بعنوان 'تسول' إلى الرقم 77 بعنوان 'المسخ' بالإضافة لوجود نص نهائي بلا رقم عُنون تحت مسمى 'هوامش'. الكتاب جاء في 71 صفحة من القطع المتوسط، في جلّه تأملات ذهنية تنضيدية لما هو متخارج عن الكاتب، أغلبها تتناول الثورة السورية، حتى أن الكاتب نفسه في أحد حواراته مع الصحافة يصرح أنه لولا الثورة لما خاض أساساً تجربة الكتابة.

نظرة عامة

النصوص هي عبارة عن تأملات فكرية تحاول ترتيب الخارج وفق رؤية جديدة للخارج، تعالج أسئلة وجودية منها مطروح ومنها لم يُطرح، وهي تترك لدى المتلقي تساؤلات جوهرية على الرغم من الشكلائية التي اعتمدها الكاتب في بناء جملة اليقينية، ضمن مسار تحريضي للمتلقي، تحاول زرع خلخلة في ذهنية القارئ، أساسها كسر المقدس وفق بنائية تعتمد السرد الوصفي الانطباعي في كثير من الأحيان.

الكتابة الثورية كسر المتعارف ونبذ المؤلف

مما يثير الانتباه لدى قراءة نصوص دارا عبد الله أن رائحة الثورة السورية تكاد تغطي على كل ما عداها، فالثورة بوقائعها على الأرض حاضرة، والثورة بمفهومها التغييري الجذري حاضرة كذلك، إن الثورة بمفهومها الجذري تتناول كل البنى، خاصة البنى المعرفية، هذه البنية التي تخص وتهم المشتغل ضمن الحيز والفضاء الثقافي.

نرى دارا يحاول تأسيس هذا المفهوم الثوري عبر هدم لما هو سائد وموجود، أو متوارث بطريقة التلقين التسلسلي، مع محاولة إيجاد صيغ بديلة. نرى دارا ثائراً على الواقع من حوله، كما نراه ثائراً على ذاته أحياناً، فمنذ مطلع الكلمة الأولى لنصوصه نراه يعنون النص الأول بعنوان 'التسول'، إشارة منه إلى فعل مقدس ضمن الذهنية

السائدة، ألا وهو العبادة، لينتهي بنص معنون بـ 'المسخ' الذي يروي حادثة عن أحد المعتقلين ممن استشهدوا تحت التعذيب.

النصوص تحاول نبش الأشياء وتعريتها في سبيل رؤية جديدة مستندة إلى ذهنية تأبى الاستكانة للراكد والمتوارث والمعهود، بل تحاول جاهدة إيجاد زوايا جديدة للرؤية تتماشى مع ما قدمته الثورة من وجود مادي ومعرفي جديد، هذه المعرفة المنبثقة عن تحريك عنيف للبنى والقيم الاجتماعية والفردية، ما أدى إلى اندثار بعضها وانبثاق بعضها الآخر فيما تبدلت أغلب القيم المتبقية في تسلسلها التقييمي من حيث الأهمية.

وفق هذا التغيير تم تلقي وإخراج الكينونة لدى الكاتب وفق مخارج غير مألوقة ومعمانٍ وقيم تتفق مع ما بات موجوداً وواقعاً، وليس مع ما كان، فعلى سبيل المثال نرى لدى الكاتب انحيازاً باتجاه القيم الفردية الحريصة على تسيد الحرية كقيمة جوهرية لماهية الوجود، أكثر من القيم الجماعية الحريصة على تسيد الكرامة كقيمة تؤسس أهميتها من خلال الحرص على استمرارية المجموع عبر تأصيله لا عبر تجديده. وهذا بلا شك يؤسس للخصوصية والتفرد الضروريين للإمسك بمفاعيل الحرية كقيمة انتهائية فردية في أساسها الطبيعي.

يقول دارا في أحد نصوصه المعنونة بـ 'السكين' من رفوف المطبخ إلى أداة لنبش الذاكرة: "أحلم بعالم يكون فيه كل شخص أصل نفسه، ولا ينحدر منه أحد". نرى هنا دعوة صريحة إلى الفردية والتفرد وهي إحدى الدعوات التي يؤسس عليها الكاتب رؤاه الجديدة، حيث تبدو هذه القيم المرتبطة بالفردية والتفرد واضحة حتى في عنوان الكتاب 'الوحدة تدلل ضحاياها'، مع أنها جاءت في سياق تهكمي، نتيجة المفارقة المبنية على أساس غض الطرف عن مجازر جماعية بالأسلحة الحديثة، بينما تستشعر بالأسى والحزن لمقتل فرد واحد بأسلحة قديمة، إلا أنها رغم ذلك جاءت تمتدح الفرد على حساب المجموع.

رغم هذا النزوع باتجاه القيم الفردية نجد الكاتب لا يستثني ذاته من وضعها ضمن محرق الثورة، فهي ذات قديمة مبنية وفق أسس معرفية راكدة لا تتناسب مع لحظة البركان الثوري، وهي كما كل الأشياء بحاجة لإعادة النظر، لذلك نجد الكاتب على سبيل المثال متناولاً ذاته إلى درجة السخرية في النص المعنون بـ 'مديح الخوف'.

واللغة كذلك لها نصيبها من المراجعة، إذ يعتبرها جزءاً من الاشكالية الكليانية، وجزءاً لا بد وأن يعاد النظر في بنيتها، وهو في هذا الجانب تحديداً يحاول ممارسة ذلك سلوكياً ضمن ما يكتبه، إذ نراه متمرداً على الأشكال السائدة للغة من خلال تبنيه لصياغات دلالية ينجح فيها أحياناً ويخفق أحياناً، إلا أنه فيما يبدو أن رغبة التجريب والتغيير ورؤية الأشياء من منظار جديد تطغى على كل شيء، حتى على حساب النجاح ذاته.

الكتابة وفق آلية النكتة المفارقة والتضاد

عند قراءة النصوص رغم ما تحتويه من ألم إلا أن القارئ يستشعر بوجود شيء يدعو للضحك أحياناً كثيرة، السخرية تكاد لا تفارق النصوص، هذه السخرية التي تبدو أنها مبنية وفق آليات النكتة، التي تحاول جلب المتناقضات في صورة واحدة، حيث تؤمن المسافة بين الأضداد مساحة غير مرئية من الضحك، وكلما كانت تلك المسافة كبيرة كلما كانت مساحة الضحك أكبر.

والنصوص في مجملها مبنية وفق هذا الأساس التكنيكي حيث نجده في أحد النصوص المعنونة بـ 'تعاسة البشري' يقول: "قبل الخلق فح اللذة حرماناً من الفردوس، بعد الخلق: الوعد بالفردوس حرماناً من اللذة".

إضافة لروح السخرية، ومساحة الضحك التي تخلقها هذه الآلية والتي تبدو بأنها ضرورة تقنية موفقة من

قبل الكاتب لخلق حالة توازن مشاعرية لدى القارئ، إلا أنها تلعب دوراً آخر لا يقل من حيث الأهمية، فهي جاءت كتعويض حركي نتيجة نقص الحركية والزمن الذي تتمتع بها النصوص، والذي نجم أساساً من خلال اعتماد الكاتب على صياغة بلاغية تعتمد الجملة الاسمية كأساس، كما سيمر معنا لاحقاً، هذا التضاد يخلق مساحة وحيزاً حركياً يبدو في أغلبه غير محسوس ظاهرياً في آليات الكتابة، إلا أنها تخلق لدى المتلقي بؤراً توترية عبر آلية الشحن والتفريغ المتأتمية من خلق مشاعر متناقضة بين الألم واللذة، مسببة حركية مشاعرية لدى المتلقي تبدو ضرورية لتلقي أي نص أدبي من خلال ما تخلقه من مساحة واسعة من الاندهاش.

الكتابة على حواف الواقع

الثورة السورية جاءت في لحظة تراكم غير مستثمر لحلم جيلٍ أو أكثر في محاولة انتزاع المجتمع والفرد من براثن السلطة التي تتحكم بوجودها، هذا الحلم الذي انقطع في لحظة غير محسوبة وغير منتظرة أو مدركة مسبقاً، كانت لها كل الأثر على اللاوعي الجمعي، من خلال تراكم لحظة الإيقاظ وتشاركتها مع الحلم الأساس، كما يحدث لدى الأفراد تماماً، فالمنبه الذي يوقظ النائم على شكل مفاجئ يحتل حيزاً من الحلم المتشكل لحظة الإيقاظ، كأن نجد على سبيل المثال أن الذي نحاول أن نوقظه برش الماء عليه، حلمه سيتخلله مشاهد لها علاقة بالمياه، كأن يجد الشخص أنه يغرق أو ما شابه ذلك أثناء الحلم.

هكذا تمت مشاركة الواقع مع الخيال، وتم سرد الحلم/الواقع وفق هذا التكوين، لنشهد اختلاطاً يقل مشاهدته بين الواقع والخيال إلا في لحظات رضية مشابهة.

هذه الآلية نشهدها أحياناً كثيرة لدى الكاتب، إذ أن مخيلته قلما تكون مفصولة عن لحظة الكتابة المتمثلة بتفاعلات الثورة وإشكالياتها، إلى درجة أن بعض النصوص ترقى لأن تكون خطاباً سياسياً بامتياز، والكاتب نفسه لا ينكر ذلك إذ يقول في أحد النصوص 'دموع القارئ روح الكاتب السائلة': "يلومني الأصدقاء على الفائض الشعري في الموقف السياسي".

كذلك نجد الكاتب في أحيان أخرى يمر أحلامه وتأملاته التي تبدو متخارجة عن الثورة عبر محرق الثورة، إنه يأبى إلا أن تكون الثورة كما هي بوجودها الآتي لحظة الكتابة جزءاً من تكوين وإعادة الهيكلة الذهنية التي يسعى إليها الكاتب. فالكاتب في نص 'تسول' على سبيل المثال يحاول سرد تأملاته بخصوص علاقة العبد بالله، والتي يحيد فيها عن المتعارف والموروث من الرؤية كعادة الكاتب في تفسير ما حوله. هذه العلاقة المستقلة عن الثورة وتفاعلاتها موجودة قبل الثورة وخلالها إلا أن الكاتب يأبى أن تكون تلك العلاقة مفصولة عن الثورة، فهو يذكرنا في نهاية النص ويقول: "في المصائب العظمى التدين إلحاد والإلحاد تدين".

وهنا تبدو الإشارة إلى الثورة واضحة من خلال المصائب العظمى، فمشهدية التسول التي يرتكبها العبد تجاه الله، والتي يعتبرها الكاتب بمثابة الإلحاد، لا تستقيم إلا من خلال الثورة، فهي البرهان على الفرضية والشاهد على ذلك.

هذه الآلية فرضت نوعاً من الكتابة التي سأسميها بالكتابة الأدبية الإخبارية، والتي نشهدها كثيراً في صدد تحليل البنى الأدبية لما يسمى بالأدب الملتزم، إذ تتحول الكتابة إلى واجب والتزام بنقل الواقع كما هو، جنباً إلى جنب مع ما هو نزوح باتجاه البناء وفق أساسات المتخيل، ونعتقد أن ذلك جاء نتيجة تشاركية لحظة الكتابة مع الحلم السابق على اللحظة، حيث الخارج لحظة الكتابة يغدو جزءاً من الحلم ومكوناً له، كما حاولنا تفسيره في آليات الحلم المذكورة سابقاً، وبذلك تخسر الذات الفنية زمن الاختمار الفني الكافي لتحليل الخارج وفق حالة

تخيلية فنية.

فالذات الفنية الأدبية من المفترض أن تكون منفصلة عن الخارج لحظة الإبداع، غير متصلة به إلا وفق آلية الصورة والمرآة، لأنها يجب أن تبقى عاكسة لصورة الخارج، لا أن يكون الخارج كما هو أحد مكونات أو أحد أجزاء تلك الصورة. استقلال الذات الأدبية التكوينية لحظة الكتابة ضرورة حتى تمتلك قدرة تحليلية فنية لما هو متخرج عنها، وليس مجرد تفسير وإخبار للواقع كما هو الحال في النص الإخباري، فكما لا يجوز أن تكون الفرضية جزءاً من البرهان، كذلك لا يجوز أن نفسر الشيء بنفسه، أو كما تخبرنا الأمثال الشعبية بذلك كالذي فسر الماء بالماء.

لذلك نجد أحياناً أن المشهد الملتقط ذو أهمية إخبارية وصفية أكثر منها تحليل فني متخيل، ويبدو النزوح إلى افتراضات من قبيل أن النص جاء كضرورة لإكمال ما يعجز عن إدراكه المتلقي، وإخباره بما لا يمتلكه من الحقيقة، على افتراض مسبق بأن ذهنية المتلقي قاصرة وعاجزة عن إدراك ما هو حقيقي، هو أمر يتبادر إلى ذهن المتلقي، وهي من الأمور المنفرة في سياق تلقي الكتابة الأدبية أكثر مما هي مشوقة.

وربما أكثر ما يمكن أن يدل على رؤيتنا تلك النصوص التي عنونت على الشكل التالي: 'السكين من رفوف المطبخ إلى أداة لنيش الذاكرة'، 'تأملات في المعارضة'، 'أكراد'، 'محمد شيخو'، 'مجنون الفيدرالية'، 'اعترافات سلفي مرتد'، 'المسخ'. وهذا يؤكد ثانية حضور الثورة السورية وتفاعلاتها بقوة على المشهد الكتابي كما أسلفنا سابقاً، وتغزو الثورة السورية واجباً واقعياً، تتشارك إخبارياً مع مخيلة الكاتب، لأنها جزء من الحلم، وبالتالي جزء من المخيلة، تشكل ماهية الحلم وتأسيسه الوجودي، والوقائع بعكس المتخيل تحتاج دائماً إلى حوامل إخبارية أكثر منها حوامل فنية أدبية.

الإجابات اليقينية مقابل التساؤلات الظنية

سبق وأن أشرنا أن الكاتب يعالج من حيث الرؤية أسئلة وجودية كبيرة، يحاول من خلال الإجابة عليها خلخلة السائد والمتعارف عليه، عبر طرح رؤية جديدة تحاول النظر إلى الوجود من زوايا غير مألوقة وأحياناً غير معروفة. رغم ذلك نرى في بعض الأحيان انزياحاً باتجاه الجواب اليقيني أكثر من التساؤل الظني الذي قد يفيد أكثر من الأجوبة القطعية اليقينية في حال تناول إشكاليات وجودية بهذا الحجم ومحاولة اختراق أولي لها.

كذلك نرى أحياناً إجابات دون الإشارة حتى للسؤال المطروح، حتى أنه في بعض الأحيان تتحول صيغة السؤال إلى جواب يقيني، فلا نشهد استفهاماً يدل على السؤال رغم استخدام أدوات التساؤل، فالتساؤل في كثير من الأحيان يأتي لإثبات ما يرمي إليه الكاتب دون ترك أصداء للشك.

ونقتبس من بعض ما جاء من النصوص كما في نص 'تأملات في المعارضة' يقول الكاتب: "من يستطيع أن يفهم رجل الأمن الذي يعذب وهو يبكي! من سيفسر الألفة بين السجين والصرور، من سيشعر بالسجين الذي كتب على حائط المنفردة ألمي أهلكني". في نص 'تنظيم القاعدة' يقول الكاتب: "كيف لمن يتذلل وينسحق ويذرف دموعاً أمام الله في المعبد أن يتسلط على الناس في الشارع". وهنا نجد أن المراد من التساؤل ليست الإجابة، لأن السؤال لا يحتمل إجابتين، هناك إجابة واحدة هي التي يريدها الكاتب، ولا يجوز الخروج عنها، لذلك نجد غياب إشارات الاستفهام لأنها أقرب إلى الإجابة منها للتساؤل كما أشرنا سابقاً.

غلبة الجملة الاسمية على الجملة الفعلية كصيغ بلاغية

مما يستطيع أي قارئ أن يلاحظه وبسهولة أن هناك ارتكاز على بنية الجملة الاسمية، حتى أن الأفعال غائبة عن النصوص وإن وجد الفعل فغالباً يأتي بمثابة خبر للمبتدأ.

إن هذه الصياغة البلاغية تفيد أكثر ما تفيد الثبات والتأكيد كما أوضح لنا علماء البلاغة من قبل، فهذه الصياغة تؤكد ما أشرنا إليه في الفقرات السابقة من النزوح إلى اليقينية والتوكيدية بدلاً من الظنية الحركية الفعلية، وهذا ما يتطلبه النص الإخباري أكثر من النص الأدبي الفني القائم في أساسه على الشك والظن.

هذه الصياغة الطافية على السطح، إضافة للتوكيد والثبات الذي تعطيه فإنها تفتقر للزمن والحركة إن لم يتداركها الكاتب من خلال إعطاء حركية للمسند بجعلها فعلاً أو اسماً اشتقاقياً من فعل، تُوقع الكاتب ومن وراءه النص في إشكالية تناول النص الأدبي وفق معايير الصح والخطأ لدى المتلقي، لا وفق معايير الجمال الذي يتطلبه النص الأدبي، وضمن هذا السياق قد تشكل هذه البنية حجاباً يخفي حقائق جمالية موجودة في النص، عبر مقارنة تحكيمية أساسها الخطأ والصواب.

وهذا ما تفتقر إليه بعض النصوص رغم أن النصوص من المفترض أن تتكلم وتصف حالة حركية غليانية كحالة الثورة السورية، لذلك تبدو أحياناً جماليات الكتابة الأدبية غير مرئية نتيجة هذا الغطاء الحجابي.

لكن على عكس ذلك ما تقدمه هذه الصياغة أيضاً، أنها تعطي الفاعل أولوية على الفعل، وتسلب الضوء عليه وتعطيه الأهمية، فالفاعل هو الأهم في كل ما يحدث وهو الأول بالاهتمام والأجدر بالملاحظة، وهذا بحد ذاته يشكل انقلاباً على الذهنية السائدة، وانقلاباً يخدم الانزياح باتجاه الفردية التي سبق وأن تحدثنا عنها، فالإنسان هو بؤرة الاهتمام لدى الكاتب، على عكس ما هو سائد ومتوارث، إذ تتفوق وفق الذهنية السائدة الشعارات على الوجود في حد ذاته، ويغدو الهدف أهم من صانعه، وبذلك تصبح حياة الإنسان في خطر حقيقي من خلال انزياح باتجاه المنتج على حساب المنتج نفسه، وهذا ما لا يستسيغه الكاتب على حد ظننا.

بمثابة الخاتمة

'الوحدة تدل ضحاياها'، نصوص متأقلمة مع ذاتها التفاعلية اللحظية، حيث اللحظة تتفوق على كل ما عداها، هذه اللحظة من التغيير الجذري التي تصاحب الثورات عامة، والتي تهتم بالهدم أكثر من البناء، وتهتم بالتغيير اللحظي أكثر من حسابات النجاح والفشل، هذه الآلية التي تنتمي أصولاً لقوانين الحركة، وبالتالي تتبنى نهجاً أقرب للفوضى من النظام، وأقرب للحياة منه للجماجم والموت، تحاول أن تكسب اللحظة، مؤمنة أن الفوضى تخلق في النهاية قوانين جديدة تتأقلم مع ما تم تنزيده أو تبنيه من قيم معرفية قادرة على الإحاطة بفترة زمنية مصبغة ومرهونة لتلك القيم.

لكن هذه الذهنية في اللحظة عينها التي تؤمن بميكانيكها التغيير وتنهر به، تبدو مشتغلة في كثير من الأحيان ومتأثرة ومرهونة لهذه اللحظة أكثر مما تكون هي فاعلة ومؤثرة عليها، لأنها ذهنية تدرك عجزها المفترض على أساس اقتناعها بسابقية اللحظة على إدراكها، لذلك تضع هذه الذهنية أهمية التغيير وأحقيتها بشكل يمكن لها أن تحجب كل شيء عداها. هذا الطغيان إن صح التعبير يمكن له أن يسير بالتحوّل والتغيير باتجاه كمي أكثر منه كيفي، فنرى أنفسنا متفاجئين كما تفاجأنا باللحظة الثورية فيما قبل، أننا أمام كم هائل من التغيير غير المستوعب وغير الضروري والمعرقل في كثير من الأحيان للطموحات والأمان التي من أجلها اندلعت تلك اللحظة.



عبد الحاج *

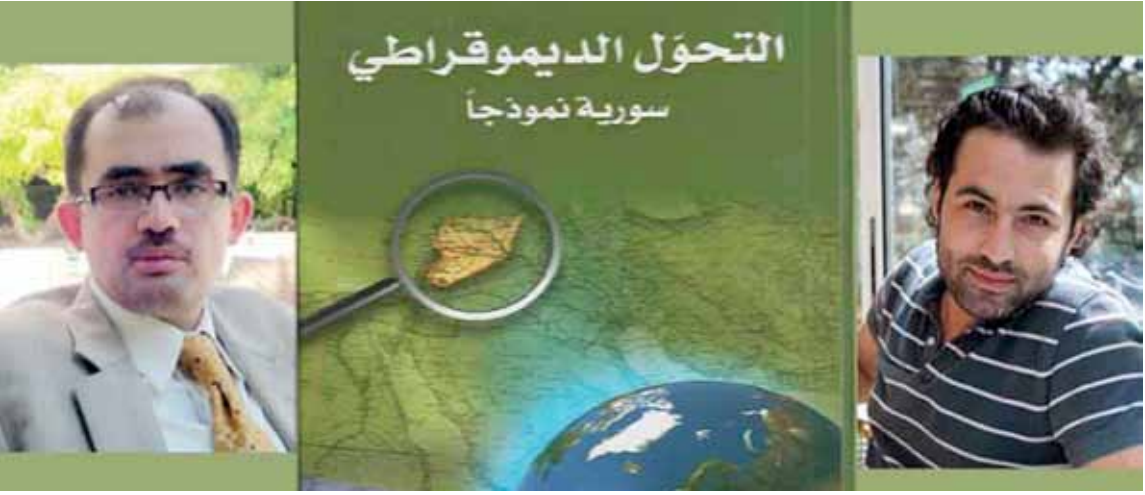
التحول الديمقراطي.. سوريا نموذجاً: كتاب جديد يؤسس لمرحلة ما بعد الأسد

مراجعة لكتاب 'التحول الديمقراطي سوريا نموذجاً'
تأليف: رضوان زيادة، 230 صفحة، قطع متوسط، دار الرئيس، 2013.

الخلاصة:

وُضِعَ هذا الكتاب خلال خمس سنوات بدءاً بعام 2007، أي قبل بدء الاحتجاجات في سوريا التي سرعان ما تحولت إلى مواجهات عسكرية. ومؤلفه يتحدث عن التحول الديمقراطي الذي تَتَبَعَ خطواته من أوروبا الجنوبية فالشرقية، ثم أميركا اللاتينية، قبل أن يصل إلى البلدان العربية بعد عشرين سنة. ويقول أنه استقى هذا التحول من خمسين بلداً سافر إليها وتعرف إلى تجاربها. وهو يرى أن لا مخرج لسوريا بعد سقوط النظام إلا بإجراء 'المصالحة الوطنية' الكفيلة بالخروج من أسر الماضي الثقيل إلى رحاب المستقبل، بهمة السوريين الذين أمامهم مهمة مزدوجة بعد هذه الحرب: العمل على استعادة الجمهورية من المملكة المتوارثة، ومعاودة الديمقراطية بعد أكثر من نصف قرن من اندحارها، وتنسّم أبسط مفاهيم الحريات.

* كاتب وصحفي سوري مقيم في السويد. يكتب في عدة صحف عربية منها 'العرب اللندنية' و'الحياة اللندنية' و'القدس العربي'.



لا يعني انتهاء نظام ديكتاتوري معين، أن تنتهي جميع المشاكل. فسقوط نظام معين لا يخلق المدينة الفاضلة، بل إنه يفتح المجال أمام عهود طويلة لبناء علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية عادلة، وإلى القضاء على أشكال الاعدالة والاضطهاد الأخرى.

تحت هذا المفهوم، صدر عن دار رياض الريس كتاب 'التحول الديمقراطي.. سوريا نموذجاً' للكاتب السوري رضوان زيادة، محاولاً وضع مخططات لما بعد سقوط النظام في سوريا. اعتمد زيادة منهج المقاربات المتعددة، الذي يعتمد في تحليله على كافة العلوم الاجتماعية، وأخذاً بالعوامل السياسية والثقافية والاقتصادية والجيوستراتيجية في الاعتبار، لرصد وتحليل وتوصيف الظواهر ذات العلاقة بعملية التحول الديمقراطي المقبل، ومبرزاً تأثير صاحب كتاب 'من الديكتاتورية إلى الديمقراطية' بروفيسور علم الاجتماع الأمريكي جين شارب (1928) الملقب بـ 'مكيافيلي اللاعنف'، وأبرز منظر لفكرة الكفاح السلمي أو المقاومة السلمية بهدف إسقاط الأنظمة الديكتاتورية، من خلال الإيمان بقدرة الناس على التغيير. شارب لم يكن الأول في ابتكار أفكار المقاومة السلمية، فقد سبقه غاندي بالتأكيد (الذي منه استفاد مارتن لوتر كينغ في صراعه من أجل حقوق السود في الولايات المتحدة الأمريكية، وهنري ديفيد ثورو، وليو تولستوي وغيرهم)، إلا أنه بالتأكيد أول من وضع كل هذه الأفكار في إطار الإستراتيجية السياسية من أجل التغيير السلمي والنضال ضد الديكتاتوريات.

المقدمة الطويلة للكتاب (47 صفحة) أفردتها زيادة للحديث عن منهج جين شارب لتحقيق التغيير السياسي عبر إستراتيجية اللاعنف معتمداً على منظور خاص لتحليل القوى من أجل تحقيق التغيير السياسي السلمي، مبتكراً طرائق وآليات من أجل تمكين الناس العاديين من إسقاط أنظمتهم الديكتاتورية.

فالمقاومة السلمية، حسب ما نقلها زيادة عن جين شارب في لقائهما في منزل الأخير في مدينة بوسطن: "خيار براغماتي للانتصار، مع أن البعض يعتبرونها خياراً أخلاقياً (أي أولئك الذين يستبعدون استخدام العنف لأسباب دينية أو أخلاقية)"، فغاندي آمن باللاعنف لأنه فعال سياسياً، وليس لأنه نقي أخلاقياً.

لاحقاً، يفصل زيادة رؤية شارب لمجموعة عوامل أثرت وتوثر على حصيلة المقاومة السلمية منها: عوامل

اجتماعية، وعوامل لها علاقة بالنظام الحاكم، وعوامل لها علاقة بالأطراف الثالثة ودرجة تعاطف هذه الأطراف مع أحد المتصارعين (المقاومة أو النظام)، وعوامل أخرى لها علاقة بالمجموعة المقاومة، ليصل بنا إلى نظريته الخاصة في المقاومة السلمية المبنية على تحليل مصادر القوة، مبيناً الفرق بين النظرية الأحادية للقوة، التي تفترض أن القوة السياسية من الأعلى للأسفل، والنظرية المتعددة للقوة، وأن هناك عدة مصادر للقوة، تشكل المفتاح لفهم طبيعتها التعددية؛ وهي الشرعية والموارد البشرية والمهارات والمعرفة. وهناك عوامل غير ملموسة (الدين مثلاً) والموارد المادية والعقوبات، لكن الطاعة هي قلب القوة السياسية. وأن الهدف هو دفع الناس إلى سحب طاعتهم للحاكم من أجل انجاز التغيير، ولكن قد نفشل أحياناً بسبب الخوف من العقوبة أو لمنافع شخصية، كذلك الالتزام الأخلاقي والتباهي النفسي مع الحاكم. ومنطق الراحة أو لضعف الثقة بالنفس. فالقوة تعتمد على أعمدة دعم داخل أنظمة الحكم الديكتاتورية وهي الجيش، والأمن، والسلطة القضائية، والوزارات، والمؤسسات الدينية، ومجتمع رجال الأعمال. ويعرض شارب لما يسميه بعض الحقائق المرة المتعلقة بالاعتماد على القوى الخارجية.

بعد هذه المقدمة الطويلة جداً، يعرض مؤلف كتاب 'السلطة والاستخبارات السورية' المشهد الدولي في الربع الأخير من القرن العشرين، الذي تعرض إلى تحول بفعل موجة تغيرات أصابت الأنظمة السياسية شكلت ما سماه صموئيل هنتنغتون 'الموجة الديمقراطية الثالثة' التي ابتدأت في البرتغال واليونان 1974 ثم إسبانيا 1975، واتجهت صوب أمريكا اللاتينية، وبعدها اكتسحت الدول الشيوعية في الاتحاد السوفياتي وشرق أوروبا، إلى أن أثرت في شكل عميق في جنوب شرق آسيا.

لكن وبحسب زيادة "بقيت دول جنوبي المتوسط منيعة أمام موجة التحول الديمقراطي تلك، وترواحت أشكال التسلط فيها إلى نمط الدولة الشمولية التوتاليتارية الكلائية كما هي حال سورية". ويكمل "يمكن القول إن الأنظمة السياسية في جنوبي المتوسط حاولت التكيف مع الموجة الثالثة وخصوصاً في عقد التسعينيات، لكن وفق نمطها الخاص". وهذا ما أطلق عليه زيادة اسم 'العقد الضائع'، العقد الذي شهد انفتاحاً على أفكار المجتمع المدني وانفتاحاً اقتصادياً حيث كانت العولمة تفتح فرصاً لحدود لها للمجتمعات في انتقال الأفكار والأموال.

لكن المجتمعات العربية كانت بانتظار 'الحل البيولوجي' كما سماه محمد عابد الجابري، الذي تحقق شيء من نبوءته في نهاية التسعينيات وشهدت بعض البلدان تحولات لا بأس بها، خصوصاً المغرب الذي كان قد شهد انفتاحاً جدياً خلال مرحلة التناوب 1996. أما سوريا وغيرها فكانت بانتظار 'الحل البيولوجي'.

يتابع رضوان زيادة، بعد أحداث الحادي العاشر من أيلول/سبتمبر 2011 لاحت أجندة دولية جديدة، قدمت الأمن ومكافحة الإرهاب، على الإصلاح السياسي، كما وُضِعَ موضوع الديمقراطية وحقوق الإنسان على الأجندة الدولية، مع توجيه انتقادات لبعض حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة في شكل صريح (مصر والسعودية)، إضافة للنشاط الواضح للمعارضة السياسية والمجتمع المدني في العديد من الدول العربية سيما مصر والأردن والمغرب، وتأسيس مبادرات سياسية ومجتمعية بات يطلق عليها 'ربيع الديمقراطية العربي' منها ثورة الأرز في لبنان عام 2005.

يرى زيادة أن فشل الغزو الأمريكي للعراق فجر جدلاً واسعاً دولياً حول الإستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة لنشر الديمقراطية التي تسعى إلى دعم التحول الديمقراطي وحكم القانون.

الربيع العربي الذي بدأ بتونس ولم ينتهي بالولادة القيصريّة للثورة السورية، التي تذرّع النظام بعدم وصول

الاحتجاجات إليه، بسبب اختلاف الظروف أو الخصوصية كنتيجة بحسب زيادة "الفهم الخاطئ أن ما بدأ بتونس ومصر وليبيا واليمن إنما هو ناتج عن التدهور الظروف الاقتصادية وارتفاع نسب البطالة وفقدان فرص العمل، الأمر الذي دفع بهم (النظام) إلى اتخاذ إجراءات اقتصادية غير دائمة مثل زيادة الدعم للمواد الغذائية الأساسية، أو إعطاء زيادة محدودة على الدخل لدى العاملين في القطاع العام وغير ذلك، اعتقاداً منهم أنهم يطوون صفحة الاحتجاجات الشعبية إلى الأبد" (ص 70).

و يبين زيادة أن ما أخر الاحتجاجات في سوريا هو الخوف في شكل رئيسي: الخوف من قمع الأجهزة الأمنية التي تتباهى بذلك، إضافة إلى تحفز ذاكرة الخوف التي ترسخت بعد أحداث الثمانينيات، ويضيف "نجاح شباب درعا المحافظة الجنوبية في كسر هذا الحاجز والخروج بعشرات المظاهرات تطالب بالحرية وتمدد المظاهرات إلى مدن أخرى، وقدرة الشباب السوري الفائقة على إدراك طبيعة السلطة الحاكمة وإبطال مفعولها السياسي والإعلامي". وي طرح زيادة مثلاً في الشعارات المرفوعة 'خاين يلي بيقتل شعبو' كرد على لغة التخوين التي يستخدمها النظام ضد كل من يقف في وجهه. ويبين زيادة أن استخدام النظام للعنف المسلح ضد المدنيين نقل الثورة إلى مرحلة أطلق عليها اسم 'مرحلة اللاعودة'، واتجاه المعارضة نحو الحسم العسكري وتشكيل الجيش الحر لتحرير سوريا من نظام عائلة الأسد. وبذلك تحولت ثورة الحرية والكرامة وبناء الدولة المدنية الديمقراطية إلى نزاع مسلح حسب زيادة يسقط فيه المئات يومياً.

وهنا يعقد زيادة مقارنة بين تفكك النظم السياسية السلطوية في أوروبا الشرقية وبلدان أميركا اللاتينية مقارنة بالبلدان العربية، وجذور التحول في تشيكوسلوفاكيا كنموذج في أوروبا الشرقية، وسوريا كنموذج آخر في دول الشرق الأوسط. ويرى أن التجربة التشيكية حققت نجاحاً في التحول الديمقراطي على مستويين: مستوى التحول الآمن من عهد تجربة الحزب الواحد الشمولي إلى الديمقراطية التعددية، ومستوى الانفصال السلس عن سلوفاكيا دون المرور بحروب عرقية أو إثنية كما حصل مع يوغسلافيا السابقة. فعوامل التشابه بين تجربتين التشيكية والسورية هي أن النظام التشيكي كان شبيهاً كثيراً بالنظام السوري من حيث بناء المؤسسات الأمنية وهيكلية المؤسسات السياسية، إذ كان الحزب الشيوعي يسيطر على كل مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال تكتل أحزاب سياسية صغيرة (كما هو حال الجبهة الوطنية التقدمية في سوريا). يرى المؤلف أن تجربة 'ميثاق الـ 77' تشبه قصة 'بيان الـ 99' عام 2000 في سوريا، كما أن النقاشات بين المعارضتين الداخلية والخارجية تشبه تلك التي كانت في تشيكوسلوفاكيا. وكما 'ميثاق الـ 77' تماماً كان الهم الأساسي في 'بيان الـ 99' هو موضوع حقوق الإنسان، حيث طالب البيان بإلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية، وإصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير، وثالثاً إرساء دولة القانون وإطلاق الحريات العامة، وترافق ذلك مع تأسيس عدد من الناشطين في الخارج مجموعة عمل تهدف إلى مساندة المثقفين في الداخل والمشاركة في النقاش.

لكن لا بد من الإشارة إلى وجود اختلاف رئيسي بين تجربتين التشيكية والسورية -يقول المؤلف- فالمعارضة السورية لم تمتلك إستراتيجية واضحة لما يجب القيام به، ودراسة توقع رد فعل السلطات، فما إن بدأت السلطات السورية بعمليات الاعتقال حتى تراجعت الحركة الديمقراطية وفقدت قدرتها على الاستمرار أو التأثير.

يتحدث زيادة كذلك عن عدالة المرحلة الانتقالية وكيفية الوصول إليها بأقل وقت ممكن، مبيناً الخطوات الآلية لإرساء الانتقال الديمقراطي الآمن. محدداً أبرز مقوماتها القائمة على: إنشاء لجان تقصي الحقائق، ورفع الدعاوى القضائية للتصدي لانتهاكات حقوق الإنسان، والتعويضات لضمان حقوق الضحايا، وإصلاح المؤسسات

السياسية والأمنية، وإحياء ذكرى أحداث الماضي بغية التأسيس لما يمكن تسميته 'الذاكرة الجماعية الرادعة'. ليختم الكتاب بالتحديات التي تواجه سوريا المستقبل وهي وفق وجهة نظر رضوان زيادة محددة بـ "الإصلاح السياسي والدستوري، وتفكيك النظام الشمولي بالاعتماد على عمودين أساسيين هما: المصالحة من أجل كسب المستقبل واستعادة الثقة بالمؤسسات. والتحدي الثاني هو التنمية الاقتصادية بعد عقود من السياسات الاقتصادية الخاطئة. أما التحدي الثالث فهو تحديث الجيش السوري وتحويله إلى جيش احترافي". وأخيراً يرى زيادة "ضرورة الانعطاف في السياسات الخارجية على أساس تحقيق مصالح الشعب بدلاً من تحقيق مصالح النظام"، لأن "المعركة الحقيقية للسوريين هي استعادة الجمهورية".

حاول زيادة تطبيق مقولة شارب "أن التخطيط لمرحلة ما بعد سقوط النظام يجب بحته ودراسته في وقت مبكر والإعداد له جيداً"، وأدرك أنه ليس المطلوب النقاء الأخلاقي بالابتعاد عن العنف، بل تحقيق التغيير السياسي. لذلك أصر على تسمية التحول الديمقراطي وليس حركة اللاعنفا. لكنه يبدو متفائلاً أكثر من اللزوم حين يفترض أن سوريا ستقود معركة الحريات والديموقراطية وتنشرهما في العالم العربي. وتفاؤله المفرط يعزى إلى أن مواضيع الكتاب عولجت قبل بدء الأحداث والمعارك العسكرية في سوريا (وطبعاً في مرحلة كانت الخطط على الورق تبشر، فيما الوقائع على الأرض حالياً تنذر)، وقبل أن تتكشف احتجاجات الشعب السوري وثورته عن حرب عربية إقليمية دولية تخفي تحت عباءتها تنظيمات إسلامية متطرفة تقود الحرب ضد النظام السوري، لكنها ليست طبعاً من عناها زيادة بأنها ستقود سوريا إلى الحرية، وبالطبع لن تنشرها في العالم العربي، فوجودها في حد ذاته نقيض الحريات والديموقراطية.



ريپورتاجات

◆ إبداع وسط الأمم
◆ حول مراكز بحوث السياسات





إبداع وسط الألم: ونماذج اجتماعية وثقافية تتخمر في سوريا أكثر بلدان العالم خطورة

إعداد: الفريق الصحفي في مجلة دلتا نُون
نور شلغين، ديما نقولا، علاء إحسان، طارق العبد، قصي عمامة، بإشراف: ماهر المونس

الخلاصة:

مُخطئٌ من يظن أن 'سوريا' مجرد بلد حربٍ وقتلٍ ودماءٍ فحسب، فرغم كل العنف الذي يدور في البلاد منذ حوالي 3 سنوات، ورغم الدمار، فهناك شعبٌ يعيش الحياة، ويعمل على التفاعل مع الحدث الأليم بنشاطاتٍ فكريةٍ؛ تارةً بالفن، وتارةً بالثقافة. من هذه النشاطات ما أفرزته الأزمة في البلاد، ومنها ما كان موجوداً من قبل واستمر، ومنها ما تنشطُ وهما وتوسع. نسعى في هذا الريبورتاج إلى تسليط الضوء على عددٍ من هذه النشاطات. ففي المحور الفكري والثقافي والمجتمعي أشرنا إلى مبادراتٍ مثل 'المركز السوري للتوثيق'، ومؤسسة 'اتجاهات' الثقافية، ومنتدى البناء الثقافي، وشباب 'معاً نقرأ'، ومشروع 'سراقب الأمل' في ريف إدلب. وفي المحور الفني وقفنا عند فيلم 'الملك لا يموت' لمخرجٍ سوريٍّ شاب، وتجربة 'شكسبير في الزعتري'، وفكرة 'ومضة'. ثم انتقلنا من العالم الثقافي والفني الواقعي إلى العالم الافتراضي، في 'حكاية ما انحكت'، إضافةً إلى تناول موضوع التدوين عبر مقابلاتٍ مع اثنين من أصحاب المدونات. أما في المحور الإعلامي فقد تناولنا عدة تجارب لإعلامٍ جديدٍ بديلٍ عن النمط التقليدي: موقع إلكتروني، وإذاعة إلكترونية، وغرفة تحرير أخبار افتراضية، أي ثلاثة نماذج لنشاطاتٍ إعلاميةٍ برزت على هامش الأوضاع في سوريا.



مقدمة

ثلاث سنوات مرَّتْ مُخَلَّفَةً في سوريا مئات آلاف الضحايا والمفقودين، وملايين المهجرين والنازحين، ودماراً واسعاً لم يستثنى المنازل ودور العلم والصحة والثقافة. إلا أن ذلك كله لم يكن عائقاً يقف في وجه فكرة، أو مظهر ثقافي أرادته شباب ورجال وأطفال ونساء الداخل السوري.

ولطالما ارتبطت الأعمال الفكرية بالتحولات الكبرى في حياة الشعوب، من هنا كان الأدب والتاريخ والتوثيق من أشد الأدوات ملازمةً لتحوُّلٍ جليلٍ بحجم أحداث سوريا، وكان النهم إلى تحوُّلٍ ثقافيٍّ موازٍ وجاد يزداد حدةً يوماً بعد يوم، خاصةً في أوساط الجيل الشاب، الذي لاقى في الفوضى التي أحاطت بكل شيء فرصةً لتحطيم صناديق التفكير القديمة والخروج من قيود 'التابوات' التي تربت عليها، إضافة إلى الكثير من الإثارة والجاذبية. كان الهامش يتسع ويضيق يوماً بعد يوم تبعاً للظروف والسياسات التي تفرض أشياء جديدة كل لحظة. لكن بقي السعي للتقدُّم إلى ركنٍ ما من المشهد العام، متجلباً في العديد من المحاولات الدؤوبة للنهوض مما خلفته وكشفته الحرب، سواء على مستوى الثقافة أو الإعلام أو الصحافة أو الأدب أو غيرها.

يتناول هذا الريبورتاج، الذي أعدّه من داخل سوريا الفريق الصحفي في مجلة دلتا نون، يتناول الظواهر والنشاطات الثقافية التي أفرزتها الأحداث التي تعصف بالبلاد منذ ثلاث سنوات، إضافة إلى تلك التي كانت سابقاً واستمرت في سنوات الحرب.

مراكز الأبحاث والدراسات: خطوة أولى في مسيرة الألف ميل

في خضم ما تعيشه البلاد هذه الأيام من أحداث تختلف تسمياتها باختلاف المنظور التي يُنظر إليها من خلاله، يعاني سكان البلاد من صعوبةٍ بالغةٍ في التعبير عن حقيقة آرائهم، وواقع ما يفكرون به أو نظرتهم تجاه الحكومة أو المعارضة.

وأي رأيٍ مُعلنٍ، ومهما كان اتجاهه، يراعي بكل تأكيد العوامل الموضوعية المتعلقة بأجهزة الأمن والخشية من الاعتقال من ناحية، أو تلك المتعلقة بالتشهير والخشية من الاختطاف من الناحية الأخرى.

أما من الناحية الذاتية، فالآراء بطبيعة الحال متأثرةٌ بالعائلة التي ينتمي إليها الفرد (العائلة الشخصية، أو عائلة الأصدقاء، أو عائلة العمل) إضافة لما يتلقاه من وسائل الإعلام، ناهيك عن تجاربه الخاصة. لذا برزت مشكلةٌ حقيقيةٌ في توثيق وكتابة تاريخ الأحداث التي تمر بها سوريا، حيث أن الصحفيين هم المدونون والمؤرخون الجدد، ولكنهم 'يعدّون' للعشرة ألف مرة قبل كتابة أي كلمة' ويراعي الجميع المحظورات التي قد تلقي بهم في إحدى الخانات، ومنها إلى خارج حدود الحياة.

أزمة تاريخ وتوثيق حقيقية تمر بها سوريا، الحدث الطازج وابن يومه، ويختلف في روايته بألف طريقة، فما بالكم حين يمر عليه شهرٌ أو سنة، وما بالكم إذا لم يكن للحادثة صورة أو فيديو.

لذا شكلت الحالة السورية خلال السنوات الثلاث الماضية فرصةً لظهور نمطٍ جديدٍ من الحياة الفكرية، يتمثل في مراكز مختصة بالدراسات والأبحاث التي تؤسس لمرحلةٍ مقبلةٍ ستعتمد، وفي شكلٍ كبيرٍ، على مستنداتٍ موثقةٍ تناقش ما عاشته البلاد في الفترة السابقة. ورغم القوانين ونقص الإمكانيات في بعض الأحيان إلا أن عدة مراكز ومجموعات قد تمكنت من تأسيس عملها، والسعي لبناء منهجٍ في البحث ضمن تفاصيل المشهد السوري.

المركز السوري للتوثيق: موضوعية أم حيادية؟

يعتمد المركز السوري للتوثيق على متطوعين في معظم المحافظات السورية للعمل على تدوين واسع للأحداث اليومية، فتشكل بذلك أرشيفاً لكافة المواقع الساخنة وتاريخها. ويشير عضو المركز زين عاذلة إلى أن المركز، الذي بدأ عمله في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2011، عمل على توثيق ضحايا الحرب الدائرة لكلا الطرفين، سواء المدنيين أو القوات المسلحة وفي شكل دقيق قدر الإمكان، ما جعل الحصيلة مثلاً تقل عن تلك التي تعتمدها جهات أخرى. ويضيف الشاب العشريني: "نعمل مع شبكة مراسلين أساسيين، وكذلك نتعاون مع متطوعين في البلاد يزودوننا بالأحداث اليومية في مناطقهم لنقوم بتدقيقها ثم نشرها، سواء كصور أو كمقاطع مصورة، ثم نقاطعها مع عدة مصادر أخرى قبل الوصول إلى الخبر النهائي، بحيث نركز على المهنية والموضوعية في الحدث دون الانجرار إلى طرفٍ دون آخر، وهو ما يفرض علينا خطوياً وسياسةً معينة في العمل والتوثيق وكذلك التدقيق في الشهادات والأرقام الواردة إلينا عن أي حدثٍ في البلاد، ما أنتج لنا قاعدة بياناتٍ متكاملةٍ تمكن العودة إليها عند تحضير أي بحثٍ أو دراسةٍ عن تاريخ أي موقع منذ بداية الأزمة السورية قبل ثلاث سنوات، وامتد مؤخراً إلى إعداد دراسات واحصاءات مثل حصيلة القتلى المدنيين والعسكريين في كل مدينة، ومن ثم بحسب يوميات الاقتتال على مدى السنوات الماضية، وكذلك عدد وضحايا قذائف الهاون في دمشق والتي قمنا بها بالتعاون مع صحيفة السفير اللبنانية، ونستعد اليوم للتركيز في تفاصيل إضافية كالحياة في بعض المناطق الساخنة أو وضع اللاجئين في الخارج من خلال نشاطنا في هذه المناطق".

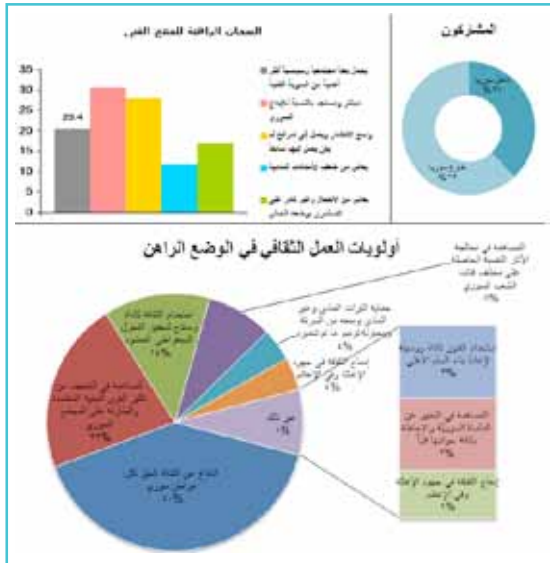
مؤسسة اتجاهات للثقافة والفنون

تركز مؤسسة اتجاهات على تعزيز دور الثقافة والفنون المستقلة وفق ما يشرح عضو المجموعة أيهم أبو سقرا بقوله: "هي مؤسسة ثقافية ناشطة في الثقافة المستقلة في سوريا والمنطقة العربية، وتعمل على تفعيل دور الثقافة والفنون المستقلة لتلعب دوراً إيجابياً في عملية التغيير الثقافي، السياسي والاجتماعي".

كما تسعى المؤسسة إلى المساهمة في بناء علاقة أصيلة بين الفعل الثقافي والفني من ناحية، والمجتمع السوري بتنوعه وتعدد من ناحية أخرى، لتركز اتجاهات عملها على ثلاثة محاور، هي: المساهمة في تنشيط الحركة الفنية والتعاون مع الفنانين والفاعلين الثقافيين المستقلين، كجزءٍ من نشاط إبداعي متحرك وديناميكي ومتجاوب مع بيئته الاجتماعية والسياسية. وفي شكل مواز تساهم 'اتجاهات' في تطوير الدراسات والأبحاث الميدانية والأكاديمية، كمواضع مرجعية لفهم وتحليل الحالة الراهنة. كما تتطلع 'اتجاهات' إلى سوريا متعددة،

صورة من إحدى الورشات التي أقامتها مؤسسة 'اتجاهات' ويظهر فيها عدد من المشاركين





متنوعة، منتجة فكرياً، أصيلة فنياً، وتؤمن بالثقافة كحق لكل مواطن سوري.

ولعل إحدى ميزات المجموعة هي التركيز على الأبحاث والدراسات التي تعمل عليها 'اتجاهات' ضمن عدة مستويات كمشروع طويل الأمد تم إطلاق النسخة الأولى منه العام الماضي، وهو مشروع أبحاث لتعميق ثقافة المعرفة ويهدف إلى بناء قدرات وإتاحة فرص تفرغ للباحثين الشباب في مجالات البحث والدراسات الثقافية، ورفع مهارات الباحثين وتوجيههم وإتاحة الفرصة لهم لإنجاز مشروع بحثي (قد يكون بحثهم الأول خارج إطار الدراسة الأكاديمية)، وبإشراف مباشر من باحثين مختصين في المجال الثقافي يشكلون اللجنة

العلمية للمشروع، استمر هذا المشروع 8 أشهر، ودعم في العام الماضي 11 باحثاً شاباً. وتعمل 'اتجاهات' اليوم على إطلاق الدورة الثانية من المشروع خلال فترة قريبة، حيث تهدف خطة المشروع خلال الأعوام الخمسة القادمة إلى بناء جيل من الباحثين الشباب، وتأسيس إطار ومنهج نظري كدليل للباحثين الشباب، إضافة إلى تأسيس نواة مركز أبحاث للدراسات الثقافية والاجتماعية.

إضافة إلى ذلك تعمل 'اتجاهات' كجهة بحثية ضمن أكثر من مشروع، فقد أنجزت إلى جانب مسح السياسات الثقافية الذي تحدثت عنه، عدة أبحاث أخرى ستنشر قريباً، تتمحور حول دور الفنون والثقافة في ظل الحروب والثورات والنزاعات المسلحة، البحث الأول يدرس دور الثقافة في صناعة السلم الأهلي في مجتمعات عاشت تجارب مشابهة مثل صربيا وراوندا وتشيلي، وبحث آخر عن الفن في سورية والعراق ولبنان في ظل الظروف المشابهة التي تعيشها سوريا اليوم.

وبالحديث عن الثقافة المستقلة يشرح الشاب أن هذا الحقل هو الذي ينطلق من الإرادة الحرة ومن التعبير المستقل والمُصان من كافة أشكال الضغط الاقتصادي والسياسي، والقادر على التعامل بإيجابية مع المعطيات الاجتماعية المحيطة به. وبذلك تهدف إلى تحسين البيئة العامة للعمل الثقافي في سوريا، بما يتضمنه ذلك من تطوير السياسات الثقافية والتوجهات المدنية العامة وتنويع مصادر وأساليب التمويل. ويضيف أبو شقرا: "نرى أن الضغط للتغيير على صعيد السياسات الثقافية، واقتراح تعديلات وسياسات ثقافية بديلة هي مهمة تقع على عاتق المجتمع المدني ومؤسسات الثقافة المستقلة، وتحديد اليوم، لأننا نرى أن التحولات الحاصلة حالياً، ليست فقط تحولات سياسية، إنما هي في عمقها قضية تحولات ثقافية. كما أننا نرى بوضوح أن الثقافة لن تكون شاغلاً رئيسياً لمتخذي القرار في المرحلة اللاحقة في سورية (نتيجة الأولويات العديدة)، لذا فإن الأمر يعود إلى المؤسسات والناشطين والباحثين المستقلين لوضع الثقافة على طاولة النقاش السياسي والضغط تجاه الاستفادة من مرحلة إعادة بلورة هوية وشخصية سوريا، بحيث تكون الثقافة مكوناً هاماً من مكونات التحول في المرحلة القادمة".

وأطلقت 'اتجاهات' مشروع 'أولويات العمل الثقافي في سورية' الذي يهدف إلى بناء توافقات بين الفاعلين الثقافيين المستقلين حول أولويات عملهم، وقدرتهم على التأثير الإيجابي في التطورات والتحديات الاجتماعية والثقافية في سوريا. كما طرحت 'اتجاهات' أيضاً 'استبيان رأي حول أولويات العمل الثقافي في سوريا' وعملت على نشره ضمن قطاع واسع. ويتناول هذا الاستبيان ثلاثة محاور:

(1) رصد التغيرات الثقافية منذ انطلاق الحراك في عام 2011.

(2) أولويات العمل الثقافي ودور القطاع المستقل في الوضع الراهن.

(3) الدور المفترض للقطاع الحكومي.

ويساهم هذا الاستبيان في شكل أساسي في تشكيل قاعدة أساسية لسياسة ثقافية جديدة في سوريا، وأرضية معرفية لخطوات البرنامج القادمة.

ضحيّة ثقافي صاخب: فالخبر ليس عاجلاً، بل خالد وأبدي

ولعلّ إرادة الحياة لدى أبناء هذه الأرض ظلّت حاضرة رغم الحرب والقتل والدمار، وترددت صداها في عدة مشاريع ثقافية وفكرية جذبت جمهوراً يتسع شيئاً فشيئاً.

منتدى البناء الثقافي: رقعة للحرية تزداد اتساعاً

صورة ملتقطة من داخل 'منتدى البناء الثقافي' خلال أحد النشاطات التفاعلية المتعلقة بالمشرح



بدأت فكرة المنتدى من نادٍ سينمائي يرعاه 'تيار بناء الدولة السورية' المعارض، الذي لا زال يمارس نشاطه من قلب العاصمة دمشق، وتطورت إلى نشاطاته نهاية 2013، لتتبلور بداية العام 2014 في صورتها كمنتدى ثقافي متعدد الأبواب، الهدف منه -بحسب مؤسسيه- وضع أول حجر أساس في عملية بناء وعي الشباب السوري، وتحريضاً على 'الثورة السلمية' وكل تغيير تحتاجه البنية السورية لإعادة بناء ما كان مزعزعاً أو صار خراباً.

وخلال لقائنا بأحد أعضاء المنتدى، حدثنا عن سعي المنتدى منذ البداية إلى الاقتراب من هواجس الشباب الراهنة، فكان يعرض أفلاماً متنوعة المواضيع، أبرزها الحروب الأهلية والاقتتال الطائفي وأفلام الأوسكار العالمية، ممهداً بنقاشات تلي تلك العروض لنقاشات أكبر وأعمق. تلا ذلك مجموعة من المعارض المتنوعة التي لاقت رواجاً كبيراً، كان أكثرها إثارة للاهتمام معرض 'أنت' للتصوير الضوئي، بالتعاون مع جمعية 'سوريات يصنعن السلام'، وكان فعلياً الانطلاقة الجماهيرية للمنتدى، بمشاركة متنوعة من مصوّرين في الداخل والخارج، بنحو 75 صورة ضوئية، تعددت مواضيعها، حول محور واحد هو 'المرأة السورية خلال 2013'، قدّم المشاركون فيها المرأة السورية

بكل صورها في مخيلاتهم؛ من المرأة الجميلة، إلى النازحة، والثائرة والمشردة والمتمردة والعارية، وحتى المغتصبة. يقول عضو المكتب الإعلامي والمسؤول عن النشاطات الفنية مصطفى دبّاس: "إن الزواج الذي ناله المنتدى في فترة قصيرة شجّع على تنظيم أكبر لنشاطاته، فأصبح لدينا برنامج شهريّ محدّد ومدرّس، وكان لوجود تيار بناء الدولة، الذي يجسد المنتدى جانبه الثقافي، دوراً في تأمين مساحة مميزة من الحرية المتاحة لنا وللمشاركين، وقدّمنا للناس حقّهم الطبيعي بالتعبير عن آرائهم لأبعد حدّ، بطرق راقية وسلمية، ومن قلب دمشق، بهدف تنشيط الحركة الثقافية في البلاد، ولكسر عزلة الشباب عن السياق، ومحاولة تغيير الكثير من المفاهيم الثقافية". ويرتبط بالمنتدى مجموعة القراءة 'القراء قادة' التي تجتمع شهرياً في حلقات نقاش حول كتاب يُحدّد مسبقاً، إضافة إلى أمسيات أدبية دورية تُقام في المقر، ويليهها نقاشات فكرية بين الحضور. يضيف دبّاس: "لم نستضف في المنتدى كثيراً من المثقفين المشهورين، بل تعمّدنا أن يكون جلّ ضيوفنا من الشباب الهواة، سعياً إلى تحقيق مساحة من التجديد واستقطاب الجيل المعني ببناء الوطن، وجذبهم إلى الاهتمام بالشأن العام، ومدّ يدّ العون لهم في سعيهم للخوض في عملية البناء والتغيير".

ومن أبرز المَعَارِض التي نظّمها المنتدى معرض الكاريكاتور 'وجهة نظر' الذي ضمّ محاور سياسية واقتصادية واجتماعية، وشارك فيه فنانون من داخل وخارج سوريا، منهم جوان زيرو وهاني عبّاس، وتضمنت رسوماتهم المعروضة نقداً سياسياً مباشراً لرموز السلطة، ما يُعدّ إنجازاً للمعرض الذي غطّته وسائل إعلامية سورية مختلفة الاتجاهات السياسية.

وقدّم المنتدى في سياق محاولاته المُجَدِّدة عروضاً مسرحية تفاعلية، تسمى 'عروض الأداء'، منها ما قدّمه طلاب من المعهد العالي للفنون المسرحية، بعنوان 'كونشرتو الرصاص'، وعروضاً أخرى قدمتها فرقة 'مياس' المسرحية. وكان آخر معرض هو معرض الاسكتش 'إنو هيك'، الذي عرض الومضات الأولى لأفكار الرسامين، بمشاركة عدد كبير منهم، تنوعت أفكارهم، واجتمعت على العفوية في عرض أفكار أصحابها.

كما تم طرح دورات تعليم اللغة الكردية في المنتدى مؤخراً، ستليها لاحقاً سلسلة دورات تعليمية لمجموعة من اللغات المحكية في سوريا غير العربية، والهدف من ذلك "محاولة دمج عموم السوريين بأصحاب تلك اللغات، وحمايتهم من الاندثار".

لقاء الأنسة نور شلغين، عضو الفريق الصحفي في مجلة دلتا نون، مع السيد معن الهمة المنسق العام لمشروع 'معاً نقرأ'



'معاً نقرأ': بعيداً عن السرب

مجموعة من الشباب بدأوا مشروعهم الخاص المبني على اهتماماتهم، والنابع من إيمانهم بأن التحوّلات الثقافية لا يمكن أن تكون بين ليلة وضحاها، بل عبر المحاولات المتكررة والجهد الدؤوب للتغيير.

يقول العضو المؤسس في مجموعة 'معاً نقرأ' معن الهمة: "بدأنا من شخصين منسّقين، قبل ظهور الأزمة في سوريا بـ 6 أشهر، بمجموعة على الفيسبوك تنظّم

حلقات نقاشية حول كتب يتم اختيارها بالتصويت بين القراء شهرياً. واليوم أصبحنا خمسة منسقين، وأكثر من 5000 مشترك في المجموعة، الفكرة الأساسية منها هو نقل عدواها إلى المجتمع، وخلق وعي عام متساثل، ومساحة مشتركة للسوريين على اختلافاتهم، وعلى أساس الانتماء الفكري فقط.

الولادة المبكرة للمجموعة وضعتها في مواجهة ظروف استثنائية منتصف آذار 2011، فقد كان اهتمام المجموعة قبل الأزمة موسعاً ومتحرراً من القيود المكانية والفكرية إلى حد ما، بحسب معن الهمّة، فتحول الأماكن في دمشق إلى قبلة موقوتة محتملة الانفجار في أي وقت، وضع هذا حداً مؤقتاً للاجتماعات، فتحوّلت إلى العمل الإلكتروني كونه الأسرع والأكثر استمرارية. كما وضعت هواجس أخرى حداً لتنوع المواضيع المطروحة للنقاش. يقول الهمّة: "ناقشنا قبل الأحداث الكثير من الأعمال المثيرة للجدل كروايتي "مزرعة الحيوان" و"1984" لجورج أورويل، أما الآن فنحن نحاول حصر النقاشات بمواضيع كال تطوير الذاتي والرواية والتاريخ ...".

محاولات التشبّث بالوجه المنسيّ لـ 'الثورة': السلمية و'حكاية ما انحكت'

وسيم حسن أحد مؤسسي موقع 'حكاية ما انحكت'



الشعار الخاص بموقع 'حكاية ما انحكت'



موقع 'حكاية ما انحكت' موقعٌ إلكترونيٌّ أطلقتها مجموعة من الشباب المعارض للسلطة في سوريا منذ 2012 "لتقديم الوجه السلمي المدني لحراكهم، عبر تسليط الضوء على حكايات خاصة يهملها الإعلام، وحكايات قادمة من مواقع الفعل الاحتجاجي، وتوفيراً لمُنبرٍ يحتوي إبداع المشاركين في ذلك النشاط بما يرفد العمل الاحتجاجي اليومي، ولتعزيز قضايا هؤلاء بأنهم غير منسيين، وأن عملهم يستحق التوثيق والنشر، وعدم التوقف عند إهمال الإعلام له"، حسب القائمين عليه.

يقول مدير تحرير موقع 'حكاية ما انحكت'، (رفض ذكر اسمه): "أحد الأفكار الأساسية التي دفعتنا لإطلاق هذا المشروع تكمن في أن الكثير من المواد الإبداعية التي نتجها السوريون (لافتة، شعار، غرافيتي، فلم، جدال على وسائل التواصل الاجتماعي حول قضية ما) تضيع في الفضاء الإلكتروني بعد وقت، مادفعنا للعمل على توثيق ذلك من جهة، وتقديمه للرأي العام لعكس وجهات نظر السوريين المختلفة حول كافة القضايا".

قدّم الموقع مضمونه باللغة الإنكليزية، سعياً إلى التوضيح للقارئ الغربي، أن الصراع في سوريا لم يتحوّل كلياً إلى لغة العنف والصراع على 'السلطة' أو 'الحرب الأهلية'، كما تصوّر وسائل الإعلام، بل يصرّ الموقع على أنه ينقل صورة محايدة للأحداث، دون أن ينفي عيوب حراك من يبتنون أعمالهم، وبدون تأليه هذا العمل، "فهذه الثورة كأي ثورة لها عنفها

الخاص ومثالبها وعيوبها، ولذا نسعى لأن نسلط العين النقدية على كل هذا بعيداً عن التآليه أو الشيطنة"، يقول وسيم حسن، أحد مؤسسي الموقع.

ويؤكد القائمون على الموقع، الذين يعملون من داخل وخارج سوريا، أن على الثقافة والإبداع دائماً الوقوف بالمرصاد للسياسة، عبر النقد وعدم الرضوخ لها، ولمساعيها بالهيمنة على كل شيء، وأن على المثقف والمبدع رفض أن يكون تابعاً لأحد سواء كان ثورة أم سلطة، بدون بتر أي تماسٍ وتوازٍ بينهما بالضرورة.

إذ لا يمكن للمبدع أن يعمل كلياً بعيداً عن السياسة، كون هذا العمل يدخل في نطاق الاهتمام بالشأن العام، إذ من واجب المثقف دائماً أن يكون ذا توجه عام، وأن ينخرط بعملية التغيير، على أن يُبقي مسافة بينه وبين أي تطرف، بحيث يستطيع أن ينتقد شتى البنى.

المدونات السورية: المسار المشتت

في خِصَمِّ تسارع وتيرة الأحداث في سوريا، وجدت المدونات السورية نفسها في مأزق، في حين نضج منافسها الشرس 'فيسبوك'، وسرق الكثير من ميزاتها وقدمها للجميع بأسرع الطرق، مُحققاً قدراً عظيماً من الآنية ومساهماً بدور كبير لا يخفى على أحد في الأحداث السورية منذ بدايتها. تشتت أصحاب المدونات في مواقفهم المتباينة والثائثة، اختار البعض الآخر ركوب الموجة، وتبني وجهات نظر موالية أو معارضة، واختار آخرون الوقوف على الحياد، مفضلين أن تكون مدوناتهم متنفساً لهم ولقراءهم، إذ "كي تصل إلى الجميع ويسمّعك الجميع عليك الترفع

عن الانقسامات المؤقتة، والالتزام بما يجمع بين البشر بدلاً من تفرقتهم" كما يقول المدون السوري مناف زيتون، صاحب مدونة 'بلوكة' التي انطلقت مصادفةً مع اليوم التالي لبداية الأحداث في البلاد.

'بلوكة' مدونة سورية يكتب فيها اليوم خمسة كُتّاب، أُريد منها في البداية أن تكون منبراً ثقافياً لمشاريع كُتّاب وصحافيين، بعيداً عن وسائل الإعلام التقليدية وماتفرضه سياساتها التحريرية من ضغوطٍ وتشذيبٍ للآراء ووجهات النظر. لكن الوقت الحرج لولادتها وضعها قبالة خياراتٍ قليلة؛ فإما الدخول في السجال السياسي الدائر وقسر نفسها على طرفٍ دون آخر، أو الابتعاد عن الخطاب المباشر في ما يخص البلاد، وبالتالي خسارة عامل الجذب الذي تملكه معظم المضامين السياسية الآن. يقول زيتون: "للأسف لم تقدّم المدونات أي شيء على أرض الواقع اليوم، فخطاب المدونات السورية ازداد

المدون مناف زيتون صاحب مدونة 'بلوكة'



المدون أحمد الأشقر صاحب مدونة 'مستر بلوند'



اعتدالاً وتعقلاً أكثر من أي وقتٍ مضى، وهاتان السمتان مرفوضتان بشكلٍ كبيرٍ بسبب الاحتقان الكبير الذي يسيطر على الجميع“.

ويتفق المدوّن السوري المتوقّف عن التدوين أحمد الأشقر مع زيتون، بأن الكلام المعتدل لم يُعدّ يلقي رواجاً بجانب ”المعارضة المتطرفة والتشبيح“، وأن الكلام أصبح ترفاً ثقافياً ليس له أي تأثير أو صدى بجانب صوت الرصاص اليوم، لذا اختار ككثير غيره التوقف عن التدوين، بعد فترة قصيرة من قيام ’هكر‘ متطرّف دينياً باسم ’الطير الحر‘ بتهكير المدوّنة وحذف جميع محتوياتها.

وفي تعليقٍ على واقع التدوين في سوريا، نشر المدوّن السوري مورييس العايق في آذار/مارس 2012 تحقيقاً مكتوباً بعنوان ’سوريا: التدوين خارج السرب‘: ”لم يكن المدون السوري عموماً بعيد عن خطر الاعتقال قبل 15 آذار 2011، لذلك لم يكن من السهل على المدون أن يعلن عن اسمه الصريح ويكتب في قضايا الشأن العام بسهولة، والكثير من المدونين هجروا مدوناتهم الصريحة إلى صفحات ومدونات أخرى يكتبون فيها بأسماء مستعارة وبحرية أوسع، وبحسب تقرير صادر عن ’المركز السوري للإعلام وحرية التعبير‘ فإن ما يقارب 15 مدوّناً ومدوّنة تم توقيفهم على إثر نشاطهم خلال ما يقارب السنة، وحتى نهاية شهر تشرين الأول 2011، ومنهم من اعتقل لأكثر من مرة“.

مدونات معارضة تجاوزت هذا الأمر، تقول مدوّنة ’المُنْدَسَة‘ في التعريف عن نفسها: ”يلي بالداخل يبيعون مقالاتهم ليلي بالخارج ليلي بدورهم وينشروها من باب الاحتياط الالكتروني“. فالיום في سوريا عددٌ لا يُستهان به من المدونات التي اختارت ارتداء ثوب الاعتدال مضمونٍ معارضٍ للسلطة في شكلٍ واضح، كمدونات المندسة، كبريت، أمواج إسبانية، طباشير وسوريا فوق الجميع، وغيرها، بمواضيع متنوعة تشمل المقالات التحليلية إلى التغطيات الميدانية، والآراء والمواقف السياسية والثقافية.

للصورة صوت وكلمة حاضرة

أفرزت الفترة الحالية التي تعيشها سوريا بما فيها من سلبات كثيرة، طغت ربما على إيجابياتها، عدة مواهب حاولت تسليط الضوء على ما يحصل على أرض الواقع السوري مبتعدةً عن رواياتٍ إعلاميةٍ ميسّسةٍ قد تشوّه المحتوى وتسيّره نحو غاياتٍ أخرى. الأفلام القصيرة، ومشاريع الحب والضحك، وتلك الخاصة بالأطفال هي مظاهر ناتجة وليست وليد نفسها.

فيلم ’الملك لا يموت‘ ليامن مغربي: حكاية سورية من الخارج إلى داخل

ظل المخرج السوري الشاب يامن المغربي، صاحب فيلم ’الملك لا يموت‘، مرتبطاً بقوة بسوريا منذ خروجه من البلاد متوجّهاً إلى مصر. في آخر سنوات دراسته، قرر أن يكون مشروع تخرجه حول قصة واقعية للمعارض السوري ميشيل كيلو داخل أحد المعتقلات، وكان فيلماً قصيراً أهداه لتراب سوريا.

يقول يامن: ”الفيلم هو عمل سينمائي قصير يحاول لمس خطوط لم نجرؤ على الخوض فيها طوال سنوات كثيرة، أبطاله ممثلون سوريون أرادوا إيصال صوت المعتقل السوري ومعاناته، صُوّر في استديوهات كلية الفنون بالقاهرة“. فيلم ’الملك لا يموت‘، حسب المغربي، مرّ بصعوباتٍ كبيرة، أهمها صعوبة استحضار المشاهد داخل المعتقل حيث ”أننا نعتمد على القصة المحكية على لسان كيلو، وعلى روايات أشخاص كانوا في الداخل وتراوحت

ظروف تواجدهم فيه، ما صعب علينا تخیل البيئة المناسبة، بالإضافة إلى رغبة الجمهور السوري في مشاهدة عمل ثقافي وفني يليق بالظروف القاسية التي تشهدها البلاد.

الفيلم هدفه سوريا والشعب السوري ولا شيء سواهما حسب المغربي الذي يضيف قائلاً: "كانت السنوات الثلاثة الماضية ثقيلة علينا وعلى أبناء وطننا، إلا أنها فتحت فضاءات وعوالم لم نكن كسوريين نستطيع الخوض أو النقاش فيها، وارتفع منسوب الجراحة إلى الدرجة التي لم يبق فيها خطوط حمراء، بالنسبة لي على الأقل". وعن التكلفة المادية لفيلمه يجيب المغربي: "اعتمادنا كان على أنفسنا في التمويل وعلى الدعم البسيط المقدم من المعهد العالي للسينما بالقاهرة، مقررین الابتعاد عن أي جهة ممكن أن تفرض أفكارها ورؤيتها على محتوى العمل".

يأمل يامن المغربي في العودة إلى سوريا قريباً، وتصوير أعمال أكبر تعالج ما حصل فيها، إلا أنه يرى ذلك أمراً مبكراً جداً وصعباً في ظل التضيق الأمني، كما أنه لا يخفي خشيته من التكلفة المرتفعة وصعوبة وجود جهات ممولة مستقلة تقبل الإشراف على أعمالٍ تحترم عقل الجمهور ولا تخدم أجندات معينة.

شكسبير في الزعتري: مشاريع الحب والضحك

يعد أطفال سوريا أحد أبرز الأطراف الخاسرة إزاء الحرب التي تشهدها بلادهم، من نزوح وتهجير وموت وتسرب دراسي وتجنيد لدى الأطراف المقاتلة، مروراً بالآثار النفسية التي تركتها الحرب عليهم لسنوات. إذ تقول آخر الدراسات 'غير الرسمية' إن 9 آلاف طفل على الأقل قضاوا خلال العنف الدائر في البلاد منذ عام 2011، ناهيك عن 3 ملايين متسرب من التعليم والمدارس.

وفي محاولة لمواجهة هذه المخاطر، ورغبةً في زرع بسمّة على وجوه الأطفال وأهاليهم يبرز مشروع 'شكسبير في الزعتري' الذي يشرف عليه نشطاء وممثلون سوريون بينهم الفنان نوار بلبل. يقول نوار: "شكسبير في الزعتري هو عرض مؤلف من مسرحيتين هما 'الملك لير' و'هاملت' أبطاله أطفال سوريون أجبرتهم ظروف وطنهم على النزوح إلى مخيم الزعتري على الحدود الأردنية السورية. حاولنا تبسيط فكرة العرض بما يتلاءم مع مستوى وعيهم مبتعدين عن مفردات مجردة كالسياسة والثورة، حيث كان هدفنا إخراج الأطفال من لعبة الكبار القذرة، والعمل على إعادة إنتاج الضحك والفرح لديهم، محاولين خلق بقعة صغيرة يمكنهم فيها التعبير عن ذواتهم بالغناء والتمثيل والرسم والحركة، مضيفاً أن هناك مسؤولية كبيرة علينا وعلى كل من يستطع المساهمة في التخفيف من معاناتهم في الانخراط في مثل هذه المشاريع".

يتحدث علاء حوراني، أحد النشطاء المشرفين على المشروع، عن الصعوبات التي واجهت انطلاقته قائلاً: "بدايةً كان الهاجس الأكبر بالنسبة لنا هو الحصول على الموافقات الأمنية من السلطات الأردنية، كون العمل سيتم على أراضيها، وبعد طرح الفكرة عليهم لاقينا ترحيباً كبيراً وتشجيعاً على المضي في المشروع. بعد ذلك كان لا بد من التواصل من المنظمات الدولية المعنية بالطفل وحقوق الإنسان ليؤمنوا لنا المركز وكافة المستلزمات للبدء بالعمل مع الأطفال، إلا أن التجاوب كان متواضعاً. حيث لم يتمكنوا بعد شهر ونصف من الأخذ والرد إلا من تأمين خيمة واحدة لمدة يومين من أصل ثلاثة أشهر كنا بحاجة إليها، كما طالبنا بتأمين وجبات للأطفال بعد البروفات الخاصة بالمسرحيات إلا أن الأمم المتحدة 'بكافة كوادرها' لم تتمكن من تأمين سوى وجبات لأربعة أيام من أصل 50 يوماً". ويضيف حوراني: "كل تلك التحديات دفعتنا إلى إنشاء مركزنا الخاص، محاولين تأمين كل ما يتعلق بالتحضير للعرض والمستلزمات المادية المتعلقة بذلك، مضيفاً أن الدعم كان سورياً خالصاً من أفراد مستقلين عن

أي تجمع أو حزب سياسي“.

شكسبير في الزعتري عُرض بتاريخ 27 من الشهر الحالي <آذار/مارس 2014> بالتزامن مع يوم المسرح العالمي مترافقاً مع عرض للوحة رسمها أطفال المخيم كرسالةٍ منهم إلى أطفال العالم. كما تمت دعوة الممثلة أنجيلا جولي، ولاعب الكرة ذو الأصول الجزائرية زين الدين زيدان لحضور فعالياته.

مشاريع صغيرة في سراقب الأمل:

الشعار الخاص بمشاريع صغيرة



مشروع صغير في بلدة سراقب بريف إدلب أطلقه نهاية العام الماضي خمسة شبان سوريين متطوعين في الداخل والخارج يسعى لمساعدة من تضرروا من الحرب الدائرة عن طريق تأمين فرص عمل ودخل مادي ليعينهم على ما خسروه في ظروف الحرب. يقول 'حسن' أحد القائمين على المشروع: "هدفنا الأساسي هو تجنب الوصول إلى مجتمع خامل يعتمد على المعونات التي لن تدوم طويلاً، بالإضافة إلى رغبتنا في إعادة عجلة الاقتصاد والحياة التجارية إلى سابق عهدها". كسوة ملابس للأطفال في الشتاء، ورشة خياطة، افتتاح محلات نوفوتيه وبقاليات، المساعدة على علاج أطفال متضررين في مشافي أوروبا هي بعض الفعاليات التي تمكن 'سراقب الأمل' من إنجازها، حسب 'حسن' الذي لفت إلى أن وجود تنظيم الدولة الإسلامية في الشام والعراق 'داعش'

في الفترة الماضية كان له أثرٌ سلبيٌّ عليهم، وعلى كل مفاصل الحياة في البلدة. ولكن بعد 'تحرير' البلدة منه منذ شهرين أصبح لديهم حرية أكبر في العمل واستطاعوا إنجاز ما لم يستطيعوا إنجازه في الفترة الماضية.

يضيف 'حسن': "نسعى لكي يكون مشروع وطن"، إلا أنه يتحدث عن الصعوبات المادية التي تواجهه وضعف التمويل. ففي سراقب حالياً "حوالي 50 مشروعاً قيد التحضير تكلفة الواحد منها بين 500-1500 دولار (أي ما يعادل 70000-210000 ليرة سورية)، وإذا ما قورن هذا المبلغ بالمساعدات المالية التي تصلنا من متبرعين مغتربين في أوروبا والخليج فهي متواضعة جداً".

'ومضة': لحظات خارج زمن الحرب

يصف قصي عمامة ما شاهده ذلك اليوم: "كنت في المصعد، فتح الباب على مجموعة من الأشخاص فجأة في أحد الطوابق، ووجدت نفسي أمامهم ينظرون إلي وأنا أنظر إليهم، كان هذا تماماً كما هو المسرح ستارة تفتح لممثل على جمهوره وبالعكس". هكذا خطرت الفكرة لنغم ناعسة مؤسسة 'مشروع ومضة' في دمشق، الذي وإن كان يعتمد على فكرة المسرح الخفي، إلا أنه اتخذ طابعاً أكثر ألماً وفناً في دمشق، وفي ذات المصعد نفذت ناعسة فكرتها الأولى مع مجموعة من الشباب المتطوعين في مركز كانت تعمل فيه كمتطوعة أيضاً.

تطورت الفكرة لتخرج من المصعد إلى الشارع، فالتقت صاحبة المشروع بعدد من الموسيقيين والمسرحيين الشباب، رسمت خطوط العرض الأولى ومكانه، وتقوم فكرته على ظهور مفاجئ لمجموعة من العازفين والمغنيين



الصورة لإحدى الومضات المفاجئة في شارع الشعلان وسط دمشق

في أحد شوارع دمشق وقلبها تحديداً 'الشعلان'، ليفاجئوا المارة بأغنية تُختار بعناية فائقة كي لا تُحسب على أحد أطراف النزاع. العرض الأول كان في الشعلان بدمشق، وكان المشروع لا يزال مشروعاً لم يحمل اسماً بعد، ومن دون موافقات أمينة، تقول ناعسة: "باستثناء تصريح من وزارة المصالحة الوطنية"، وتعتقد ناعسة أيضاً أن الحرب مليئة بالمفاجآت، فلما لا تفاجئ الدمشقيين بشيء جميل أيضاً؟ مع أنها لا تنكر أن بعض المارة لم يعيروا أي اهتمام لهؤلاء الشبان وكانوا يتابعون طريقهم، فيما سجلت دموع لدى بعضهم، ومشاركة وعرض تقديم الدعم من البعض الآخر.

قدم مشروع 'ومضة' حتى الآن أربع ومضات في دمشق، ويخطط لمشاريع أكثر 'مسرحية' مثل تقديم عرض في حافلة عامة أو مدرسة. القائمون على المشروع ما كانوا ليطلقوا الومضات لو أن الحرب لم تزر البلاد، كما أنهم يخططون للتوقف عن إطلاقاتهم في شوارع دمشق فور انتهاء المعارك، لأن البلاد باعتقادهم تحتاج لمثل هذا النوع من المشاريع التي تبث الأمل في أمةٍ فقدت الكثير خلال ثلاث سنوات من الصراع.

بعد أن تُنفذ الومضات في الشارع، يتم رفع فيديو مصور على الإنترنت ليشاهده من لم يكن حاضراً، ولهدف آخر يقوم شباب 'ومضة' بالنشر عبر الإنترنت. "السوريون انقسموا وقسم كبير منهم غادر البلاد، هؤلاء لهم الحق في مشاهدة ذلك أيضاً" لكن لماذا دمشق حصراً؟ تقول ناعسة إنها تختار مناطق قلب دمشق لتجنب ما قد يلصق بالمشروع من سمات سياسية، ولو أنها تتمنى أن تعرّض في كل مكان من سوريا، لكن الطرف لن يسمح لومضة بالظهور في مخيم اليرموك وضاحية الأسد مثلاً، فإن تمت واحدة لن تتم الأخرى، لذلك ينفذ المشروع في مناطق يتفق عليها السوريون، وفي مناطق لا تلون بصبغة سياسية أو عسكرية ما.

كثيراً ما اتهمت عروض 'ومضة'. فالومضة التي اتخذت اسم 'ومضة كيماوية' سبقت الفاجعة الكيماوية التي سُجلت في الغوطة الشرقية للعاصمة، وأتت بعد فاجعة خان العسل بريف حلب الكيماوية أيضاً. كان لا بد من الظهور لأجل السوريين وليس لدعم طرف ما، طبعاً حُسبت هذه الومضة على أنها ضد النظام، فيما اعتبرها البعض مع النظام، "نحن مجانين" جملةً يقولها القائمون على المشروع الذي اتهم كثيراً بالتبعية للسلطات، أوالمعارضة، والمشروع الذي أطلق في فترة يموت فيها السوريون بكل أشكال الموت وصنوفه. لكن كل هذا ليس سبباً لعدم ظهور المشروع، فالمهم هم هؤلاء الباقون في العاصمة، والذين يستحقون الأفضل. القائمون على المشروع يرفضون أن يسمى بالمشروع الموسيقي بل هو مجرد مشروع يهدف لنشر الأمان أولاً في نفس القائمين عليه ثم في نفس المشاهدين.

لكن الجنون الحق يحتاج لدعم مادي، وهنا تتحدث ناعسة عن الجنون الفني طبعاً. الدعم وصل من داخل البلاد بشكل كبير فهناك من قدم التجهيزات الصوتية وهناك من تطوع، وهناك من عرض المساعدة، لكن مع

كل هذا الدعم لا تنفي ناعسة أن الخطر قد زارها وزار فريق العمل أيضاً. ومع أن المشروع لا يزال بكرة بالنسبة للمشاهد إلا أنه ناضج في أذهان المشرفين عليه، حيث أدخلوا بالإضافة إلى الغناء والعزف القليل من التمثيل والحركة في المشاهد التي ستعرض لاحقاً. وتضم 'ومضة' شباباً سوريين مختلفي المشارب السياسية من معارضين وموالين، لا يختلفون على الخشبة الافتراضية التي يقفون عليها، فهم يتفقون على الأساسيات التي لم يتفقوا عليها إلا ضمناً، ويمرون بظروف مهنية صعبة كمعظم الباقين في دمشق، ويعيشون الحرب معاً تحت شعار تسميه ناعسة "حرب المصلحة المشتركة" التي تجمع من يريد الحياة، وتعتبر أن المرحلة التي تمر بها سوريا اليوم هي الأفضل لمثل هذا النوع من النشاطات الثقافية. عدوى 'ومضة' وصلت إلى مخيم اليرموك المحاصر بجانب العاصمة، حيث قضى العشرات جوعاً بعد عام من الحصار تقريباً. ورغم ذلك قام شباب في داخل المخيم بالعزف على البيانو في الطريق أيضاً. هذا التأثير يعتز به القائمون على المشروع، فحين اجتمع أكثر من 200 شخص في "الجسر الأبيض مثلاً" تكون الفكرة قد تمت والتي ملخصها "اعملوا واشعروا بالسعادة فأنتم تستحقونها ولا تتطرفوا مهما حدث". جمهور 'ومضة' في الغالب يضم أم شهيد وابن شهيد وزوجة شهيد، أو قريب معتقل ومفقود ومغيب ومخطوف: هي دعوة للحياة، يطلقها شباب سوريا من قلب العاصمة للجميع ومن الجميع.

سوريا: الخبر الذي لا يغيب ولا يُغَيَّب

في سياق آخر تعد الأزمة السورية من أكثر ما يحتل الأخبار بشكل يومي في العالم بسبب القضايا التي تطرحها وكثافة الأخبار التي فرضتها في السنوات الثلاثة الأخيرة. وفي ظل غياب منابر إعلامية تعبر عن الشباب وتبلي احتياجاتهم للمصادقية، قرر الشباب السوري أن يأخذوا دورهم في صناعة الخبر من خلال 'وسائل اعلامية بديلة'.

نواطير 'عنب بلدي' في داريا: نشاط سلمي وفرحة بالعدد صفر

'عنب بلدي' جريدة أطلقتها مجموعة من شباب وبنات داريا الناشطين في الحراك السلمي في المدينة، أرادوا حسب قولهم "خلق منبر حر لأفلام الشباب التي قيّدت وحوصرت من قبل نظام الرأي الواحد خلال العقود الماضية، وأراد الفريق من خلال الجريدة أن يوصل صوته إلى الشارع، الذي افتقر لوجود وسيلة إعلامية حرة تحمل أفكار الثورة ومبادئ المجتمع المدني الذي نشدته الثورة منذ انطلاقتها".



وحسب 'ناطور'، وهو محرر في الجريدة: "فإن إصدار جريدة ورقية لم يكن بالأمر السهل من الناحية المهنية في ذلك الوقت، وكان عنصر العمل الطوعي هو أساس المشروع، وبوجود شباب هواة لم يكن لديهم أي خبرة صحفية كان لا بد من الاعتماد على المهارات الذاتية لأعضاء الفريق بالإضافة لمعارفهم الأكاديمية والثقافية،

فقد تم تقسيم أبواب الجريدة على الأعضاء بحسب اختصاصاتهم وقدراتهم الأدبية والفكرية والفنية، وتم العمل بجهد كبير وحثيث على إصدار العدد صفر، الذي كان تلمسه بالأصابع بمثابة حلم لمجموعة الشباب غير الواثق -في ذلك الوقت- من قدرته على تطبيق الفكرة“.

يؤكد العاملون في 'عنب بلدي' أنه خلال الأشهر الـ 26 من عمر الجريدة، تطور العمل في شكل ملحوظ، وبدأت ملامح الاحتراف تظهر شيئاً فشيئاً لدى أعضاء الفريق، من خلال قراءة ردود أفعال القراء والاستماع إلى ملاحظاتهم ونقدهم. كما لعب التدريب المهني الذي تلقتة الجريدة بواسطة بعض المنظمات الإعلامية دوراً كبيراً في تحسين وتطوير مستوى المحتوى الصحفي للجريدة. وبدأت الجريدة تتحول شيئاً فشيئاً من مجموعة عمل إلى مؤسسة تملك نظامها الداخلي وقوانينها، وسياستها التحريرية وقواعد العمل الصحفي، بالإضافة إلى علاقاتها التي تتسع في الوسط الإعلامي.

ويتابع 'ناطور': "كانت التحديات الأبرز التي تواجه الإعلام في شكل عام هي القدرة على الاستمرار والوصول إلى الجمهور في شكل مهني، والقدرة على الوصول والتحرك داخل البلاد للاقترب من قضايا الناس والاستماع لهم لمعالجة قضاياهم صحفياً، والعنصر الثالث هو التمويل لتأمين استمرارية المشروع ودعم أعضائه وتطوير عملهم“.

قد يكون من الصعب تقييم مقدار النجاح أو الفشل الذي حققته الجريدة على صعيد الهدف الأساسي الذي وضعته لنفسها، كما يقول المحررون في الجريدة، "فمع دخول المجتمع السوري في نفق المحنة الكبيرة التي يتعرض لها حالياً، ووقوعه في أسر الحاجة لما هو أكثر إلحاحاً من 'الحرية' كهدف أسمى للثورة، كالحاجة للأمان والمأوى والغذاء. وربما أصبح الخطاب الفكري والثقافي والسياسي الذي تحمله الصحف مثالياً لدرجة البعد عن هموم الناس، لذلك كان لابد من التطرق في شكل مباشر لقضايا الناس الاجتماعية والإنسانية، وتبسيط الضوء على همومهم من خلال تحقيقات ومواد صحفية تعالج مشاكلهم، وقد استطاعت الجريدة على هذا الصعيد كسر بعض الجدران الاجتماعية التي خلقتها الأعراف والتقاليد الاجتماعية والتعرض لمواضيع حساسة وهامة، كالمواضيع المتصلة بالمرأة والدين". وبالتأكيد 'عنب بلدي' مثلها كمثل وسائل الإعلام الرائدة التي تسعى لأن تكون سلطة رابعة تؤثر في الناس وفي أصحاب القرار وتصنع التغيير.

روزنة: راديو يهتم بالشارع السوري بكوادر سورية 100%

يعد 'راديو روزنة' من إذاعات الإنترنت الرائدة بالظهور والتطور مع بدايات الأزمة السورية. أعضاء 'راديو روزنة' يعرفون عن أنفسهم بأنهم مجموعة من السوريين الذين قرروا إنشاء وسيلة إعلامية سورية تدعم الإعلام الحر وتتسم بالحيادية والاستقلالية ملء الفراغ الإعلامي المهني الموجود في الساحة السورية. ميس من الإداريين المسؤولين في راديو روزنة تؤكد "كوادر روزنة سورية 100%".

فريق التحرير موجود خارج سوريا، فيما يعمل ضمن فريق المراسلين 64 صحفياً ومواطناً صحفياً في الداخل. روزنة يغطي الوضع السوري بكل أنحاء البلاد ويركز على الحياة اليومية والقصص الإنسانية إلى جانب الأوضاع السياسية". وحيث تتنوع الأهداف والطرق التي يسعى الإعلام فيها للتأثير بالرأي العام يتخذ راديو روزنة التغطية الحيادة التي تشكل تحدياً وإيصال الأخبار بمصداقية وحرفية. تؤكد ميس "مشروعنا يسعى لخلق مناخ ديمقراطي يدعم الحريات العامة في الشأن السوري، وهو وسيلة إعلامية تسمح لأي سوري مهما كان رأيه للتعبير عن نفسه بكل ما يخص قضايا الشارع السوري".

تحرير سوري: الخبر يبقى 'منفي' حتى يتم 'التحقق' منه



مشروع 'تحرير سوري' هو مجموعة أخبارية تطوعية. يقول تشارلز أحد مؤسسي المجموعة: "بدأت الفكرة لإنشاء وسيلة إعلامية مستقلة، ليس لها تبعية لأحد (أخوان، نظام، عسكر .. إلخ)" وهي وليدة 'الثورة' التي بنظر القائمين على المشروع ثورة على كل خطأ أو عمل يضر للبلد.

لعل أهم ما يميز مشروع تحرير سوري أنه لا يفرض خبراً، بل يضع الأخبار للتحقق، وكل خبر هو منفي حتى يتم التحقق منه. يقول تشارلز: "لسنا مجموعة تنويرية، بل نحن نسعى لجعل الناس تبحث عن الخبر، وتشكك في أي حدث، وتبحث بنفسها عن الحدث وهذا بحد ذاته تغيير وتأثير بالرأي العام، وكأن المجموعة تخلق الحس الصحفي في كل متابع

سوري". وعن أبرز الصعوبات التي تواجه العمل أوضح تشارلز: "الصعوبات في شكل عام بالنسبة للإداريين هي محاولة نقل الواقع وأخطاء جميع الأطراف دون أن تنتهم بالانحياز لطرف لأننا ننقل أخباره، وهدفنا البعيد هو تطوير المجموعة لشيء أكبر وأكثر انتشاراً".



حول مراكز بحوث السياسات: 'المركز السوري لبحوث السياسات' نموذجاً

| إعداد: الفريق الصحفي في مجلة دِلْتَا نُون

الخلاصة:

نشأت مراكز بحوث السياسات عموماً في سوريا كحاجة فرضتها الأحداث المتسارعة في البلاد في ظل التطورات الميدانية والسياسية. وفي الوقت الذي كادت تخلو سوريا من أيّ مركزٍ بحثيٍّ مستقلٍّ ومُعْتَمَدٍ كمصدرٍ للمعلومات، تأسّس 'المركز السوري لبحوث السياسات'، كمؤسسةٍ مستقلةٍ، تسعى للوصول إلى أكبر قدرٍ من المعلومات بطريقةٍ قريبةٍ للواقع قدر الإمكان. أجرى الفريق الصحفي في 'مجلة دِلْتَا نُون' لقاءً مع 'المركز السوري لبحوث السياسات'، بحضور ربيع نصر، وزكي محشي، وريما دالي، في مقر المركز بدمشق. وقد أجاب الأستاذ نصر، الباحث في المركز، على عددٍ من الأسئلة التي طرحناها، والمتعلقة بتأسيس المركز، وعمله في ظلّ الأزمة الراهنة، مروراً بدوافع نشأته ومصادر تمويله، وعن أبرز الصعوبات التي تتم مواجهتها. كما تطرقنا في لقائنا إلى تأثير الوضع الأمني والأزمة الحالية على عمل المركز، وكيف حافظ المركز على استقلاليته في ظل التجاذبات السياسية والتحزّب والانقسام القائم في البلاد. كما ختمنا اللقاء بأمثلةٍ عن عمل المركز وعن التقارير التي أعدها عن الوضع السوري.

بداية ما هو 'المركز السوري لبحوث السياسات' تأسيسه؟ وعمله؟

في ظل شح الإنتاج البحثي الموجه للسياسات، تأسس 'المركز السوري لبحوث السياسات' كمؤسسة مستقلة، مدنية، غير حكومية، غير ربحية، تقوم بإنتاج الدراسات والبحوث الموجهة للسياسات العامة بطريقة احترافية، وتسهم بطرح البدائل الممكنة للسياسات العامة لمؤسسات صناعة القرار وللرأي العام.

ويقوم المركز بتنفيذ حوارات سياساتية مبنية على البحوث والأدلة بحيث تحترم حرية التعبير والتفكير وقبول الرأي الآخر، وتساهم في تطوير وتعزيز فعالية المؤسسات الحكومية والمدنية. ويشكل الحوار مساحة مفتوحة يقوم المركز بإدارتها بحيادية وموضوعية معتمداً على أكبر قدر من المعرفة المتوفرة بمشاركة ممثلين عن مختلف أصحاب العلاقة بغية تطوير المعرفة بطريقة تشاركية، والوصول إلى خيارات سياساتية تخدم حاجات المجتمع بالشكل الأمثل.

كيف كانت بداية 'المركز السوري لبحوث الدراسات' وما هي دوافع نشأته؟

نشأت الكثير من مراكز البحوث الموجهة للسياسات في الدول النامية بعد استقلالها منتصف القرن الماضي، للمساهمة في الإنتاج المعرفي الموجه للسياسات العامة، وجسر الهوة بين المعارف المتراكمة وصناعة السياسات العامة بكافة مراحلها. ورغم انتشار هذه المراكز في شكل متسارع إلا أن مفهوم مركز السياسات لا يزال غير محدد ومتنوع إلى حد كبير. حيث يمكن تصنيف مراكز السياسات وفقاً لموقعها السياسي (مستقلة أو حكومية أو حزبية أو تابعة لقطاع الأعمال أو المجتمع المدني)، أو لوظائفها الرئيسية ذات الأولوية (الوظيفة البحثية أو الحوارية أو الدفاعية).

ما هي أبرز الصعوبات التي تواجهها مراكز الدراسات عموماً. والصعوبات التي يواجهها مركزكم؟

تواجه معظم مراكز السياسات تحديات كبيرة في الدول النامية مثل ضعف إمكانيات البحث العلمي والقيود المكبلة لحرية الفكر والبحث، بالإضافة إلى التدخل المباشر للقوى السياسية المؤثرة في كل من أهداف وأولويات وأداء هذه المراكز بما في ذلك حرية النشر، وضعف الموارد المالية والمادية التي تخصص للبحث ما يسهم في إضعاف استقلالية هذه المراكز. ويضاف إلى ذلك الخلل في الربط بين المعرفة والبحوث من جهة والسياسات من جهة أخرى؛ فالبحوث الموجهة للسياسات تحتاج إلى عمل مركّز في وضع طروحات وبدائل قابلة للتطبيق ومرتبطة بالقضايا الواقعية، كما تحتاج إلى جهود استثنائية في مجال التواصل مع صناع القرار بفاعلية ومع المجتمع بطرق تشاركية وشفافة.

هل أثرت الأزمة عموماً والوضع الأمني في البلاد خصوصاً على عملكم ونشاطكم في مجال البحث الميداني؟

عانت سوريا من نقص المراكز البحثية وخاصة المراكز البحثية المعنية بالسياسات العامة، وترافق ذلك مع مناخ مؤسسي غير ملائم لازدهار عملية البحث العلمي نتيجة للتضييق على الحريات العامة والحريات الأكاديمية، والتضييق على الحوارات الجادة المتعلقة بالقضايا العامة، ونقص الاستثمار في البحث العلمي والتركيز على



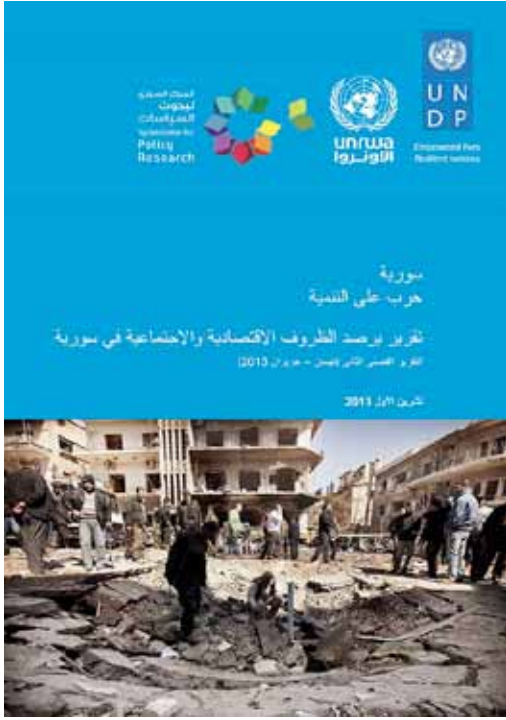
التعليم الكمي. بالمقابل فإن صناعة السياسات العامة ظلت إلى حد كبير غائبة عن مشاركة أفراد المجتمع. فتباعدت بالنتيجة السياسات العامة وفي شكل متزايد عن تطلعات ومصالح المجتمع السوري، وافتقرت آليات المساءلة للفاعلية، مع دور هزيل للقضاء، وتغييب للإعلام المستقل، وتهميش لمؤسسات المجتمع المدني. لقد بينت الأزمة الحالية (منذ آذار 2011) العجز المزمن للسياسات عن تلبية جزء كبير من طموحات الشعب السوري في تنمية مستدامة تضمينية، ما يزيد من الحاجة إلى رسم التصورات المستقبلية للقضايا الكبرى على المستوى الوطني بطريقة تشاركية ومستندة إلى المعرفة والأدلة العلمية. كما أن الأزمة التي تمر بها سورية في حاجة إلى تبني الحلول قصيرة الأجل.

ما هي سياسة المركز وركائزه الأساسية التي يعمل عليها؟

إن أحد أهم ركائز 'المركز السوري لبحوث السياسات' هو الاستقلالية والحرفية في العمل. وقد تبنّى المركز في سبيل ذلك مجموعة من الأسس كان أهمها العمل كجزء من المجتمع المدني لخدمة النفع العام، وإشراك ممثلين عن القطاعات الثلاث العام والخاص والأهلي في دعم عمل المركز، وتبني شراكات إستراتيجية معهم. إضافة لتشكيل مجلس للأمناء من شخصيات وطنية عامة فكرية مستقلة ومشهود لها بالنزاهة والموضوعية والحرص على الشأن العام وتمثل تيارات فكرية متنوعة. ولضمان سلامة العمل الفني والالتزام بالإستراتيجيات ووضع الأجندة بناءً على أولويات المجتمع يعتمد المركز على هيئة فنية استشارية محترفة من خبراء محليين وإقليميين ودوليين.

كيف يحقق المركز استقلاليته وكيف يضمن عدم تحييزه لهذا الطرف أو ذاك؟

يعتبر التمويل أحد المحددات الأساسية للاستقلالية، لذلك تم تأسيس المركز بتمويل ذاتي من مؤسسي وزملاء المركز، وضمّمت محفظة تمويل متنوعة تضمن استقلالية المركز عن أي مصدر تمويل. ولا يقبل المركز التمويل من الأحزاب السياسية. كما يعتمد المركز في شكل رئيسي في تمويل مشاريعه البحثية على رأس المال البشري التطوعي، المتمثل بجهود الباحثين من داخل وخارج المركز، كأساس لتغطية احتياجات العمل. وبالنظر إلى حجم العمل المطلوب والساعات المقدمة تطوعاً لإنجازه، يعتبر المنتج النهائي في كل مشروع ذا صبغة تطوعية قياساً بالتعويض الرمزي المقدم للمشاركين بإنجازه.



ما هي القضايا أو المشاكل التي يتناولها المركز في دراساته؟

تتضمن أولويات العمل في المركز التركيز على المستوى الإستراتيجي والقضايا الإشكالية الكبرى ضمن السياسات العامة. فغياب رؤية وإستراتيجية واضحة على المستوى الكلي في صناعة السياسات في سورية خلق الحاجة لتعبئة هذا الفراغ على مستوى الخيارات الإستراتيجية وتقييمها والحوار حولها من قِبَل المركز الذي عمل على تصميم مشروعه الأساسي، 'سياسات تنموية بديلة في سوريا'، حيث يهدف إلى المساهمة في تطوير السياسات العامة التنموية ذات الأولوية، ومشاركة فعالة من القطاعات والمواطنين المعنيين للوصول إلى تنمية مستدامة.

هل يمكن أن تشرح لنا منهجيات المركز في أدائه وعمله مع مثال شارح؟

يتبنى المركز منهجيات علمية متعددة الاختصاصات تركز على القضايا الاقتصادية والاجتماعية وتشابكاتها، ويتم استخدام وتطوير المنهجيات الكمية الرياضية في شكل أساسي بالاعتماد على نماذج قياسية وإحصائية والدراسات المستقبلية. كما يتم اعتماد المنهجيات الكيفية بخاصة في القضايا الاجتماعية والمؤسسية وفقاً للأصول العلمية. وبالإضافة إلى ذلك يتم العمل على المستويين الكلي والجزي، حيث يقوم المركز بالتحليل الاقتصادي الاجتماعي على الصعيد الوطني، وينفذ مُسوحاً ودراسات على مستوى الأسر والأفراد.

ولرصد وتحليل الواقع الاقتصادي والاجتماعي في سورية، ونتيجةً لقلّة البيانات والمعلومات المتوفرة عن الواقع السوري، عمل المركز على تشخيص وتحليل جذور الأزمة للوصول إلى فهم أعمق للاختلالات التي أدت إليها، حيث صدر تقرير 'تحليل الجذور والآثار الاقتصادية والاجتماعية للأزمة في سورية' في كانون الثاني/يناير 2013 بمشاركة العديد من الباحثين المستقلين.

وقد تضمن هذا التقرير تحليلاً وتقييماً للآثار الاقتصادية والاجتماعية للأزمة خلال عامي 2011-2012، مُبرزاً العوامل التي قادت إلى الأزمة الحالية والمتمثلة في جذورها بالاختناق المؤسسي الذي همّش قطاعات كبيرة من المجتمع، حارماً إياها من المساهمة بفاعلية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي ظل تعقد الأزمة السورية واتخاذها أبعاداً جديدة وتداخل العوامل الداخلية والخارجية المؤثرة فيها، بالتزامن مع تهميش الرأي العام السوري وعدم إشراكه في صياغة رؤية واضحة للخروج من الأزمة، صمم المركز مشروع 'الأزمة السورية: استشراف بدائل الحل'.

واعتمد هذا المشروع على رسم منهجي للسيناريوهات المحتملة للخروج من الأزمة موضحاً دور الفاعلين، والبدائل الأمثل لتجاوز الأزمة. وبدأ المشروع بوضع ملامح رؤية بعيدة المدى تعتمد القيم والمبادئ الرئيسية المرغوبة وبمشاركة العديد من المهتمين بالشأن العام. وتم استخدام هذه الرؤية لتقييم السيناريوهات المحتملة للأزمة. فقد أظهرت الدراسة تصدراً ملحوظاً لـ 'سيناريو المفاوضات' بثقلٍ داخليٍّ كخيارٍ تفضيليٍّ للمجتمع السوري على باقي السيناريوهات الأخرى. وقد تم عرض نتائج المشروع في مؤتمرٍ 'نحو حل إستراتيجيٍّ للأزمة السورية: دور المجتمع المدني' والذي شارك المركز في تنظيمه.

ما هي آخر نتائج تقاريركم المتعلقة بالأزمة السورية؟

فيما يتعلق بالآثار الاقتصادية والاجتماعية للأزمة في سوريا، يقوم 'المركز السوري لبحوث السياسات' وبالتعاون مع 'وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)' و'البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة'، بإصدار تقارير ربعية لتقييم هذه الآثار على المجتمع السوري ومؤسساته. وتسعى هذه التقارير لتشخيص الاختلالات التنموية الكبرى خلال الأزمة بطريقة علمية، بحيث تشكل أحد مصادر المعلومات الضرورية لصياغة السياسات والبرامج التي تتجاوز في نظرتها الحالة الإنسانية الطارئة إلى توسيع الخيارات الإستراتيجية التنموية لما بعد الأزمة. يقدم المركز نتائج بحوثه ومشاريعه لخدمة الصالح العام، ساعياً لتمكين أفراد المجتمع وتوسيع خياراتهم من خلال تأمين نفاذهم للمعلومات وضمان حقهم في المعرفة.



دراسات

- ◆ المثقف والمعارضة والشأن السوري
- ◆ غيلان الدمشقي في سياقات مختلفة
- ◆ بين الشعر والفيس بوك
- ◆ السينما كمعبر عن تفاوت الصراع
- ◆ قراءة في دعوات تطبيق الشريعة
- ◆ محددات تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري





محمد ديبو*

المثقف والمعارضة والشأن العام في سوريا: تمهيدٌ طويلٌ لا بُدَّ منه

الخلاصة:

بقدر ما عكست الثورة السورية توق السوريين نحو الحرية، كشفت -بالمقدار نفسه- حجم الجهل ونقص المعرفة الموجود فيما يخص هذه الـ 'سوريا' التي يصبون إليها. ليس على مستوى الشارع/الجمهور/ الشعب فحسب، بل على مستوى النخبة المثقفة التي تكتب جهلاً فيما يخص بلدها، فتكون أحد أسباب التأزيم بدلاً من أن تكون أحد محركات التنوير والحل. لهذا كان لابد من العودة إلى هذه المعرفة التي أنتجها المثقف السوري حول 'سورياه'، لتكون الكارثة أنه لا يوجد معرفة حول سوريا بأقلام السوريين إلا لمأماً! ثمّة الكثير من الأيديولوجيا والقليل من المعرفة. وهذا ما دفعنا للبدء بهذا البحث الذي يناقش 'جهل' المثقفين السوريين حول سورياهم، أو تمكّن الأيديولوجيا منهم على حساب المعرفة، عبر سؤال يعكس حجم مأساة الثقافة السورية: لمَ ليس هناك كتابٌ معرفيٌّ واحدٌ يتحدث عن سوريا بقلم مثقفٍ سوريٍّ قبل عام 2000؟ ولمَ ليس هناك إلا الكتب المتسارعة حول سوريا بعد عام 2000؟ وهي بالكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة؟ هذا السؤال، مضافاً له جهل المثقفين السوريين بطبيعة بلدهم وتركيبه نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، دفع البحث إلى الغوص في طبيعة الثقافة السورية مذ تشكلت سوريا بجغرافيتها الحديثة في ظل الانتداب الفرنسي (1920-1946)، قارئاً -في هذه المادة- الإطار التاريخي الذي تكون فيه المثقف السوري والتحوّلات التي جرت على مفهوم المثقف ونموذجه، بدءاً من 'المثقف المتعلم' و'المثقف الأيديولوجي' و'المثقف الثوري' و'المثقف النقدي' انتهاءً بـ 'المثقف العمومي النقدي' الذي يولد اليوم في ظل الثورة، معيداً سوريا إلى خارطة اهتماماته المعرفية بعد أن هيمنت عليه الأيديولوجيا طويلاً. على أمل أن تتمكن في أجزاء قادمة من قراءة الأسباب الخارجية (خارج إطار المعرفة) التي تسببت بهذا الفقر، والأسباب الداخلية (داخل النص المعرفي المنتج ومنهجه)، ساعين بنفس الوقت لمحاولة فتح بابٍ جديدٍ في هذا الإطار، نأمل أن يتبعَ حميد من النقاش والجدل مع مثقفين ومفكرين آخرين، وأن يؤكّد 'جديد' ما لا يرتتهن للثورة أو الماضي بقدر ارتتهانه للمعرفة وشروطها فحسب.

* كاتب وشاعر وباحث سوري، يكتب في عدد من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية. حاز بدويانه 'لو يخون الصديق' على جائزة دمشق عاصمة الثقافة العربية. كما صدر له قصة بعنوان 'خطأ انتخابي' عن دار الساقي، وشهادة عن الثورة وتجربة الاعتقال بعنوان 'كمن يشهد موته' عن دار المواطن. إضافة إلى مجموعة أبحاث منها بحث بعنوان 'الطائفية كعامل من عوامل النزاع الأهلي في سوريا' الصادر عن مركز المجتمع المدني والديمقراطية ضمن كتاب مشترك عن السلم الأهلي في سوريا.



عُرّت الانتفاضة السورية، التي اندلعت في الخامس عشر من آذار، المثقفين والمعارضة السورية الرسمية 'كنخبة' في آن، لجهة أنها كشفت الأوهام التي تسيطر على أذهان هؤلاء وانعكاس ذلك في استراتيجيات نضالهم العاجزة، وفيما يكتبون: عطالة وجهلاً وتبسيطاً لا يليق بانتفاضة يدفع السوريون والسوريات ثمن استمرارها بوجه الطاغية من دمهم بشكل يومي.

إن الكثير مما يكتب حول سوريا في الصحف والمراكز البحثية اليوم يلامس حدود الجهل في كثير من الأحيان. جهل بوضع البلد الداخلي وتركيبته: سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، ريفاً ومدينة، فقراء/نخبة طبقية مهيمنة وناهبة، مثقفاً/سلطة. وبنية النظام السوري وطبيعته: طائفي أم سلطوي، قائم بغيره أم بدعم الخارج/المحور، يعتمد احتكار القلة والدفاع عن مصالحهم بوجه الأكثرية الساحقة من الفقراء المسحوقين المذلين المهانين أم يحقق مطالب الطبقات الشعبية الأوسع في توازن دقيق وحساس مع مصالح الحيتان الاقتصادية، يعتمد العنف المطلق أداة وحيدة لحماية السلطة ومصدر الشرعية أم ثمة أسباب أخرى تساند هذا الأمر؟

هذا الجهل المعرفي الفادح بسوريا الذي كشفته الانتفاضة، والذي أدى فيما أدى من جملة نتائج كثيرة إلى أن تقف اليوم المعارضة السورية والنخبة المثقفة عاجزة أمام الحائط المسدود الذي وصلت إليه جميع الأطراف، كنتيجة منطقية لإستراتيجيات خاطئة وُضعت بناءً على معلومات ومعارف خاطئة وغير دقيقة، الأمر الذي يعيدنا إلى المثقف ودوره في إنتاج الثقافة والمعرفة الخاصة ببلده وطبيعته المستبدّة، ومدى مواجهة هذه الثقافة للسلطة لأن "السلطة عنف، فيما القيود الوحيدة التي يعترف بها الفكر الخلاق هي قواعده المتأصلة في داخله"⁽¹⁾ وهي قواعد تنحاز للإنسان/الفرد/الضعيف حتماً بوجه السلطة، أي سلطة كانت: سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية. هذا الوضع المزري للمثقف السوري اليوم يضعنا أمام أسئلة كبرى، تبدأ من التحريّ لا عن أسباب غياب المثقف وسلطته اليوم وعن ضمور دوره فحسب، وعن أسباب عدم قدرته على إنتاج المعرفة التي هي شغله الأساس، وعن دوره في تسيدّ الجهل والوهم والأيديولوجيا والانبهار الأعمى أو التشاؤم بما يحصل بدلاً من إنتاج المعرفة بالوضع القائم أو تفسيره تمهيداً لتغييره، كما يقول ماركس.

1 آلان باديو، مقالة 'التفكير بالحدث' من كتاب 'الفلسفة في الحاضر' لآلان باديو وسلافوي جيжек، ترجمة: يزن الحاج، دار التنوير 2013، ص: 23.

عبارة ماركس السابقة تشي بأن المعرفة بـ "تسبق الحدث لأنها تمهد له، عبر المساهمة في تنوير من يقوم به على شدة الظلم والفساد، بمعنى أنها تنتج الوعي المحرك لهذه الجماهير لكي تفكر وتفهم أنها مستغلة فتبدأ عملية التفكير بكيفية الخروج من هذا الوضع مستدلة بما كتبه المثقف كمعالم طريق أو نقاط علم، لأن المهمة الحقيقية للمثقف تكمن في 'صوغ البدائل من الوضع القائم' (2) لأن المثقف "يساهم في مناقشة الشأن العام بأدوات عقلانية، ومن منطلق المواقف الأخلاقية" (3).

هذا ما يجب أن يكون عليه الوضع، فهل كان قائماً في سوريا قبل الانتفاضة؟ وإن كان قائماً أو موجوداً، فهل كان قائماً كشعور عام بالظلم أم كشعور خاص معرفي/علمي مبني على أسس وأرقام ومعلومة وليس أيديولوجيا؟ أي شعور يميز المثقف بشعوره المعرفي بهذا الظلم وسبل تفكيكه عن المواطن العادي بشعوره الفطري في الظلم، سواء من موقع من يقع عليه الظلم أو من موقع أيديولوجي ينتمي له هذا المواطن؟

قبل البدء بنقاش المعرفة التي أنتجها المثقف العربي والسوري تحديداً، والقاصرة عن الإحاطة بالوضع اليوم لمعرفة أسباب ذلك، علينا أن نؤكد إن كانت هذه المعرفة قاصرة فعلاً، وتستحق وصفها الذي نصفها به، وهل هي كذلك بالعموم أم ثمة اختراقات ما لبعض المثقفين؟ وهل هي اختراقات هامة ذات دلالة وتحدث أثراً أم أنها مجرد 'صرخة صماء' أم ماذا؟

لكي لا يكون كلامنا في الهباء سنتحدث عن بعض أوجه المعرفة القاصرة كما تجلت في كتابات المثقفين السوريين عن سوريا، بشكل خاطف وسريع، عبر أمثلة سريعة، على أمل أن نتمكن لاحقاً من تسليط الضوء في جزء خاص من هذا البحث على هذا الأمر بشكل تفصيلي وموسع عبر الدخول في نقاش موسع مع المعرفة التي أنتجها المثقف السوري حول سوريا، سواء فيما يتعلق بالانتفاضة أو بسوريا بشكل عام، مكتفين هنا ببعض الأمثلة لكي لا يطول هذا الجزء من البحث، وفي يدرك القارئ الهدف الأساسي لهذا البحث.

مثال أول: مؤخراً تحدث المفكر السوري الكبير صادق جلال العظم عما سمّاه 'العلوية السياسية' مفترضاً أن النظام في سوريا هو نوع من علوية سياسية، إذ قال: "لا يمكن للصراع أن يصل إلى خاتمته بدون سقوط العلوية السياسية تماماً كم أن الحرب في لبنان ما كان يمكن أن تصل إلى خاتمته بدون سقوط المارونية السياسية وليس المواردية في لبنان" (4).

يصعب الفهم كيف يمكن لمفكر مثل العظم أن لا يدرك الفوارق بين سوريا ولبنان من جهة التكوين والفضاء العام الذي ولد به كلا البلدين في ظل الانتداب الفرنسي، حيث اتجهت سوريا نحو النظام الجمهوري واتجه لبنان بفعل توازناته الطائفية نحو نظام المارونية السياسية الذي شرعن الأمر دستورياً وربط بين النظام والطائفة واستمد شرعيته التاريخية من هذا النظام إلى أن قامت الحرب الأهلية اللبنانية، في حين أن شرعية النظام السوري مستمدة تاريخياً من الأسس الجمهورية رغم كل عللها، حتى قبل أن يصل النظام الحالي إلى السلطة، إذ يتناسى العظم أن 'العلوية السياسية' أو 'المارونية السياسية' أو غير ها من هذه النظم تقوم في بعد أول على أساس طائفي واضح وصریح، يدمج بين النظام السياسي والدولة، بحيث تكون النصوص الدستورية صريحة وواضحة لجهة 'حق'

2 عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية الفصلية، العدد 4 - المجلد الأول-ربيع 2013، ص: 142.

3 المصدر السابق، ص: 131.

4 صادق جلال العظم لـ 'المدن': الحل بسقوط العلوية السياسية، جريدة المدن الإلكترونية، حوار ديمة ونوس، الخميس 2014/03/13، الرابط: <http://www.almodon.com/Culture/Articles/%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D982-%D8%AC%D984%D8%A7%D984-%D8%A7%D984%D8%B9%D8%B8%D985-%D984%D986-%D988%D8%AA%D987%D988%D8%A7%D984%D8%B5%D8%B1%D8%A7%D8%B9-%D8%A8%D8%AF%D988%D986-%D8%B3%D982%D988%D8%B7-%D8%A7%D984%D8%B9%D984%D988%D98A%D8%A9>

هذه الطائفة في الحكم على نحو ما شهده لبنان مثلاً، وهو أمر يغيب في سوريا التي ينص دستورها على النظام الجمهوري، مذ ولدت سوريا بشكلها الحديث.

وفي بعد ثانٍ على العلاقة بين الطائفة والسلطة، ترى الطائفة نفسها أنها ممثلة سياسياً عبر هذه السلطة، بحيث تشعر الطائفة أنها تمارس السياسة أو تشارك بالحكم من خلال حقها الطبيعي هذا الذي كفله لها الدستور وهو أمر غير متوفر أيضاً في سوريا، حيث تنظر الطائفة العلوية للنظام السوري بوصفه حامياً لها وليس ممثلاً سياسياً، في حين أنه في نظام 'العلوية السياسية' أو 'المارونية السياسية' تنظر الطائفة للسلطة بوصفها الاثنان معاً، مع ترافق الأمر مع سلطة دينية تسند السلطة السياسية ولكنها تفتقر عنها بشكل واضح فالكنيسة المارونية في لبنان تاريخياً هي مستقلة عن السلطة السياسية، في حين أن السلطة في سوريا صادرت الطائفة العلوية كلياً وفككت مرتكزات قوتها وحرمتها حتى من مرجعية دينية، لكي تقوم هي بمهمة 'التمثيل الديني' دون أن تفصح عن الأمر، مانعة نشوء أي قطب ديني داخل الطائفة يسحب منها شرعيتها هذه، دون أن تعطي العلويين - أو أي طائفة أخرى - حقوقهم السياسية، في حين حرمت العلويين من حقوقهم السياسية وأن يكون لهم مرجعية دينية معاً، لكي يسهل الهيمنة عليهم وربطهم بها ليكونوا مجرد وقود لها⁽⁵⁾.

وفق تصوّرنا يقوم النظام السوري على احتكار الطائفية والتلاعب بها، إذ لم يكن يوماً نظاماً طائفيّاً كما يتوهم الكثيرون بل هو نظام يحتكر الطائفية والحديث بها، ليقدم نفسه نظاماً علمانياً في حين أن نظام 'الطائفية السياسية' لا يتورع عن تقديم نفسه بصفته الطائفية الواضحة. وهنا ثمة فرق واضح بين الأمرين، لن نخوض في تفاصيله هنا، مع ضرورة ملاحظة أن النظام السوري اليوم يستمد آليات حكمه في العمق من جوهر النظام الانتدابي الذي فرضته فرنسا في سوريا، مع فارق جوهري أيضاً على مستوى السطح عن تجربة الانتداب الذي غرق بالطائفية وأعلنها في إطار دويلات وفي قوات الشرق التي كانت تعتمد على الأقليات، في حين أن النظام السوري احتكر الطائفية ولعب بها باطنياً وبطرق سرية/أمنية، مغطياً عليها بـ علمانية/وحدوية/قومجية/ممانعة وغيرها من الأوراق التي مكنته على مدى عقود من التغطية على احتكاره للطائفية⁽⁶⁾.

وهنا نشير إلى خطأ آخر من الأخطاء الشائعة ولكن القاتلة التي وقع بها المثقفون السوريون في مقاربتهم للنظام وطبيعته، حين افترضوا أن النظام السوري هو أول من اعتمد على الطائفية في الأمن والجيش، في حين أن جذور الأمر تعود إلى الانتداب الفرنسي الذي رسخ هذا الأمر في 'قوات الشرق' بمواجهة 'سنة المدن' الذين كانوا يحملون لواء القومية العربية التي كان الفرنسيون يخشونها. فوفقاً للتخطيط الفرنسي، طوّر الجيش تركيباً ريفياً وأقلوياً قوياً، كان للعلويين فيه موقع مرموق. وقد صح هذا بصورة خاصة في صفوف الجنود وضباط الصف. وفي نهاية الانتداب، كانت عدة كتائب في القوات الخاصة مؤلفة بكاملها تقريباً من العلويين. ولم تكن أية كتيبة عربية سنية صرفة، وحتى سرايا الخيالة القليلة التي كان فيها عناصر كثيرة من العرب السنة ملئت في مجملها بعناصر من مناطق ريفية ومن مدن نائية. وقد فضل الفرنسيون المجندين من الأقليات ومن سكان الأرياف لسبب واضح

5 للمزيد حول هذا الأمر اقرأ بحثنا المنشور في الآداب: العلويون: مسألة طائفية أم اجتماعية: محمد ديبو، عدد خريف 2012، الرابط: <http://adabmag.com/node/512>,

وكذلك: علويو سوريا من العزلة إلى لجنة السلطة، يوسف كتعان، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، 12 أكتوبر 2013، الرابط: <http://drsc-sy.org/%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D98%A%D8%AC%D98%A%D8%A9-%D8%B3%D984%D8%B7%D8%A9-%D8%A7%D984%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D981%D98%A-%D985%D988%D8%A7%D8%AC%D987%D8%A9-%D8%A7/>.

6 لمزيد من المعلومات حول هذا الأمر يمكن مراجعة بحثنا المعنون بـ 'الطائفية كعامل من عوامل النزاع الأهلي' الصادر ضمن كتاب 'عوامل السلم الأهلي والنزاع الأهلي في سوريا' عن مركز 'المجتمع المدني والديمقراطية'، والمتوفر على صفحة المركز في نسخة الكترونية.

هو أن أولئك المجندين كانوا بعيدين جداً عن أيديولوجيا سوريا السياسية السائدة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن 'الوضع الاقتصادي المتردي' في مجتمعات سوريا الريفية والأقلوية جعل الجيش واسطة لحراكها الاجتماعي. وبهذه الطريقة، أصبحت الرتب الأدنى في الجيش، بما فيها رتبة صف ضابط، حكرًا على العلويين والدروز وسنة المناطق الريفية. ولما كان العلويون أكبر الأقليات، وربما أفقرها، في البلد، فإنهم كانوا الأكثر عدداً في الجيش. إلا أنه لم يكن لهم تأثير ملموس مدة جيل كامل بعد الاستقلال. فالضباط السنة كانوا ممسكين بنقاط القوة في الجيش خلال الأعوام التالية للاستقلال، ولم يسيطر العلويون على الجيش إلا في الستينيات، بعد أعمال تطهير متتالية جرّدت المراتب العليا في الجيش من الضباط السنة. وكانت الحكومات السورية في تلك الأعوام، كالفرنسيين من قبل، ترى أن العلويين بعيدون جداً عن الصراعات السياسية السورية، وبالتالي حياديون سياسياً⁷.

يعطينا المقطع السابق فكرة واضحة عن أمرين: أولاً، إن تكوين الجيش الطائفي بدأ من مرحلة الانتداب الفرنسي وليس في عهد 'ثورة البعث'. وثانياً إن الحكومات السورية اللاحقة لم تترك العلويين في الجيش لثقتها بهم أو لاعتبارهم مواطنين، بل لأنهم 'حياديون سياسياً' ولا يشكلون خطراً عليهم آنذاك، ولأنه منذ بدايات القرن التاسع عشر، اتخذت الأسر المرموقة في المدن موقفاً عدائياً من المؤسسة العسكرية، التي كانت تلك الأسر تعتبرها مؤسسة دونها، اجتماعياً. وجهدت في ثني أبنائها عن الالتحاق بالجيش، واستخدمت ثرواتها وأنسابها في الحكم للحصول على إعفاءات. وقد استمر هذا الأمر حتى منتصف الثلاثينيات أي عندما تعاضم إمكان حصول سوريا على الاستقلال. وعندها فقط، أخذ بعض الوطنيين يشجع أبناء النخبة المدنية على الانضمام إلى الجيش بالالتحاق بالكلية العسكرية في حمص. ولكن على الرغم من أنه كان هناك زيادة في نسبة عرب المدن السنة الذين أصبحوا ضباطاً بين عامي 1936-1945 (وهي نسبة فاقت نسبة الضباط في فترة 1925-1935)، فإن العلاقة بين سلك الضباط والقادة الوطنيين لم تكن طيبة. فقبل كل شيء، جاء أولئك الضباط من فروع متواضعة لأسر مدنية بارزة أو من الطبقات الوسطى الصاعدة، وكانوا ينظرون بامتنعاض إلى الزعماء المدنيين الأبرز اجتماعياً والأكثر ثراءً ... فالقادة السياسيون السوريون كانوا يحتقرون الجيش ... لا يثقون بسلك الضباط، إذ اتهموه بخدمة الفرنسيين صراحة، أو على الأقل بخدمة المصالح الفرنسية باستنكافه عن النضال الوطني⁸. مما يعطينا فكرة عن حجم العوامل المؤثرة في تركيبة الجيش السوري تاريخياً، والتي يتم اختزالها اليوم في البعد الطائفي، في حين أنها تستوجب دراسة معمقة لوحدها تأخذ دور الانتداب والأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطائفية والأحداث السياسية داخلاً وخارجاً (نكبة فلسطين والنكسة، حرب الثمانينيات وحرب لبنان وحرب الخليج) وتسليح الجيش على يد السوفييات ثم الإيرانيين، وتداخل كل ذلك وتشابكه لفهم سرّ الجيش والمؤسسة العسكرية ودورهما في النظام الذي يعتبره العظم اليوم باستسهال 'علوية سياسية'.

هذا الجهل المعرفي بسوريا، هو ما يدفعنا لهذا البحث، عبر محاولة قراءة: لماذا يلجأ العظم إلى هذه القراءة الطائفية للوضع في سوريا؟ ولم ليس لدى العظم أي كتاب عن سوريا وبنية نظامها وطبيعة مثقفها؟ وهو الذي لم يترك أحداً ينحو من نقده؟ لم تغيب سوريا وطبيعة نظامها واقتصادها ومشاكلها عن كتبه؟ وهل هذا الغياب له علاقة بهذا الحديث اليوم بحيث يكشف المثقف السوري العريق أن ثقافته عن سوريا ضحلة وضعيفة إلى هذا الحد أم ماذا؟

مثال ثانٍ: إذا كتبنا اليوم على جوجل عبارة قانون الطوارئ في سوريا مرفقة مع أسماء المثقفين السوريين،

7 فيليب خوري، سوريا والانتداب الفرنسي - سياسة القومية العربية 1920-1945، ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى - بيروت 1997، ص: 694-693.

8 المصدر السابق، ص: 693.

سيعطينا خيار البحث أن الغالبية تفرق بين حكم البعث وقانون الطوارئ من جهة، وبين الاستبداد والحقبة الأسدية من جهة ثانية، وكأن الاستبداد لم يكن قبل الأسد، في حين أن حقبة الأسد في حقيقة الأمر هي التتويج الفعلي لمرحلة المد الثوري الشعبي، أو أصنص المرحلة التاريخية من عمر سوريا والتي بدأت مع انقلاب حسني الزعيم عام 1949، ففي مقال له يقول عبد الرزاق عيد: "علينا أن نحدد إشكالية مقاربتنا الحوارية هذه في صيغة التساؤل عن حقيقة المحنة التي يعيشها المجتمع السوري مع نظامه العصوي التسلطي: هل هي أزمة بنية حقوقية قانونية فرضت على سوريا مع قانون الطوارئ الذي ولد منتهكاً بذاته في لحظة إعلانه، إذ أعلنه ما سمي بمجلس قيادة الثورة عام 1963 المشكل من قبل الضباط الانقلابيين، في حين يشترط قانون الطوارئ لإعلان حالة الطوارئ أن يصدر مرسوم عن مجلس الوزراء المنعقد برئاسة رئيس الجمهورية، ثم ينبغي عرضها على مجلس النواب في أول اجتماع له، وهو ما لم يحصل حتى الآن ... الأساس الذي يمكن أن يفسر النسق الداخلي الاستبدادي للنظام خلال عقود التسلطية الأسدية، يمكن أن نجد لها أصولها البعثية ليس في قانون الطوارئ الذي بدأ مع الانقلاب البعثي فحسب، بل بالمرسوم الذي يشرع قانونياً لإطلاق يد سلطة المخابرات لاحقاً، إذ صدر المرسوم رقم 14 لعام 1969 أي في زمن البعث ما قبل الأسدي، فنصت مادته 16 على حماية العاملين في أمن الدولة من الملاحقة القضائية إذا ارتكبوا جرماً، وهكذا تبدأ لحظة انحسار دور القانون لصالح أجهزة الأمن ... هذا القانون البعثي سيكتسب خصوصيته الأسدية من خلال عملية الترييف والتطيف التي بدأها الأسد من خلال اللجنة العسكرية في الستينيات وحسمها في السبعينيات في الاستيلاء على مصادر قوة النظام العسكرية والأمنية، حيث ستأسس منظومة ما تسميه حنة أرندت 'الاعتباطية المقيدة' المميزة للنظم الشمولية، بنكهة محلية سورية أسدية ذات عصبية طائفية لاحمة للتسلطية الاحتكارية الفتوية للمجتمع على حساب اللحمة الاجتماعية الوطنية التي كان ينجزها المجتمع السوري على طريق اندماجه في صيغة الدولة الوطنية خلال نصف قرن منذ 1920، ليبدأ نصف قرن مضاد منذ 1970 حتى اليوم على طريق التكسير الداخلي الممنهج والمنتظم لبنية سيروية بناء الدولة الوطنية، وذلك لصالح قيام الدولة الأمنية - العسكرية الفتوية الطائفية ذات الصخب الأيديولوجي الشعاري القومي الذي يموه حالة التفتيت الداخلي، حيث دولة من هذا النوع لا يمكن إلا وأن تنحل إلى عصابة كما هو مآلها اليوم، بما يجعل من قانون الطوارئ حكاية قديمة!"⁽⁹⁾.

ويقول الكاتب رضوان زيادة: "لقد لعب المسجد بكل تأكيد دوراً محورياً بخاصة في مراكز المدن الرئيسية في استخدامه كنقطة بدء للتظاهرات أكثر من كونه موجهاً لها، فتطبيق قانون الطوارئ في سوريا لمدة تزيد عن 47 سنة لم يؤدّ فقط إلى حظر التظاهرات والتجمعات وإنما قضى على التقاليد الضرورية لتمرين الشباب على الخروج والتظاهر من أجل المطالبة بحقوقهم"⁽¹⁰⁾.

ويقول الكاتب ياسين الحاج صالح: "حالة الطوارئ التي تعيشها سوريا منذ 48 عاماً، زادت من تغلغل سلطة النخبة الحاكمة في كل مناحي الحياة العامة والخاصة للشعب السوري، ولم يعد هناك من رادع للنظام من استغلال هذه السلطة في إهانة هذا الشعب"⁽¹¹⁾.

الأمثلة السابقة وأغلب كتابات المثقفين السوريين عموماً، تقول أن قانون الطوارئ قُرض مع مجيء البعث إلى

9 عبد الرزاق عيد، هل محنة الحراك الديمقراطي السوري هي في قانون الطوارئ؟، موقع الحوار المتمدن، العدد: 2889 - 2010 / 1 / 15، الرابط:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=199457>

10 من يقف وراء الاحتجاجات في سوريا، رضوان زيادة، الحياة، الأحد، 21 أغسطس 2011، الرابط على موقع إيلاف:

<http://www.elaph.com/Web/NewsPapers/2011.html.677363/8>

11 سجين دمشق، ياسين الحاج صالح، نيويورك تايمز، نقلته الشرق الأوسط بتاريخ الأربعاء 13 إبريل 2011، العدد 11824، الرابط:

<http://www.aawsat.com/leader.asp?section=3&issuenuo=11824&article=617058#.UyHX2PmSynQ>

السلطة، وبطريقة تظهر في كثير من الأحيان، بأن الحكم قبل البعث كان 'ديمقراطياً' إذ كثيراً ما يتم الاستشهاد بفترة الحكم البرلماني 'الديمقراطي' في الخمسينيات على أنها 'واحة' الديمقراطية السورية، في حين أن الأمر ليس كذلك أبداً، فلنقرأ ما يقوله المناضل نبيل شويري الذي عاصر تلك المرحلة بتفاصيلها الصاخبة: "المشكلة الأساس في سوريا هي في القوانين الاستثنائية وفي مقدمتها قانون الطوارئ، الذي كثيراً ما يخطئون في تاريخه، وهو على زعمهم يوم الثامن من آذار 1963. والحال أنه بدأ في العهد الاستقلالي مع بداية حرب فلسطين العام 1948. وأول حاكم عربي في سوريا كان جميل مردم ثم حسني الزعيم ثم أديب الشيشكلي ثم جمال عبد الناصر ثم طبق أي قانون الطوارئ- في العهد المدعو بالانفصال، ولم يرفع إلا في فترات محدودة هي فترات الحكم البرلماني 1949-1951، و 1954-1958، وفي أشهر معدودات من صيف 1962 إلى 8 آذار 1963. وإذا توخينا جوهر المسألة الذي هو حكم الاستبداد العسكري فعمره في بلادنا يحسب بمئات السنين. ونعود فنقول إن الظن في أن المسألة أو العقدة الأساسية في وجه الديمقراطية هي في إصرار الحكم الاستبدادي المخابراتي الفاسد على إبقاء قانون الطوارئ وغيره في وجه المعارضة ولا سيما معارضة الإخوان المسلمين ... إن الذي يظن بأن حل هذه المشكلة، مشكلة قانون الطوارئ سيؤدي إلى مصالحة اجتماعية-سياسية تسمح باستئناف الحياة السياسية الطبيعية وتعيد الديمقراطية، هو بالضبط كمن يرى رأس جبل الجليد العائم ويتغافل عن أربعة أخماسه المغمورة، ومعروف مصير القبطان وركاب الباخرة في مثل هذه الحال. إن المهمة الأساسية التي يجب أن ينجزها المثقفون التقدميون هي فتح الملفات المانعة للديمقراطية وفي مقدمتها تلك الاجتهادات الفقهية التي تستبيح أموال وأعراض ودماء مسلمين يدينون بمذاهب غير المذاهب الأربعة المعترف بها والخامس المقبول على مضض"⁽¹²⁾. وهذا يعطينا فكرة عن جهل المثقف من جهة و التوظيف السياسي أو الأيديولوجي للمثقف السوري لمعرفته بهدف 'دحر الاستبداد' بشكل سياسي رغبوي، فيكون بذلك يساهم في بقاء الاستبداد رغم نواياه النبيلة، لأن 'معارفه' هذه، أو توظيفه السياسي هذا، أو قراءته الرغبوية هذه، ستنتج وعياً زائفاً بهذا النظام وبنيته، وبالتالي وعياً زائفاً بطرق إسقاطه، وهو ما نحصد ثمنه في سوريا اليوم.

مثال ثالث: في أغلب كتابات المثقفين السوريين، سنلمح عبارات من نوع إطلاقي مفادها أن حافظ الأسد هيمن على البعث، أو أن اللجنة العسكرية 'العلوية' هي من هيمن على البعث وحوله إلى مجرد أداة بيد السلطة، وهو أمر صحيح في حقيقة الأمر، إلا أنه يتغافل عن الإطار التاريخي الذي ولد فيه هذا الأمر، أي من خلال قراءة تجربة البعث كلها وتجارب كل الأشخاص الذين تعاقبوا عليها، منذ بدايتها حتى اليوم في سوريا، إذ لم يكن الأسد أول من فعل ذلك بل هو فضاء عام دمج أغلب التجارب الحزبية في سوريا، ومن يقرأ مذكرات المسؤولين والسياسيين وقادة الأحزاب والمناضلين الذين كتبوا عن هذه الفترة يدرك حجم الدسائس والتقلبات السياسية التي يختصرها 'مثقفو اليوم' بفترة حافظ الأسد وابنه دون أن يعني الأمر تبرة الآخرين، الذين جاء حكمهما تتويجاً لكل ما سبق، إلا أن قراءة الأمر خارج السياق التاريخي يشكل معرفة مبتورة تركز على الشخص بدل النظام أو الأخير بدل الفضاء العام الذي ولد في سياقه النظام بدءاً من تكون سوريا حتى اليوم.

ويكفي أن نسرد المثلث التالي، وأيضاً من مذكرات نبيل شويري لنفهم: "وبسبب نزاعه مع عبد الناصر قرر عفلق أن يدير الحزب 'على كيفو'. فراح يرتب المؤتمرات منفرداً: مؤتمر للأردن ومؤتمر للعراق ومؤتمر للبنان، ويعين قيادات حزبية لهذه الأقطار. وكان من نتائج ذلك خروج قيادة الأردن بزعامة عبد الله الرماوي، وقيادة العراق بزعامة فؤاد الركابي. لقد كان عفلق يرغب بهذه التصرفات في مقارعة عبد الناصر وأكرم الحوراني، فركب موجة

12 صقر أبو فخر، سوريا وحطام المراكب المبعثرة، حوار مع نبيل شويري: عفلق والبعث والمؤامرات والعسكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2005، ص: 14-15.

الوحدوية في عهد الانفصال وأشاع أن أكرم الحوراني انفصالي. ثم ارتكب الجريمة الكبرى بحق حزب البعث في أيار 1962 عندما عقد المؤتمر القومي الخامس، وتمكن من فصل أكرم الحوراني من الحزب. لكن الحوراني بعدما خاب أمله في الحزب حاول أن يعيد تجربة الديمقراطية إلى سوريا، فأدار ظهره للحزب وأسس حركة سياسية جديدة⁽¹³⁾. ما يعني أن تصرفات اللجنة العسكرية ليست تجربة منعزلة عن الحزب كله، بل ثمة فضاء عام ترعرعت فيه، وعليه لا يمكن فهم تجربة البعث في السلطة دون قراءة هذا السياق التاريخي ونقده كله، بعيداً عن التوظيف السياسي الضيق الذي يتوجه للسلطة الحالية بعيداً عن جذورها، والذي هو نتاج يأس طبع الثقافة العربية منذ نصف قرن على الأقل.

إن إطلالة متفحصة ونقدية على ما كتبه المثقف العربي والسوري منذ ثمانينيات القرن الماضي، ستضعنا أمام هول اليأس والخيبة التي كانت تسيطر على أذهان المثقفين. هذا ما نلمحه بوضوح في كتابات المشاركين في ندوة نظمها 'مركز دراسات الوحدة العربية' في عام 2003، إذ سنلمح تلك الخيبة في كل الأبحاث المكتوبة، حيث يقول محمود أمين العالم في بحث حمل عنوان 'المشهد الفكري والثقافي العربي': "إن الأمر بالنسبة لأمتنا العربية يبدو بائساً في هذه المرحلة الراهنة الآتية ... حقاً، إن واقعنا العربي الراهن سواء على مستوى الأنظمة العربية، أو على المستوى الشعبي واقع واقع!" داعياً لسلطة الثقافة التي "يبنها المثقفون الواعون من مختلف قوى الإنتاج والإبداع والمعرفة ومنظمات المجتمع المدني"⁽¹⁴⁾. ويقول في مكان آخر من البحث: "تسود في المجتمعات الراهنة في نهاية القرن العشرين وبدايات هذا القرن الحادي والعشرين، ثقافة ثنائية ملتبسة غير متوازنة، فضلاً عن هشاشة وسطحية بنيتها المعنوية والمادية على السواء، فلا القديم التراثي الذاتي عميق الجذور في تأصيله المعرفي والقيمي والوجداني ... ولا الفاعل الخارجي له أسسه وركائزه الراسخة المستتبعة النابعة في الوقت نفسه من الإبداع المجتمعي الذاتي"⁽¹⁵⁾.

هذا اليأس الذي طغى على المثقفين ناجم في حقيقة الأمر من فقدان القدرة على التغيير، وهو ما سنلمحه في الابتعاد عن الشأن العام بتفاصيله اليومية، إذ منذ خروج السلطة منتصرة في سوريا في ثمانيات القرن الماضي سيخمد الصوت العام للمثقف وتغيب شؤون الحياة العامة عن كتابته⁽¹⁶⁾، تحت ضغط السلطة التي صخرت المجتمع وعممت خروج السياسة منه، قاتلة المجتمع السياسي والمدني الذين انسحب منهما المثقف، ليختفي المثقف العضوي 'بلغة غرامشي' أو 'الثوري' بلغة تلك المرحلة، لصالح 'المثقف التقني' المنزوي في إطار اختصاصه. وضمن هذا السياق سيغيب مفهوم 'الثورة' الذي كان حاضراً طيلة خمسينيات وستينيات وسبعينيات وحتى ثمانينيات القرن الماضي عن كتابات المثقفين، لأن 'التنظيم الثوري' بغض النظر عن رأبي فيه، استمر طويلاً من دون ثورات، وفقد مكانته في الرأي العام وفي الشارع لأسباب عديدة، حتى بات لفظ ثورة لفظاً مثيراً للسخرية، إذ إن فشل الشيوعية في أوروبا، واستهلاك هذه الكلمة في الانقلابات العسكرية وبعض حركات التحرر التي تحولت إلى دكتاتوريات، لم يفقد كلمة ثورة بريقها فحسب، بل أفقدها مضمونها أيضاً، وتحولت إلى مفردة ميتة في خزانة اللغة الحزبية⁽¹⁷⁾. وسنعود لاحقاً لمناقشة أسباب ذلك، ليتراجع بعدها انشغال المثقف بالشأن العام، إلا بشكل سطحي وعرضي ووفق ما تسمح به سلطات الأمر الواقع، حيث ستظهر على السطح مقولات مثل 'الإصلاح'

13 المصدر السابق، ص: 104-105.

14 الثقافة العربية: أسئلة التطور والمستقبل، ندوة فكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2003، ص: 22-23.

15 المصدر السابق، ص: 15.

16 قد تكون آخر صرخة جمعية للمثقفين السوريين بوجه السلطة كانت خلال لقاء المثقفين مع أعضاء مجلس الشعب حيث كان حاضراً ميشال كيلو

والشاعر الراحل ممدوح عدوان حين قال أن السلطة تكذب حتى في نشرة الطقس.

17 عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية الفصلية، العدد 44-المجلد الأول-ربيع 2013، ص: 139.

و'التغيير السلمي الهادئ' و'التداول السلمي للسلطة' و'المجتمع المدني' و'النهضة' و'الديمقراطية' وهي التي بقيت رائجة حتى انفجار الربيع العربي ليعود مصطلح الثورة والانتفاضة إلى التداول، ويفاجأ بهما المثقف قبل غيره، فهي مقولات كان نفسها من قواميس معرفته التي علا عليها غبار اليأس والهزيمة. ليس على المستوى العام فحسب، بل على المستوى المعرفي أيضاً، إذ ليس عيباً أن لا ينتبأ المثقف بالمستقبل ويكون قادراً على الإحاطة به، بل العيب يكمن في عدم قراءة الواقع وفهمه والتخلي عن الكتابة عن أوضاعه وتقديم بيانات وأرقام ومعارف حول طبيعة السلطة ووضع البلد وتركيبته السياسية والاقتصادية، فلو كان هذا منجزاً لكان ساهم في فهم ما يحصل اليوم، ولربما قدّم ذخيرة معرفية يستند إليها الثوار والمتظاهرون والسياسيون في فهم ما يحصل، ولأن هؤلاء استندوا في قراءتهم للسلطة وبنيتها وعنفها إلى المتوافر من هذه المعرفة التي قدمها هؤلاء المثقفون رغم كل عيوبها فأنتجت ما أنتجت من ثورة هي ابنة وعي هذا الشعب، وهي انعكاس في أحد أبعادها لغياب هذا الوعي الذي يعتبر شرطاً أساسياً لنجاح أي ثورة دون أن يكون كافياً، لأن الثوار في نهاية المطاف هم "نتاج الثقافة والاجتماع والاقتصاد في ظل نظام الحكم القائم. إنهم نتاج قيمه السائدة. وأنظمة الاستبداد الفاسدة التي تحكم فترات طويلة تفسد المجتمعات. والثوار هم نتاج تلك المجتمعات، وهم أيضاً نتاج تحدي النظام. ولكن التحدي بالنفي لا يعني بالضرورة نشوء أخلاق وقيم جديدة. ويكمن دور المثقف العمومي في نقد الثقافة والقيم السائدة والنااتجة من هيمنة ثقافة الاستبداد، وفي التثقيف على قيم الثورة كتحرر من الاستبداد"⁽¹⁸⁾ مما يعني أنه ليس صحيحاً الوعي الشعبي السائد اليوم أن هذه الثورات ولدت دون مثقفين، بل هي نتاج "صيرورة ثقافية طويلة ساهم فيها المثقفون الديمقراطيون، وساهمت في تبلور هذه الثورات ونشوء خطابها المميز. وإن فئات قارئة ومطلعة كانت في صلب هذه الثورات، ولا سيما في أوساط جيل الشباب المثقف الذي تأثر بتجارب علمية وبقراءة مثقفين نقديين محليين وعرب والاستماع إليهم، خصوصاً مع ظهور معرض الكتب، والكتب المنشورة على الإنترنت، وكسر احتكار المعارف والتحكم فيها، وخرق جميع أشكال الرقابة السلطوية التقليدية جرّاء ثورة الاتصالات ووسائل الإعلام الإخبارية الفضائية"⁽¹⁹⁾. وهذا ينطبق على سوريا التي كانت ثورتها في آذار 2011 نتاج نضال طويل الأمد دفع ثمنه الآلاف من المثقفين الثوريين والسياسيين والمناضلين سنوات من عمرهم في السجون، وقد أخذت تجليها الأبرز في مرحلتي ربيع دمشق وإعلان دمشق، إلا أن الوعي الذي كان يحكم أفق هذه الطبقة المحرصة على التغيير هو وعي محدود وعاجز، بعضها لأسباب بنيوية وبعضها الآخر لأسباب واقعية تتجلى بالعلاقة بين المثقف والسلطة في واقع مضطرب، وبطبيعة المعرفة المنتجة من قبل هذا المثقف وقصورها.

المقولات التي راجت في أفكار المثقفين لم تكن نتاج تأصيل وتراكم معرفيين، بقدر ما هي نتاج هزيمة وبأس أدى لتعلق المثقف بشكل سحري أيديولوجي بكل ما هو برّاق دون أن يسنده بتأصيل معرفي يتجادل مع الواقع لينتج معرفته استناداً لهذا الواقع وما يحتمل، بل هو نتاج أفكار متناقلة من كتاب إلى كتاب دون أن يكون للواقع أي صدى، مع استثناءات قليلة جداً وعلى مستوى السطح، يمكن أن نلمسها في كتابات طيب تيزيني عن الدولة الأمنية السورية وفي كتابه 'من ثلاثية الفساد إلى المجتمع المدني' وكذلك في كتابي 'هرطقات 1 و2' لجورج طرابيشي عن التحذير من خطر الأصوليات الكامنة في المجتمع دون أن تغطي تشريح الاستبداد الذي يشكل الأساس المنتج لهذه الأصوليات.

ولكي يزيد الأمر وضوحاً، لن نعثر في المكتبة السورية كلها في حدود علمي على كتاب فكري/معرفي/علمي واحد يشرح طبيعة الاستبداد والسلطة السورية لمثقف سوري، أو حتى كتاب سياسي، قبل عام 2000، في حين

18 المصدر السابق، ص: 141.

19 المصدر السابق، ص: 139.

لامس الأدب والسينما الموضوع بحدود المزاوغة والمكر والروائي وأحياناً بشكل صريح⁽²⁰⁾. إن سرداً لعناوين أهم المثقفين والمفكرين السوريين ستجعلنا نشعر بالخيبة، إذ لن نعثر على كتاب واحد عن سوريا إلا بعد عام 2000 وفي استثناءات قليلة لمثقفين أتوا من السجون أو من السياسة مثل ياسين الحاج صالح في كتابه 'سوريا من الظل: نظرات داخل الصندوق الأسود' وهو مجموعة مقالات أكثر منه كتاب، في حين سنجد أن أغلب الكتب ذات المرجعية حول سوريا والتي تتحدث عن طبيعة النظام السوري والمجتمع السوري والاقتصاد السوري هي لكتاب غربيين أمثال سيل، وفان دام، وهينبوش وغيرهم، مع وجود 'شذرات' لسوريين وعرب هنا وهناك مثل أبحاث الدكتور عارف دليلة الاقتصادية وكتابات طيب تيزيني عن الدولة الأمنية، ومقالات وكتب عبد الرزاق عيد ورضوان زيادة وبرهان غليون وغيرهم.

إن المفكر صادق جلال العظم الذي اكتشف 'العلوية السياسية' اليوم لن نعثر في كتبه على كتاب واحد عن سوريا، وهو الذي لم يترك أحداً في العالم العربي من شرقه حتى غربه إلا وانتقده، بدءاً من الفكر الديني وإبليس والهزيمة و'الحقبة السعودية' والثورة الفلسطينية وناقدي سلمان رشدي والإسلاميون في حين تغيب سوريا عن كتبه وهو السوري العريق بامتياز. وكذلك الأمر بالنسبة للمفكر برهان غليون وإن بدرجة أقل حيث سنجد اهتماماً لافتاً لغليون بالشأن العام والانخراط في حركة المجتمع المدني والمعارضة السورية بشكل فعال وسيكتب الكثير من المقالات عن سوريا، إلا أن هذا الجهد لن يتطور ليخدم كتاباً متكاملًا عن سوريا، وكذلك الأمر بالنسبة لأغلب المفكرين السوريين من جورج طرابيشي وحتى جمال باروت الذي يعتبر استثناءً هنا كونه قدم مشروع استشراف سوريا الذي عمل عليه طويلاً، وقدم في حقيقة الأمر نموذجاً لعمل معرفي متكامل في إنتاج المعرفة بالسلطة وآلياتها والمجتمع وطبيعته من خلال الاعتماد على الرقم ومعرفة الواقع في تفاصيله المتعرجة لا الاكتفاء بالكتب كما فعل الكثير من المثقفين وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً. ولكن رغم ذلك فإن كتب باروت لم تظهر إلا بعد عام 2000 أيضاً!

على ضفاف هذا الغياب ثمة كتب عاجلة أو شذرات عبر مقالات أو أبحاث غير مكتملة، يمكن الإشارة إليها بسرعة، وكلها صدرت بعد عام 2000، منها كتيب 'سوريا: زهرة أم قنبلة' لمحمد كامل الخطيب و'يحدثونك عن المجتمع المدني' لعبد الرزاق عيد و'المثقف ضد السلطة' لرضوان زيادة وغيرها من الأبحاث التي تناولت المجتمع المدني بعد إخفاق حركته نتيجة وأد السلطة له. إلا أن هذه الأخيرة المتعلقة بالمجتمع المدني على الأقل، هي رد فعل على حدث جرى أكثر مما هي تأصيل لمفهوم المجتمع المدني السوري ودراسة عميقة له.

هنا سنجد غياباً للمثقف السوري عن الشأن العام السوري بمعناه المباشر منذ عام 1980 وحتى عام 2000 حيث أطلقت السلطة مشروع إصلاح شكلي للتغطية على التوريث وفتحت الفضاء العام أمام المثقف الذي انخرط في عملية التغيير وبدأ يتقدم باتجاه ساحة الرأي العام المقصى عنها. وبفعل غيابه المديد عن المجتمع تقدم بشكل يحكمه السحر والرغبة بالتغيير أكثر مما تحكمه المعرفة بحدود الواقع، إذ كان إيمانه بالحرية والمجتمع المدني سحرياً/غيبياً أقرب للحلم منه إلى الواقع وهذا ليس عيباً بقدر ما هو توصيف واقع، لأن كل تغيير يبدأ كحلم ورغبة، إلا أن المشكلة تكمن في استسهال الحلم والرغبة والتفوق داخلهما بدلاً من مقارعة الواقع والغوص في تفاصيله، وأحشائه. وهذا ما أصاب حركة المجتمع المدني التي ظلت في حدود السحر والرغبة بالتغيير أكثر من العمل على التغيير عبر فتح منافذ المعرفة على الواقع بدلاً من الكتب لإنتاج معرفة تحيط بالوضع العام والسلطة والمجتمع لفهم طبيعة المستبد وأدواته وطبيعة المجتمع ومدى قدرته على تقبل التغيير السياسي والاجتماعي

20 من الروايات التي عالجت الاستبداد: 'سمر الليالي' لنبييل سليمان و 'حراس الهواء' و 'نيغاتيف' لروزا ياسين حسن و 'صلصال' لسمر يزبك و 'هواء ثقيل' فاطر لعمر قدور. و 'مديح الكراهية' لخالد خليفة.

وحدود هذا القبول، أي أن المعرفة بقيت بحدود التوق للحرية والرغبة بالتغيير أكثر مما هي معرفة بهما. ولعل ضمور حركة المجتمع المدني وتوقف نتاجها الثقافي بعد حملة الاعتقالات، يعكس جانباً من الأمر، فهي بدأت من خارج المثقف بما بات يعرف في سوريا بخطاب القسم، وانتهت باعتقالات السلطة، ليرضخ الجميع إلا البعض الذين حملوا رسالة التغيير فكانوا 'مناضلين' أكثر مما هم مثقفين، ليعكس هذا الأمر مدى ضعف تربة الثقافة والنضال السوري أيضاً وما فعلته تجربة الثمانينيات، وهو ما جعل مناضلاً مثل نبيل شويري يعلّق على تجربة ربيع دمشق والمجتمع المدني - رغم أنه يقصد السياسيين إلا أن كلامه ينطبق على المثقفين الذين كانوا في صلب هذه الحركة أيضاً - بالقول: "إنه مجرد موضة. أقول هذا لأنني أعرف بعض المنخرطين في هذا التيار، حتى أنني أعرف أسرارهم. وما أخشاه أن ينطبق عليهم تعليق أحد ظرفاء بيروت على إحدى المجموعات السياسية، فقد قال: إن ثقافتهم شهادة، وطموحهم وظيفة، وفضائلهم رذائل مؤجلة ... إذا كان هؤلاء يطالبون الحكم السوري بالانفتاح أكثر على الديمقراطية وبالسماح بتأسيس مجتمع مدني فجواني من شقين: أولاً، المجتمع المدني يصنع ولا يطالب به. ومن المحال أن يوجد حكم يمنحه أو يقدر على منع قيامه. ثانياً، المدخل إلى الديمقراطية هو النقاش مع السلطة. أي أن تمسك خطاب القسم للرئيس بشار الأسد وتقرأ الفقرة التي تحدثت عن هذا الموضوع ثم تفتتح النقاش معه ومع السلطة في هذا الشأن ... ليؤسسوا جريدة حائط، أو يصدروا جريدة لهم. زكي الأرسوزي في الإسكندرون بدأ بجريدة مخطوطة. ليعملوا مثل جريدة 'الكلب' التي أصدرها صدقي إسماعيل"⁽²¹⁾.

لا يعني ما سبق أن الثقافة السورية بين عامي 1980-2000 كانت ضامرة بالمطلق، فقد سجل بعض المفكرين والاقتصاديين بصمات واضحة في مقارعة المستبد وإنتاج معرفة تشير إلى المستبد بوضوح وبشكل معرفي علمي رصين بعيداً عن الأيديولوجية التي تركز عادة على رجم الاستبداد وتشريه وأبلسه أكثر مما تقدم معرفة به. فقد واجه المفكر الاقتصادي عارف دليلة قوانين السلطة الاقتصادية وبين محدوديتها وأضرارها ودفع ثمن ذلك سنوات من عمره في المعتقل، حيث هاجم قوانين السلطة الاقتصادية عام 1990 وطرد من جامعة دمشق على إثرها، ليعود إلى عمله في الجامعة بقرار من الرئيس الأسد على إثر ربيع دمشق، إلا أنه سرعان ما تبين للسلطة عجزها عن احتوائه فكان اعتقاله بعد إجهاض ربيع دمشق بحكم عشر سنوات أعفي من ربع مدتها. إلا أن مثال دليلة يبقى استثناءً والشمعة التي تنير الظلام، في حين أن التاريخ لا يسير إلا حين تتلقف الجماهير هذه الشموع. ما سبق يعطينا فكرة واضحة عن أن ثمة غياباً واضحاً لسوريا ونظامها وطبيعتها واقتصادها واجتماعها وطبقاتها عن مادة المثقف إلا ما ندر، وحتى هذا النادر إن وجد فهو يعاني نقصاً معرفياً يجعلنا نطرح أسئلة كثيرة حول أسبابه، تبدأ من البحث عن أسباب هذا الغياب ولا تنتهي عند سبب عدم خوض المثقف في هذه الأمور، وعما إذا كانت هذه الأدوار ليست أساساً من دور المثقف، وبالتالي هناك تحوّل في مفهوم المثقف ووظيفته؟

إن رؤية كيفية انخراط المثقف السوري بالثورة والتنظير لها بعد الربيع العربي يؤكد أن المثقف يعي دوره في هذا الشأن، فلم غاب عنه سابقاً وانتظر الربيع ليعبده إليه؟ وهل هذه العودة إلى مفاهيم 'الثورة' و'الانتفاضة' وهي التي غابت طويلاً عنه هي عودة معرفية أم سحرية تعلي من شأن الأيديولوجيا على حساب المعرفة، وبالتالي لا زال المثقف يكرر عجزه مرة أخرى في بيع الوهم؟ وهل هذه العودة إلى الشأن العام بعد عام 2000 هي عودة معرفية تقطع مع الأيديولوجيا أم أنها بقيت مشدودة إلى هذه الأيديولوجيا؟ أم بين بين؟

21 صقر أبو فخر، سوريا وحطام المراكب المبعثرة، حوار مع نبيل شويري: عقل والبعث والمؤامرات والعسكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2005، ص: 461-462-463.

الفضاء العام الذي ولد فيه المثقف السوري، ومحطات تحوله:

لم يتخطى المثقف السوري حتى اليوم، الأنماط الأولى أو الأطوار الأولى للمثقف، فإذا كان المثقف العمومي النقدي المشغول بالهم العام والمستقل عن كل سلطة (حزبية، سياسية، اقتصادية، أيديولوجية، معارضة، ثورة) هو نتيجة كل الأطوار التي مرّ فيها تاريخ المثقف عالمياً، سواء في علاقته مع المعرفة وإنجازها أو السلطة، فإن المثقف السوري قد يكون لازال رازحاً في هذا الماضي الذي يجعل منه 'مثقف أيديولوجياً' أو 'مثقف ثورة' أو 'مثقف شعبي' أو 'مثقف مختص' أو 'مثقف نقدي' أو 'مثقف سلطة' (22)، أكثر مما هو 'مثقف' دون تبعية لأي شيء آخر (سلطة، ثورة، أيديولوجيا) إلا ما تنتجه معرفته العلمية الإستمولوجية حتى لو كانت نتيجتها عكس ما يرتجي ويتبغي ويتمنى، ولكن شرط الانتماء للناس والمُسحوقين والمهانين، أي أن تكون معرفته في خدمة الإنسانية جمعاء وليس مجرد وطنية أو قومية ضيقة دون أن يكون العيب في الأخيرتين بل في تعصّبهما أو تعصب المثقف لهما، لأن انتماء المثقف لهؤلاء هو ما يحدد جوهر معناه المرتبط بإنارة الطريق لهم وخلق البدائل، دون أن يكون تابعاً لهم أو أسيراً لأفكارهم، بل يقتضي الأمر بالضرورة الصراع مع 'أفكارهم' وهزها لأن أفكاره بالضرورة تقوم على دفعهم نحو التغيير عبر هز أسس قناعاتهم التي ولدت بيئة حاضنة للاستبداد، دون أن "تغرق في رومانسية تجعل الثوار أولياء وقديسين، وهم ليسوا كذلك، فهم يخرجون إلى الثورة لحظة الإرادة الحرة تلك، وهم نتاج الثقافة والاجتماع والاقتصاد في ظل نظام الحكم القائم. إنهم نتاج قيمه السائدة" (23).

فهل هذا ما فعله المثقف السوري اليوم، أم أنه احتفى بثقافة الجمهور السائدة ليحصد شعبية زائفة ويضل جمهوره الذي لم تتغير ثقافته التي كانت بالأمس مؤيدة للاستبداد فأصبحت اليوم فجأة ضد الاستبداد نتيجة ظروف كثيرة دون أن تلامس أسس الثقافة المنتجة للاستبداد في أذهانهم؟!

إنّ أيّ قراءة تاريخية للمثقف السوري ودوره ضمن الفضاء العام الذي ولد به، منذ تشكل سوريا بشكلها الحديث بين عامي 1920-1936 ستعطينا فكرة عن الأنماط التي مرّ فيها مفهوم المثقف الذي كان يحتكره أو يقوم بدوره سابقاً رجال الدين وأعيان المدن والقرى لامتلاكهم الكتابة والقراءة، ليبدأ مع انتشار التعليم تدريجياً ينتقل مركز الثقل من هؤلاء إلى المتعلمين الجدد (أطباء، مهندسين، حقوقيين، معلمين) حيث ارتبط بداية اسم المثقف بكل من هو متعلم، مع استحواد 'المدرس' على القيمة الأكثر ارتباطاً بمفهوم المثقف كونه كان يقوم بدور تعليم الناس مبادئ الكتابة والقراءة في مجتمع شبه أمي، لنكون أمام أول بذرة لولادة مفهوم المثقف المرتبط بتنوير الناس وإخراجهم من 'الجهل إلى النور' وفق نمط 'المثقف المتعلّم' هذا، والذي استحوذ آنذاك على القيمة الرمزية للمثقف، حيث كان ينظر لهؤلاء باحترام كبير في المجتمع كنخبة (24).

تزامن انتشار وتوسع حركة التعليم مع انتشار الأحزاب السياسية ليبدأ تدريجياً يولد 'المثقف الأيديولوجي' أو 'الطليعي' الذي يحمل همّ التغيير وقلب الأوضاع السائدة إنما لصالح أيديولوجيا/حزب يرى أنها تحقق الرفاه المنشود، لينتقل مفهوم المثقف أو يتطور من تعليم الناس القراءة والكتابة وإخراجهم من الجهل والنور إلى

22 السلطة هنا لا تأخذ معنى السلطة السياسية فقط بل المعارضة سلطة أيضاً، أي من الممكن أن يكون المثقف معارضا ولكن فكره مرهون لهذه المعارضة وفي سبيلها أكثر مما هو مرهون للمعرفة وهذا نقص أو خطأ في إنتاج المعرفة.

23 عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية الفصلية، العدد 4 - المجلد الأول-ربيع 2013، ص: 141.

24 لن نتحدث هنا عن مثقفين ومفكرين ورجال دين مثل عبد الرحمن الكواكبي ومحمد كرد علي وشكيب أرسلان و عبد الرحمن الشهبندر وغيرهم، لأنهم أنتجوا ثقافتهم ومارسوا دورهم التنويري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولم تكن سوريا قد تشكلت بعد. ويمكن اعتبار أنهم ولدوا في الفضاء العثماني/ العربي، أي في تلك المرحلة الانتقالية التي كان فيها العرب ممزقين بين الرابطين العربية والعثمانية في مرحلة أولى، وبين سوريا الكبرى أو القبول بسوريا الصغرى في مرحلة ثانية دون أن ينفي الأمر عنهم صفة المثقف المهوم بهموم شعبه وتطلعاته، ولكنه خارج دائرة اهتمامنا المتركة على سوريا في هذا البحث.

تغيير أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية عبر فكرة الثورة أو الحزب أو الطليعة أو النخبة. ولعل أكثر ما يمكن أن يوضح لنا طبيعة هذا الانتقال من مفهوم 'المثقف المتعلم' إلى مفهوم 'المثقف الطليعي/الأيديولوجي' ومدى الترابط بينهما هو أن أغلب مؤسسي الأحزاب السياسية السورية كانوا مدرسين أساساً أو مارسوا التدريس خلال فترة من حياتهم (عفلق، البيطار، الأرسوزي، ياسين الحافظ ...)، إذ يقول نبيل شويري: "كان عفلق والبيطار يعطيان دروساً خصوصية. البيطار يعمل في مدرسة دوحة الأدب، وعفلق في إحدى المدارس، وذلك في خمسينات القرن الماضي"⁽²⁵⁾. حيث جمعوا بين المهمتين ليخفف بعدها غمط 'المثقف المتعلم'، ويخفف وهجه مع انتشار التعليم وتوسعه لصالح غمط 'المثقف الأيديولوجي/الطليعي' الذي يتماس ويتقاطع مع 'المثقف الثوري' الذي ساد حتى ثمانينيات القرن الماضي، حيث أن 'المثقف الثوري' وجد بكثرة عربياً في مرحلة انتشار الأيديولوجيات، ولا سيما اليسار التي عظمّت من لفظ ثورة وثوري، والأيديولوجيات القومية بأنواعها، وحركات العسكر الانقلابية التي كانت تسمى ثورات وتُنشئ مجالس قيادة الثورة. وانسجم التنظير الثوري مع فكر اليسار ومزاج حركات التحرر الوطني في العالم بعد الحرب العالمية الثانية. وقد ترجم العرب أكثر مما أنتجوا 'فكراً ثورياً' يسارياً وعاملاً مثالياً في تلك المرحلة"⁽²⁶⁾.

هنا كانت الرغبة بالتغيير هي الوقود الذي يغذي هذا المثقف بعيداً عن قراءة الواقع وبحث ممكناته أي يمكن القول أنها 'ثقافة من فوق' تحمل فكرة ما/يوتوبيا، حيث كان لكل تيار يوتوبيا: الوحدة بالنسبة للقوميين، والأمية بالنسبة للشيعيين، والوحدة الإسلامية بالنسبة للشيعيين وتعمل على إيجاد مكان لها في الواقع دون بحث ممكنات هذا الواقع واحتمالاته، ولأن 'الأيديولوجيا' هي العليا لدى هذا النمط من المثقف، فإن الأمر سينعكس على اهتماماته، حيث أن هذه الأيديولوجيا تركز على الأفكار الكبرى أكثر مما تركز على الواقع، فتجد هذه الأفكار صداها في شغل المثقف واهتماماته أكثر مما نجد الواقع ذاته.

الأيديولوجيات الكبرى ركزت على مفاهيم الوحدة العربية والقومية العربية وفلسطين والثورة والاشتراكية والرأسمالية والتقدم والتخلف والتنمية وغيرها، ولذا كان 'المثقف الطليعي/الأيديولوجي' منتجاً لتلك المعرفة التي تتماهى مع الأيديولوجيا أكثر من بحثه عن المعرفة كما هي في الواقع، لأن الأيديولوجيا هنا هي حجاب زائف أو معرفة زائفة بالواقع 'دون أن يعني الأمر أن كل أيديولوجيا هي زيف، بل في تحول هذه الأيديولوجيا إلى سحر يحمل التغيير بحد ذاته بعيداً عن الواقع، إذ وضعت مفاهيم وروّجتها على أنها هي من ينتج التغيير ويحقق مصالح الناس، فحلّت الثورة و القومية وفلسطين والاشتراكية والتحول الاشتراكي ككلمات سحرية تحمل بذور التغيير بحد ذاتها كما تفعل اليوم كلمة الديمقراطية التي تستخدم كأيديولوجيا أكثر مما هي معرفة. أي إن غمط المثقف الأيديولوجي/الطليعي أحل 'الأيديولوجيا/السحر' مكان 'المعرفة بالواقع' على اعتبار أن الأولى توصل الجماهير للجنة الموعودة، في حين أن العلاقة 'فكراً وسلوكاً' بين هذا المثقف والقاع تقتصر على الأيديولوجية المفارقة للواقع أساساً. ولعل ذكر المثال التالي يعطينا فكرة عن الأمر: "ميشال عفلق لم يكن يتعاطى الحياة العامة، ولا علاقة له بالناس البتة. علاقته كانت محصورة بأنصاف المثقفين والطلاب والمثقفين النظريين الذين لا يتعاطون العمل العام، وهؤلاء 'أفندية' كما قال عنهم أكرم الحوراني في مذكراته"⁽²⁷⁾.

25 صقر أبو فخر، سوريا وحطام المراكب المبعثرة، حوار مع نبيل شويري: عفلق والبحث والمؤامرات والعسكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2005، ص: 158.

26 عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية الفصلية، العدد 4 - المجلد الأول-ربيع 2013، ص: 138-139.

27 صقر أبو فخر، سوريا وحطام المراكب المبعثرة، حوار مع نبيل شويري: عفلق والبحث والمؤامرات والعسكر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2005، ص: 96.

وفي هذه المرحلة ولدى هذا النمط من المثقفين/المنظرين كان ثمة تزاوج بين العمل الثقافي وممارسة السياسة أو الانتماء لحزب سياسي أو أيديولوجيا، وذلك لصالح الثانية، أي لم تكن الثقافة مستقلة أبداً ولم يكن هناك أي مفهوم حول استقلاليته، بل كانت تمارس بوصفها كذلك، أي دمجاً بين الاثنين، ومن النادر جداً أن نجد 'مثقفاً' تعاطى الشأن العام من موقع استقلاليته عن الحزب أو الأيديولوجيا فهو كان يستمد جوهر وجوده منها لأنها الحاضنة التي ولد فيها، دون أن يعني ذلك أبداً أننا ننفي عن المثقف حقه بالإيمان بأيديولوجيا معينة أو الانتماء لحزب سياسي.

أبداً بل يتوجب أن تكون معرفته خاضعة للمعرفة وحسب وأن تكون أيديولوجيته خاضعة للنقد وما تنتجه معرفته المستقلة لا العكس. ولعل ما يقوله شويري يلقي الضوء على هذا الأمر أيضاً، إذ يقول: "في سنة 1943 أراد عفلق أن يترشح للانتخابات النيابية، وقبيل الانتخابات اجتمع عدد من المثقفين في منزل أحمد الشراياتي لدعم شكري القوتلي ضد زعماء الكتلة الوطنية الآخرين، وأصدروا بياناً باسم مثقفي دمشق وقعه كل من ميشال عفلق وصالح البيطار تأييداً لشكري القوتلي"⁽²⁸⁾، إذ نلمح هنا التداخل بين الحزبي/الأيديولوجي والثقافي ونلمح جزئياً تبعية الثاني للأول، ونلاحظ كيف يدمج شويري بين المثقف والمنظر وقائد الحزب البيطار وعفلق، مما يعطينا فكرة تبقى غائمة عموماً عن التداخل القائم بين الطرفين.

نمط المثقف هذا ولد من رحم الحزب وحركة التحرر العربية التي سادت حتى نكسة حزيران، ليبدأ بعدها وعلى أثر الهزيمة التي عانتها هذه المشاريع الأيديولوجية ولادة ما يمكن أن نسميه 'المثقف الأيديولوجي النقدي' أي المثقف الذي لم يتخل عن أيديولوجيته بل بدأ ينتقدها من الداخل ولم يخرج منها، حيث ستبقى أيديولوجياته الكبرى قائمة وحاجة الواقع مع تغيير وجهة النظر إليها أي نقدها في الجزئيات دون الكليات، دون أن يصل النقد حدود التفكير بالبدهي والمسلم به، وهو ما أدى إلى الصدام بين السلطة والمثقف الأيديولوجي، إذ يقول بشارة: "لكن الساحة لم تخل من منظرين عرب وثورين، كما أن السجون العربية ازدحمت بالمثقفين النقديين المتهمين بالتنظيم للثورة وقلب نظام الحكم، نقدياً يسارياً كان التنظير أم قومياً، وسواء كانت مواقفهم ثورية أو مجرد إصلاحية"⁽²⁹⁾. ليصبح المثقف أمام خيارين: الانشقاق والسجن أو الصمت والتحول إلى 'مثقف مختص نقدي' يعمل من داخل آليات السلطة، أي ما يمكن أن نسميه المثقف المنغمس في غيتو اختصاصه من موقع نقدي أيضاً.

وكأمثلة على نمط المثقف الأيديولوجي النقدي الذي بقي نقده داخل الأيديولوجيا أي نقد قشري ظاهري، نرى أن المؤمنين بالأيديولوجيا القومية مثلاً تنقلوا من حزب قومي إلى آخر قومي أيضاً، أو انشق الحزب نفسه تحت وطأة تناقضاته الداخلية ليلتحق المثقف بأحدهما، وكذلك الأمر بالنسبة لليسار الذي انشطر في سوريا يسارات متعددة، حيث ستبقى فكرة الثورة قائمة في جوهره بكافة تشكيلاته إلى حين انهيار الاتحاد السوفياتي (وسنعود للحديث عن المثقف والثورة في سوريا في جزء آخر)، وكذلك الأمر بالنسبة للتيار الإسلامي الذي هو الأضعف في سوريا تاريخياً، لجهة إنتاج الثقافة والعلاقة بها، كون علاقته الأهم تقوم على التراث الإسلامي وما أنتجه السلف أكثر من العمل على مفاهيم 'الإصلاح الديني' وقراءة الإسلام بعيون الحاضر، ولعل كتاب 'الاشتراكية والإسلام' لمؤسس الحركة مصطفى السباعي هو الأخير في هذا السياق.

وفي مثال آخر: كان لدى المثقف القومي المنتمي لنمط المثقف الأيديولوجي/الطليعي إيمان كبير بأن الوحدة العربية هي الحل والترياق لكل المشاكل العربية، وبمجرد ولوج هذه الجنة يدخل المواطن العربي جنة التغيير الموعود.

28 المصدر السابق، ص: 100.

29 عزمي بشارة، عن المثقف والثورة، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية الفصلية، العدد 4 - المجلد الأول-ربيع 2013، ص: 138-139.

وهي ما دفعت باتجاه مشاريع وحدوية ارتجالية أي وحدة لمجرد الوحدة دون معرفة إن كانت قادرة على الصمود أم لا، ولهذا ماتت الوحدة السورية المصرية على يد المطالبين بها بعد ثلاث سنوات من بدئها، لأنها لم تبنى على معرفة بالواقع واحتمالاته بل نتيجة رغبة شعبية أعطتها مشروعيتها كل من الأحزاب والمثقف هذا.

مع الهزيمة وولادة 'المثقف الأيديولوجي النقدي' سيصبح السؤال: لم فشلنا ولم نحقق الوحدة؟ دون أن يلامس النقد 'الوحدة' ذاتها وعما إذا كانت 'الوحدة الآن' بحد ذاتها جيدة فعلاً أم لا، دون أن يفكر أحد في الدولة الوطنية (القطرية على حد تعبيرهم بكثرة) القائمة والعمل على تجديدها كي تكون طريقاً نحو وحدة مستقبلية، إذ بقي جرحي 'سايكس بيكو' والهزيمة يعلان فعلهما في ذهن المثقف لوقت طويل دون القدرة على الخروج من البقاء تحت أثر الجرح والمرض إلى التعافي منه حتى يومنا هذا⁽³⁰⁾، ليمهد الطريق بذلك للدكتاتوريات القائمة على هذه الأيديولوجيات التي تاجرت بالوحدة وفلسطين، وبكل قضية كأداة للبقاء في السلطة. إذ سجد أن الأيديولوجية النقدية نفسها أبقت إيمانها بالوحدة وأهملت الدولة القائمة بحجة أنها منتج 'سايكس بيكو'، وصبّت جام نقدها على السلطات الحاملة لهذه الأيديولوجية من موقع جزئي يهدف إلى الوصول إلى السلطة بدلاً عنها لا أكثر ولا أقل، وهو الذي امتد حتى اليوم في صيغة المعارضات التي تأسست على هذه الضدية القاتلة دون أي مشروع وطني أو نقدي.

من هنا سيبدأ العمل النقدي على المشاريع الكبرى لدى المثقف وسيغيب الواقع، لنكون أمام نقد لمجرد النقد، في الوقت الذي كانت فيه الأيديولوجيات تتحوّل إلى استبداد عضوض، وقد تجلّى الأمر في الأحزاب السياسية التي لم تغرّ أيديولوجياتها وتراجعها وفي الأداء السياسي الذي جعل قادة الحزب أنبياء معصومين وقادة إلى الأبد مع صعود مفهوم القائد إلى الأبد الذي كرّس مسألة الاستبداد ودجّن المثقفين فتحول قسم منهم طبعاً متخلياً عن أوهامه نحو غيتو الاختصاص أو إلى السجن لمقارعتة الدكتاتورية من موقع الأيديولوجيا النقدية وليس من موقع المثقف المستقل، إذ مع مرحلة الثمانينيات وخروج السلطة المنتصرة في سوريا سيذهب هذا المثقف الأيديولوجي النقدي نحو السجن أو المنفى، ويولد المثقف المنحصر في غيتو اختصاصه من موقع نقدي سيتجذر أكثر مع انهيار الاتحاد السوفياتي الذي دفع المثقف إلى جملة مراجعات على رأسها مسألة الثورة، حيث سينقسم من بقي خارج المعتقل إلى قسمين: الأول ملتحق كلياً بالسلطة ومنافعها ومنحصر ضمن غيتو الاختصاص بشكل كلي، وآخر ينحصر ضمن غيتو اختصاصه الثقافي إنما يبقى على تماس مع الشأن العام، دون أن يتصادم مع السلطة بشكل مباشر، بحيث يعمل على استغلال الهامش المتاح والعمل ضمنه لتوسيع مساحة اللعب لا أكثر، محاذراً أن لا يستفز السلطة كي لا يلتحق بزملائه، وفي هذا السياق قد يكون طيب تيزيني مثلاً يعكس هذه التحولات، فهو ابن الأيديولوجيا اليسارية بحيث تنطبق عليه صفة 'المثقف الأيديولوجي' ليتحوّل بعد هزيمة حزيران إلى موقع المثقف الأيديولوجي من موقع نقدي، بحيث يبقى إيمانه راسخاً بالأيديولوجيا اليسارية ولكن يبحث عن العطب في التراث والحل في الثورة، ليطلق مشروعه النقدي الضخم 'من التراث إلى الثورة'.

وتحت تأثير انهيار الاتحاد السوفياتي سيخرج من الأيديولوجية اليسارية باتجاه رحابة الفكر النقدي، ليغيّر عنوان مشروعه إلى 'من التراث إلى النهضة' ليصبح مثقفاً أيديولوجياً نقدياً يسلط سهام نقده نحو الدولة الأمنية ويبدأ منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي يتحدث بشكل علني عن الدولة الأمنية، ويصبح فيما بعد منخرطاً في الشأن العام، بشكل كلي خاصة بعد عام 2000، ويصبح 'مثقفاً نقدياً، عضوياً'.

طيلة مرحلة التسعينيات سيخرج من السجن دفعة جديدة من المثقفين الذين تعلّموا وقرؤوا وكوّنوا معارف

30 حلل هذا الأمر بشكل جيد المفكر جورج طرابيشي في كتابه 'المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي'.

طيلة سنوات سجنهم، حيث كان السجن بالنسبة لهم بمثابة مطهر دفعهم دفعا للخروج من نمط المثقف الأيديولوجي النقدي الذي يقارع السلطة من موقع أيديولوجي بعد أن خرج من شرايق وأوهام كثيرة لصالح العودة إلى الواقع إنما برضوض كثيرة، ولعل أبرز من يمكن أن يعطي ضوءاً على هذا الأمر ويكون مثلاً عليه بذات الوقت، هو الكاتب ياسين الحاج صالح، إذ يقول: "كنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي في جامعة حلب، أي واحداً من بين مجموعة في قيادة العمل الحزبي الطلابي ... بعد شهور من الاعتقال أمكنني أن أقول في أحد نقاشاتنا: إني لا أتصور نفسي خارج الحزب! كلمة 'الحزب' هنا مشحونة بعاطفة غامرة، لا يمكن لمن حرم منها إلا أن يكون يتيماً أعتقد اليوم أن هذا مروع. من لا يتصور نفسه خارج 'الحزب' فسيفي تابعاً بلا نهاية ... في السجن، شيئاً فشيئاً، تبدلت علاقتي مع الحزب إلى شيء أكثر دستورية. صرت أتصور نفسي خارجه ... بعد سنوات السجن استقر بي الأمر على الهامش: أختنق في الداخل، ولا أريد أن أكون بعيداً في الخارج. محيط الدائرة هو مكاني المناسب ... كانت الكتابة قد أضحت انشغالي المركزي، وصيغة تدخلية المفضلة في الشأن العام"⁽³¹⁾.

ولنا أن نلاحظ أن أغلب مثقفي سوريا اليوم، هم 'خريجو معتقلات' أو ما يمكن أن نطلق عليهم 'لاجئي الثقافة' بعد أن خذلهم السياسة، وليتقي هذا المثقف المتكوّن من رحم تجربة السجن مع شطره الآخر المثقف النقدي المغلق في غيتو اختصاصه جزئياً، حيث شكلت لحظة ربيع دمشق لحظة تلاقٍ بين هذين النموذجين الذين سيولد منهما من الآن وصاعداً 'المثقف النقدي العضوي' المتحرر من أسر الأيديولوجيا وغيتو الاختصاص نحو الاهتمام أكثر بالشأن العام مع إبقاء مسافة واضحة بين هذا المثقف والسلطة لن يتخطاها إلا قلة منهم، أي أن المثقفين الخارجين من السجن ولدوا من رحم هزيمة النضال السياسي بوجه الدكتاتورية، في حين ولد المثقف النقدي المختص من رحم هزيمة المشاريع الأيديولوجية التي آمنوا بها، ليبقى كل طرف يعاني من آثار هزيمته، حيث سينعكس الغياب الذي قضاه هؤلاء المثقفون في السجون في فكرهم، على شكل ابتعاد قسري عن الواقع وعدم القدرة على التقاط التغيرات التي أصابت المجتمع السوري، وبالتالي سيبقى فكرهم 'غريباً' أحياناً و'شعاراتياً' أحياناً و'ثأرياً' في أحيان، فهو من جهة شجاع جداً في مواجهة الدكتاتورية وجهاً لوجه، وعاجزٌ عن فهم إمكانات الواقع واحتمالاته من جهة ثانية، في حين ستبقى آثار المرحلة الأيديولوجية ظاهرة في فكر النوع الثاني، خاصة في طريقة التعامل مع الديمقراطية.

ولكن من تمازج الطرفين بعد ربيع دمشق على الأقل سيولد المثقف النقدي العضوي، المقترّب من الواقع أكثر والمفكر بسوريا أكثر، حيث ستبدأ سوريا وهمومها تحضر كدولة وطنية بعد أن كانت الوحدة والقومية والأممية وفلسطين تحتلان ذهن هذا المثقف، الذي عاد لينخرط بالشأن العام أكثر ويوقع العرائض ويشكل منظمات حقوق إنسان ويقترح بدائل بشأن نظام الحكم وسبل تغييره داعياً لعقد اجتماعي جديد بين المثقف والسلطة، حيث بدأت تظهر في الحياة السياسية الفقيرة والمعزولة عن المجتمع عموماً تعابير من نوع 'المجتمع المدني' و'التداول السلمي للسلطة' و'إلغاء قانون الطوارئ' و'إلغاء الحزب الواحد'... و لكن بالتأكيد لم يكن بين مفرداتهم 'الثورة' التي تم تطليقها نهائياً لكثرة ما ابتذلت في طيلة العقود الفاصلة بين الخمسينيات والثمانينيات، وهو ما دفع بشاره للقول: "ما يهمني هنا هو أن التنظير الثوري، بغض النظر عن رأيي فيه، استمر طويلاً من دون ثورات، وفقد مكانته في الرأي العام وفي الشارع لأسباب عديدة، حتى بات لفظ ثورة لفظاً مثيراً للسخرية، إذ إن فشل الشيوعية في أوروبا، واستهلاك هذه الكلمة في الانقلابات العسكرية وبعض حركات التحرر التي تحولت

31 ياسين الحاج صالح، بالخلاص يا شباب! 16 عاماً في السجون السورية، دار الساقي، الطبعة الأولى 2012، ص: 99-100.

إلى دكتاتوريات، لم يفقد كلمة ثورة بريقها فحسب، بل أفقدها مضمونها أيضاً، وتحوّلت إلى مفردة ميتة في خزانة اللغة الحزبية⁽³²⁾.

ولكم أن نقيس الزمن الفاصل بين ولادة سوريا بشكلها الحديث وربيع دمشق أو بداية التسعينيات على أبعد تقدير، لنعرف كم غابت سوريا وكم تأخرت تلك الثقافة عن مراكمة المعارف عن سوريا ولسوريا، وهو ما يفسر جزئياً لما تخلو المكتبة السورية حتى اليوم من كتب معرفية عميقة تهتم بسوريا وتدرسها بيد مثقفين سوريين.

المفارقة أنه بعد أن أقصى المثقف السوري بكافة أشكاله 'الثورة' من قاموسه، فاجأت الثورة الجميع وجاءت في الخامس عشر من آذار 2011 على شكل احتجاجات بسيطة تطوّرت إلى انتفاضة ثم ثورة تتمازج فيها الحرب الأهلية والتدخلات الخارجية والعنف بكافة أشكاله، ليبقى السؤال: لم غابت الثورة عن ذهن المثقف في الوقت الذي كانت تقترب فيه؟ ولم نسي كل كلامه السابق عن 'التغيير التدريجي الآمن' حين اندلعت والتحق بها، هذا إن كانت السلطة تركت مكاناً لغير ذلك؟ وهل كان موقفه المؤيد لها 'ثورياً' أم 'نقدياً'؟ وهل يتكامل هذا مع دوره كمثقف أم أنه خان هذا الدور لصالح التبعية للثورة؟

هذا ما سنحاول البحث فيه في القسم الثاني من هذا البحث، إضافة إلى محاولة قراءة الأسباب الكامنة وراء عجز المثقف عن تقديم معرفة بسوريا تخضع لشروط المعرفة وحدها، عبر مستويين اثنين: الأول يقرأ الشروط الخارجية التي أثرت وتأثر بها المثقف، والثاني يقرأ الشروط الداخلية للنص المنتج من قبل المثقف، أي المنهج المتبع وكيفية إنتاج المثقف لنصه.



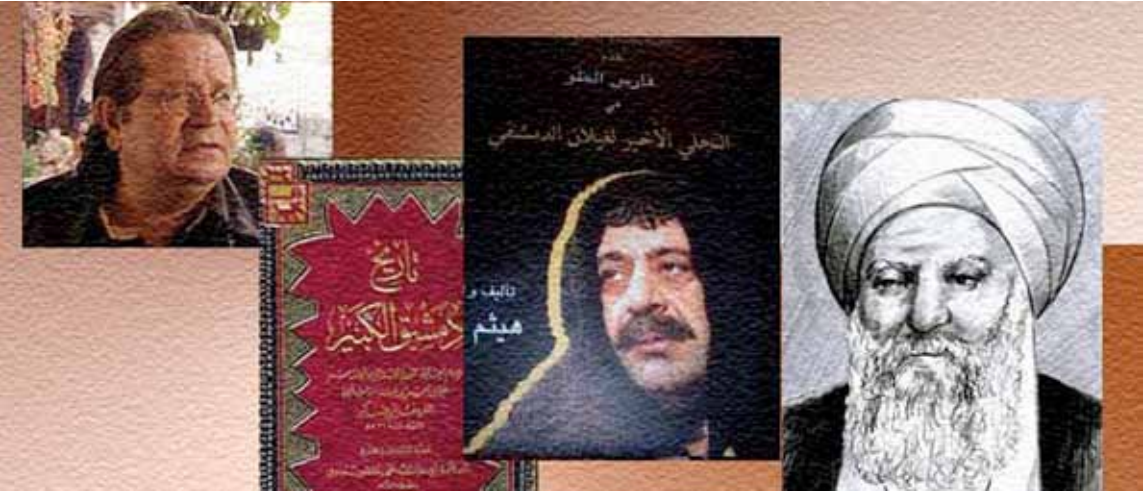
فراس الحواط*

استعادة الماضي لخدمة الحاضر: غِيلَان الدَّمَشْقِي فِي سِيَاقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ

الخلاصة:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على عملية تذكّر التاريخ في سبيل مواجهة الحاضر، وهذه العملية ترتبط بمجالات عديدة متعلقة بالشأن العام، إذ يتم الاستعانة بها في مجالات السياسة والفكر والثقافة، خصوصاً عند السعي لمواجهة تحديات الحاضر. وبغية تحقيق هذا الهدف فإن هذه الدراسة تتناول قصة تاريخية محددة، هي قصة غيلان الدمشقي الذي عاش في دمشق في القرن الثامن الميلادي، إذ يتم دراسة الأساليب التي ظهرت فيها هذه القصة في ثلاث حالات تنتمي إلى فترات مختلفة كلياً، كما تلجأ الدراسة إلى محاولة فهم السياقات التي ظهرت فيها هذه الحالات على اختلافها. يتم في البداية تناول الصورة التي قدمها القاضي عبد الجبار عن غيلان الدمشقي، ويتم توضيح العلاقة التي تربط بين هذه الصورة والواقع الذي كان القاضي يعيش فيه أثناء قيامه بهذا العمل، فبعد أن يتم إيجاز بعض الأمور المتعلقة بواقع القاضي عبد الجبار يتم الاستنتاج أنه قد سعى إلى توظيف قصة غيلان الدمشقي في سبيل مواجهة ما كان يمر آنذاك من ظروف، وهذا ما أدى إلى تصوير غيلان بشكل محدد جداً. كذلك يتم تناول الصورة التي قدمها 'ابن عساکر' عن غيلان الدمشقي وذلك من خلال تسليط الضوء على الفترة التاريخية المحددة التي كتب فيها ابن عساکر هذا العمل، وبنفس الطريقة تخلص الدراسة إلى أن واقع ابن عساکر وغاياته المحلية قد دفعاه إلى تشكيل صورة مختلفة كلياً عما جاء في كتاب القاضي، لكن كلا المؤرخين يتفقان في أنهما قاما بتذكّر غيلان خدمة لمصالحهما الآنية. تتابع الدراسة في تناول الحالة الثالثة وهي الأسلوب الذي اتبعه المخرج والكاتب السوري هيثم حقي في فلمه السينمائي الذي تناول حياة غيلان. تكمن أهمية العمل الذي قدمه حقي في أنه قد قام باستعادة هذا الشخصية التاريخية انطلاقاً على ما يبدو من ظروف آنية، إلا أنه قد تفادى الوقوع في فخ التبسيط الذي يؤدي أحياناً إلى التعامل مع الأحداث التاريخية كنماذج يولد منها الحاضر.

* كاتب سوري حائز على شهادة جامعية في الترجمة، وفي عام 2012 حصل على شهادة الماجستير من معهد دراسة حضارات المسلمين في لندن. قام بتقديم مساهمات تناولت موضوع الحوكمة في سياق المجتمعات الإسلامية وستصدر قريباً ضمن مجلد من إعداد نفس المعهد، وله دراسة غير منشورة تناولت شخصية غيلان الدمشقي. يعمل في مجال الترجمة بين العربية والانكليزية ومهتم بشؤون السياسة والتاريخ والدين.



مقدمة

يتجه كثير من المهتمين في المجالات الفكرية والسياسية والثقافية في المنطقة العربية نحو مواجهة الواقع الصعب الذي تمر به هذه المنطقة، ومحاولة إيجاد حلول تمكن المجتمعات من الخروج من الأزمات الحالية، إلا أن مساعي البعض أحياناً ما تعاني من بعض المغالطات التي تستحق الوقوف عندها وتسلط الضوء عليها، ولا شك أن طريقة التعاطي مع التاريخ هي من إحدى المشاكل التي تتحول أحياناً إلى أزمات حقيقية. تتقاطع الكثير من المحاولات الباحثة عن حلول للواقع الراهن، في سعيها للاستعانة بالماضي في سبيل مواجهة مشاكل الحاضر. وهذا لا يقتصر فقط على بعض الاتجاهات الدينية عموماً، علماً أن التيارات الفكرية الإسلامية التي وجدت الحل في العودة للماضي هي لا تمثل ظاهرة جديدة اليوم، بل، قد ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، من خلال فكر التجديد والإصلاح الذي ظهر مع بعض المفكرين الإسلاميين مثل محمد عبده ورشيد رضا اللذان أرادا أن يقدموا حلاً لحال الأمة، خصوصاً بعد أن اطلعوا على حداثة الغرب، إذ تلخصت استجابتهم لذلك الواقع بالوصول إلى نتيجة مفادها أن الحل يتمثل في العودة إلى المجتمع الإسلامي الأول (حوراني، 1977).

تظهر عملية استرجاع التاريخ في الكثير من الاتجاهات التي تنحو نحو تذكر حقبة أو شخصية أو حدث معين من الماضي ومحاولة تطويعه بحيث يبدو وكأنه الملاذ الذي يجب اللجوء إليه تجنباً لما يمر من صعوبات ومشاكل في الزمن الحاضر، وفي هذه الحالة فإن الحاضر يبدو وكأنه جزء يشكل امتداداً طبيعياً للماضي يأخذ منه سماته الأساسية في عملية تشبه عملية انتقال الجينات الوراثية، فإن واجهتنا مشكلة في زمن ما فإن العلاج إنما يتمثل بالقدرة على عزل الجينات المرغوب بها.

هذا ما يصفه الدكتور عزيز العظمة بالفهم العضواني للتاريخ (العظمة، 1987). وتنطوي هذه المقاربة في فهم التاريخ على أن يتم فرز الأحداث التاريخية إلى نوعين؛ النوع الأول هو التاريخ 'الأصيل' الذي يشكل نموذجاً مثالياً ينبغي اتباعه دائماً، والنوع الثاني هو التاريخ 'الدخيل' الذي يجب تجنبه والحذر منه أو حتى محاربته للحفاظ على صفاء ونقاء الحاضر والمستقبل.

دراسة حالة غيلان الدمشقي (ت. 724)

يحفل تاريخنا وحاضرنا العربيان بنماذج كثيرة يمكن تسليط الضوء عليها لتوضيح الجوانب التي تحيط بعملية الاستعانة بالماضي لمواجهة الحاضر، وقد تم الاستعانة في هذه الدراسة بحالة غيلان الدمشقي لما اكتسبته هذه الشخصية من وجود بارز في التراث الفكري العربي تجلى بمظاهر مختلفة أشد الاختلاف، وباعتبار هذه الشخصية ما زالت تشد انتباه بعض المهتمين وخصوصاً أولئك الذين يسعون من خلال غيلان الدمشقي لتقديم حلول تفيد بنظرهم للخروج من بعض مشاكل الواقع الحالي نظراً لما ارتبط بهذه الشخصية من أفكار تتعلق بالعدل والحرية. يقدم محمد عمارة موجزاً عن حياة غيلان الدمشقي في كتابه 'مسلمون ثوار'، فيسلط الضوء على أفكار غيلان الدمشقي التي كانت تقوم على فكرة أن الله قد منح الإنسان حرية اختيار أفعاله وتصرفاته وهذا ما اندرج ضمن مبادئ ما سمي بـ 'الغيلانية' التي قامت على معارضة الأمويين سياسياً (عمارة، 1988). يشير عمارة أيضاً إلى العلاقة التي جمعت غيلان بالخليفة عمر بن عبد العزيز الذي استعان بغيلان في مصادرة بعض الأموال من الأمويين وردها لبيت مال المسلمين كخطوة في سبيل تحقيق العدل. إلا أن هذا ما دفع - بحسب عمارة - هشام بن عبد الملك لاحقاً ليأمر بصلب غيلان على أحد أبواب دمشق وإعدامه بعد محاكمته على يد الشيخ الأوزاعي. يقوم عمارة بشرح موقف غيلان فيقول عنه: "إنه كان موقفاً ثورياً من كل سلبات الحياة في العصر الذي عاش فيه" (نفس المصدر، ص 142). لكي نفهم السياق الذي قام به عمارة بتسليط الضوء على حياة غيلان الدمشقي واستعادة قصة حياته، يبدو من اللافت للانتباه أن عمارة يلجأ إلى توضيح هدفه من هذا الكتاب عندما يوضح الحاجة إلى مواجهة الواقع الذي انطلق منه فيؤكد "تزايد أهمية الجهود الفكرية التي تصحح صورة الإسلام في عيون بنييه، والتي تنصفه عندما تكون المقارنة بينه وبين غيره من الأديان .. تلك الجهود التي تقدم الإسلام الحق .. دين الاستنارة .. والعقلانية .. ورباط الوحدة والتوحيد .." (نفس المصدر، ص 5).

من الجدير بالذكر أنه في حالة غيلان الدمشقي لا يمكن الحديث عن تسجيل لأحداث مباشرة قامت أثناء حياته إذ أن أقدم المصادر التاريخية المتوفرة - ومن بينها المصادر التي اعتمد عليها عمارة - تعود إلى فترات تلت وفاة غيلان على الأقل بحوالي 100 عام، وهذه المشكلة تعترض أي عمل تاريخي يتناول الفترة الأموية إذ أن كل الأعمال التاريخية التي تتناول هذه الفترة هي من إنتاج فترات لاحقة.

تشكل حالة غيلان مثلاً جيداً في مجال هذه الدراسة بالتحديد لما استقطبته هذه الشخصية من كتابات أو تجليات أظهرت غيلان بمظاهر وأشكال أخذت في التعدد والاختلاف حد التطرف كما كانت قصة غيلان الدمشقي محط اهتمام وانتباه للكثيرين على مر العصور وعلى ما يبدو أن مرور عدة قرون على الفترة التي من المفترض أن غيلان قد عاش فيها لم يمنع أبداً من تذكره ولا حتى من الاستعانة به في سياقات وموضوعات معاصرة.

غيلان الدمشقي كما صورته القاضي عبد الجبار (ت. 1025)

يعد القاضي عبد الجبار من أهم فلاسفة ومؤرخي مذهب المعتزلة، ويشير فؤاد سيد إلى أن القاضي كان إمام مذهب الاعتزال في عصره، وهو الوحيد الذي عرف باسم 'قاضي القضاة' (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص 121). وقد قام القاضي في كتابه 'فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة' بتاريخ هذا المذهب من خلال تحديد عشر طبقات تضم كل منها بعض الشخصيات التي قام هو بتصنيفها واعتبارها من أعلام مذهب الاعتزال. وفيما بعد قام مؤرخ آخر هو الحاكم الجشمي في كتابه 'شرح عيون المسائل' بإضافة طبقتين لطبقات القاضي ليتم ذكر

القاضي عبد الجبار نفسه ضمن الطبقة التي أصبحت تحتل المرتبة الثانية عشرة، وهذا ما يدل على المكانة الرفيعة التي احتلها القاضي بالنسبة لفكر الاعتزال بشكل عام.

وفي مقدمة كتابه يشير القاضي إلى أنه قام بهذا العمل تلبية لدعوة الملك خوارزم شاه (أبو العباس مأمون بن مأمون)، الذي كان آخر ملوك الأسرة المأمونية التي حكمت خوارزم من عام 995 حتى عام 1017م. وقد عرفت هذه الأسرة بتبني مذهب الاعتزال حتى قام بعض من أتباع السلطان محمود الغزنوي (محمود بن سبكتكين) بقتل آخر ملوكهم الملك أبو العباس والسيطرة بذلك على خوارزم (المصدر السابق، ص. 137). يشير فؤاد سيد إلى حالة العداء التي كانت موجودة لدى السلطان محمود الغزنوي تجاه المعتزلة إذ تمثل ذلك على سبيل المثال باضطهاد المعتزلة وحرق كتبهم (نفس المصدر).

إن حقيقة انهيار الأسرة المأمونية على يد أتباع السلطان محمود وحالة العداء التي أظهرها تجاه المعتزلة هي نقاط أساسية لفهم كتابات القاضي في هذه الفترة بالتحديد، ففي كتاب "فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة" يحاول القاضي أن يشرح مهمته في إعداد هذا الكتاب إذ يقول: "فرايت التسرع إلى ذلك واجباً، ليعلم الأمير السيد الملك العادل، أطال الله أيامه وحرس مكانه، أنه فيما تمسك به، موافق للرسول عليه السلام والأئمة وأن من خالفه فهو مخالف لهم، ولكي يأنس بكثرة موافقيه من العلماء فيثبت عند ذلك ما وضعته في هذا الكتاب" (نفس المصدر، ص. 138). إن هذا الإعلان الصريح من القاضي عبد الجبار يوضح العلاقة بين الواقع الذي انطلق منه وبين العمل الذي قدمه والطريقة التي أدى بها هذا العمل. ويشير سليمان علي مراد إلى أن الأمر الذي دفع القاضي إلى إتمام هذه العمل كان اهتمامه بالدفاع عن مذهب المعتزلة وخصوصاً مبدأ العدل الإلهي، وقد لجأ إلى تضمين قائمة تضم شخصيات إسلامية بارزة وذلك بغية استعراض النسب والأصل الذي انتمت له المعتزلة (Mourad, 2006).

قبل الخوض في ما قدمه القاضي عبد الجبار عن غيلان والطريقة التي صوره بها قد يكون من المفيد إيجاز بعض الأفكار عن المعتزلة. ترجع بعض الدراسات نشأة المعتزلة إلى زمن الحسن البصري وبالتحديد عندما 'اعتزل' واصل بن عطاء (ت. 748) من حلقة الحسن، وتحدث عن موقفه تجاه عقوبة مرتكبي المعاصي، إذ حدد ذلك بعبارة "منزلة بين المنزلتين". إلا أن فكر الاعتزال وما يقوم عليه من معتقدات ومبادئ لم يتبلور إلا لاحقاً عندما نشأت فكرة 'أهل العدل والتوحيد' التي تشير إلى الإيمان بالعدالة الإلهية التي تعتبر الإنسان حراً مخيراً لا يتم عقابه إلا بالاستناد إلى ما منحه الله من حرية في اختيار أفعاله. وقد تمت إضافة مبادئ أخرى هي مبدأ الوعد والوعيد ومبدأ المنزلة بين المنزلتين ومن ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. في الوقت الذي ارتبطت فيه جميع المبادئ الخمسة بفكر الاعتزال يؤكد القاضي عبد الجبار في كتبه على أولوية مبدئي العدل والتوحيد.

يأتي ذكر غيلان الدمشقي كأول اسم في الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة التي صنفها القاضي عبد الجبار، وذلك حتى قبل واصل بن عطاء. وإن أهم ما يلفت الانتباه في الصورة التي عرضها عبد الجبار عن غيلان الدمشقي هو العلاقة بين غيلان والخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ تكتسب هذه العلاقة أهمية كبيرة وذلك لارتباط صفة العدل بالخليفة عمر الذي عرف بالخليفة العادل. وقد كان هذا محط انتباه القاضي عبد الجبار على ما يبدو إذ حاول جاهداً أن يصور الإعجاب والاحترام اللذين أظهرهما الخليفة عمر تجاه غيلان. فيصور القاضي حادثة دارت في بلاط الخليفة:

"دخل غيلان على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: مالي أراك مصفراً. قال: أوجاع وأسقام. قال: أقسمت عليك لتخبرني. قال: يا أمير المؤمنين، أكل حلاوة الدنيا فأجدها مرة فصغر قدرها واستوت عندي حجارته وذهبها. وكأن الناس يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار. فقال عمر: من سره أن ينظر إلى رجل قد وهب نفسه لله

وفرغها له وليس فيه عضو إلا وهو ينطق بالحكمة، فليُنظر إلى هذا. ثم قال له واصل بن عطاء: من أين أوتيت هذا العلم يا أبا مروان؟ فقال: ويحك يا وُضين، أَرَدَ الله بما تعلم، يفزع إليك العلم إفزاعاً. إن الذي ترى جهلنا بما لا نعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم“

تمثل هذه الحادثة أهمية كبيرة إذ تصور غيلان كرجل حكيم ابتعد بزهد وإيمانه عن كل ملذات الدنيا، وهذا - على ما يبدو من خلال ما أورده القاضي - ما رفع من مكانة غيلان لدى الخليفة. وعلى الرغم مما يرتبط بـ واصل بن عطاء من أفكار تعطيها مكانة خاصة لدى المعتزلة إلا أنه بدوره تم تصويره على أن علمه لا يضاهاه علم غيلان الذي يقوم بتوجيه واصل وتقديم النصيحة له. ويزيد ذكر واصل بن عطاء من أهمية هذه الحادثة إذ أنها بهذا الشكل قد أظهرت غيلان متفوقاً على أعلام زمانه. ويتابع عبد الجبار في إظهار العلاقة بين غيلان وعمر ولكن يتم تصوير غيلان هذه المرة بمظهر الشخص الحكيم الذي يقوم بتحذير الخليفة نفسه وتذكيره بمسؤولياته وذلك من خلال رسالة وجهها غيلان إلى عمر بن عبد العزيز وجاء فيها:

”أبصرت يا عمر وما كدت. أعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً أو رسماً عافياً. فيا ميت بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنتفع. قد خفي عليك. أميتت السنة وظهرت البدعة وأخيف العالم فلا يتكلم ولا يظن الجاهل فيسأل ورهما نجت الأمة بالإمام فانظر أي الإمامين أنت فإن الله تعالى يقول: وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار. ولن تجد يا عمر داعياً إلى النار لا يتبعه أحد ولكن الدعاة إلى النار هم دعاة إلى معاصي الله فهذا مثل الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين“

ويتابع عبد الجبار أن الخليفة عمر قام بعد ذلك بالطلب من غيلان لمساعدته في مسؤولياته وما كان من غيلان إلا أن طلب توليته بيع الخزائن ورد المظالم. وعند قيام غيلان ببيع خزائن الأمويين كان ينادي: ”هلم إلى متاع الخونة، هلم إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول صلى الله عليه في أمته بغير سيرته وسنته“ ويضيف القاضي عبد الجبار أن هشام بن عبد الملك قبض على غيلان وأودعه السجن، فقام أحد أصحاب غيلان بإرسال رسالة له يواسيه ويعزيه بما أصابه فما كان من غيلان إلا أن رد له بهذه السطور:

”إنك ونحوك خلقت في زمن ابتلى الله العباد فيه بجهل لا علم معه، وضلالة لا هدى معها (وليس لا بيان معه) إلا قليل، فاجتمع العباد على الهلكة وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويغونها عوجاً وسموا الدين وأهل الدين بغير أسمائهم واجتمعت منهم عليه الجماعة، فليس يلتفت ملتفت إلا إلى ضال مضل، إلا فرقة يسيرة، ومع ذلك فحججه على أهل الباطل ظاهرة، ولهم الويل الطويل، وعزيتي وقد أصبت لو كنت تهنييني“

تسلط هذه الرسالة الضوء على خصوصية الواقع الذي يحاول القاضي تصوير غيلان فيه، وهو ما يشكل له أهمية خاصة لأنه يحقق رغبته في إظهار النسب القوي للمعتزلة وخصوصاً في ما يصوره على أنه تمسك بالدين الصحيح حتى عندما يشتد الخطر الذي يهدد هذا الدين. إذ أن المقارنة بين ما ينقله عبد الجبار عن لسان غيلان في هذه الرسالة مع الواقع الذي كان يعيشه عبد الجبار نفسه وما كانت تعانيه المعتزلة في وقته توضح الأسباب التي تدفع بهذه الرسالة لتكون ذات أهمية خاصة بالنسبة له.

يتابع القاضي عبد الجبار ليصور مشهد صلب وإعدام غيلان، إذ يضيف أن هشام قد أمر بالبداية بقطع أطراف غيلان وحتى بعد أن نفذ ذلك بغيلان فإنه لم يستكن بل تابع بكل إرادة قائلاً:

”قاتلهم الله كم من حق قد أماتوه، وكم من باطل قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز

في دين الله أذلوه". يتابع القاضي أنه بعد ذلك: "قيل لهشام: قطعت يدي غيلان ورجليه، وأطلقت لسانه، فقد بكى الناس حوله، ونبههم على ما كانوا غافلين عنه". ثم يضيف أن هشام أرسل فقطع لسانه. في هذا الجزء بالتحديد يظهر الربط المباشر بين الواقع الذي كان يعيش فيه عبد الجبار وما أراد تصويره عن حياة غيلان الدمشقي، فتم هنا الإشارة إلى الدور الذي قام به غيلان من تنبيه الناس وتوعيتهم ولم يكن بمقدور أحد أن يمنع غيلان من أداء دوره إلا بقطع لسانه ومنعه من الكلام. وهنا لا يمكن أبداً تجنب الأخذ بالاعتبار ذلك الواقع الذي كان عبد الجبار يلعب فيه دور القاضي والفيلسوف.

غيلان الدمشقي كما صورته ابن عساكر (ت. 1175)

يعد أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مدينة دمشق، فإلى جانب كونه إماماً وعلامة فإن عمله 'تاريخ مدينة دمشق' يعد من أهم المصادر التاريخية عن دمشق وسوريا بشكل عام في الفترة حتى القرن الثاني عشر الميلادي. بالمقارنة مع القاضي عبد الجبار والعلاقة التي كانت تربطه بأمر خوارزم فإن ابن عساكر أيضاً كان يحتل مكانة رفيعة في دمشق، وكانت تربطه علاقة قوية مع الملك نور الدين زنكي الذي تولى بنفسه مهمة رعاية هذا الكتاب الذي قام ابن عساكر بإعداده (Lindsay, 2001).

قبل الخوض في ما قدمه ابن عساكر عن غيلان الدمشقي لا بد من تسليط الضوء على الواقع الذي كان موجوداً في سوريا خلال القرن الثاني عشر عندما قام ابن عساكر بتأليف 'تاريخ مدينة دمشق'.

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت بلاد الشام تشهد الكثير من النزاعات، وكان النفوذ يتوزع بين عدة أطراف، ففي بداية القرن الثاني عشر بالتحديد سيطر نور الدين زنكي على حلب بينما كانت دمشق بيد أسرة البوريين، وكان النفوذ الصليبي موجوداً في مدن ومناطق مجاورة. كما كانت الدولة الفاطمية تشكل خطراً على استقرار هؤلاء الأطراف. تمكن نور الدين زنكي سنة 1154 من دخول دمشق وبدأ بضم المدن الأخرى لمملكته حتى شهدت أوج قوتها مع تولي صلاح الدين للحكم وسيطرته فيما بعد على القدس ومن ثم مصر. في الفترة ما بين 1154 و1174 حكم نور الدين زنكي بلاد الشام واتخذ من دمشق عاصمة له، كما أن جهوده العسكرية لتوحيد هذه المنطقة قد توافقت مع فرض المذهب السني، ومحاولاته لقمع المانويين له سياسياً أو دينياً ومن بينهم أنباع بعض المذاهب الشيعية (The Encyclopedia of Islam, 1995). ففي هذه الظروف قام ابن عساكر بتأليف 'تاريخ مدينة دمشق' إلى أن أتم عمله عام 1174.

يتناول ابن عساكر في كتابه 'تاريخ مدينة دمشق' أهم الشخصيات الإسلامية التي ارتبطت في شكل أو بآخر بمدينة دمشق أو بمنطقة بلاد الشام عموماً، حيث يتناول كل شخصية بمفردها ويبرز بعض الجوانب التي تميز بها. ومن الجدير بالانتباه أنه يتناول بعض الخلفاء والصحابة والعلماء إلا أن تناوله لحالة غيلان الدمشقي تثير الاهتمام بشكل خاص لأن غيلان لم يظهر هنا كشخصية دينية أو سياسية ذات شأن رفيع بل على العكس تماماً.

يبدأ ابن عساكر الحديث عن غيلان الدمشقي بذكر بعض المقولات من سبيل "وغيلان هذا هو الذي يعرف بغيلان القدري، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذمه"، كما يتابع فيذكر عدة نسخ من حديث نبوي ينقل عن الرسول قوله: "يكون في أمتي رجلان أحدهما: وهب يهب الله له الحكمة، والآخر غيلان فتنته على هذه الأمة أشد من فتنة الشيطان"، ويضيف حديثاً آخر يقول فيه الرسول: "يكون في أمتي رجل يقال له غيلان، هو أضر على أمتي من إبليس". لا يقوم ابن عساكر بمناقشة صحة هذه الأحاديث بل يضيف أن أحداً قال لغيلان: "ويحك يا غيلان، ألم أجدك في شببيتك ترامي النساء بالتفاح في شهر رمضان؟ ثم صرت حارثياً تخدم امرأة تزعم أنها أم

المؤمنين ثم تحولت فصرت قدرياً زنديقاً، كما يقوم بنفس الوقت بذكر نسخ متشابهة لأقوال تم تناقلها عن أشخاص آخرين، فيذكر على سبيل المثال: ”ويلك يا غيلان، ألم تكن زفاناً؟ وويلك يا غيلان ألم تكن قبطياً وأسلمت؟ وويلك يا غيلان ألم أجدك في شبيتك وأنت ترامي النساء بالفواح في شهر رمضان ثم صرت حارثياً تخدم امرأة حارث الكذاب وتزعم أنها أم المؤمنين؟ ثم تحولت من ذلك فصرت قدرياً زنديقاً؟“. تقدم كل هذه الأحاديث والمقولات صورة ترتسم في ذهن القارئ لتحط من مكانة غيلان دينياً ومعرفياً، وإن أكثر ما تركز عليه هذه الأمثلة هو إظهار غيلان كشخص منبوذ كلياً حتى أن الرسول بنفسه قد تنبأ بخطر هذا الشخص على الأمة وحذر منه حتى قبل عشرات السنين من ولادته.

إلا أن ما يثير الاهتمام في شكل خاص هو العلاقة التي حاول ابن عساكر تصويرها بين غيلان والخليفة عمر بن عبد العزيز. فيذكر ابن عساكر كلاماً يعزوه إلى غيلان قائلاً ”كان أشد الناس علي كلاماً عمر بن عبد العزيز، كأنه يلقي من السماء“. ويتابع ابن عساكر أن غيلان أضاف: ”ولقد كنت أطلب له مسائل أعنته فيها، فبينما أنا ذات يوم في السوق إذا دراهم بيض يقلبها اليهودي والنصراني والحائض والجنب، قلت: إن يكن يوم أظفر به فاليوم، قال: فدخلت عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين هذه الدراهم البيض فيها كتاب الله يقلبها اليهودي والنصراني والحائض والجنب، فإن رأيت أن تأمر بمحوها، فقال: أردت أن تحتج علينا الأمم إن غيرنا توحيد ربنا واسم نبينا، قال: فبهت، فلم أدر ما أرد عليه“.

في الوقت الذي قام عبد الجبار بإظهار المكانة العالية التي تمتع بها غيلان عند الخليفة عمر، يدل هذا المثال على أن غيلان كان كل همه أن يحظى بمقابلة الخليفة عمر، وكان يسعى جاهداً أن يجد فرصة ليتسنى له ذلك، ولهذا السبب فقد أراد استغلال فرصة انقلبت عليه عكسياً إذ لم يحصل منها إلا على الخيبة بعد أن صده الخليفة عمر. ولم يكن هذا المثال الوحيد الذي يركز على علاقة عمر بغيلان بل يذكر ابن عساكر أيضاً أن أحداً قال: ”دخلت على عمر بن عبد العزيز وغيلان قاعد بين يديه فقال يا غيلان وويلك ما هذا الذي أحدث في الإسلام، فقال يا أمير المؤمنين ما أحدث في الإسلام شيئاً، قال بلى قولك في القدر“. يتابع ابن عساكر بعد ذلك ليصور غيلان مدرراً لجبهاته وتائباً بعد أن قام عمر بتأنيبه، إذ يقول غيلان: ”صدقت يا أمير المؤمنين والله لقد جئتكم ضالاً فهديتني وأعمى فبصرتني وجاهلاً فعلمتني، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبداً، وهذا ما استدعى عمر ليرد عليه محذراً: ”لئن بلغني أنك تكلم في شيء من هذا الأمر أبداً لأجعلنك نكالا للناس أو للعالمين“. ويتابع ابن عساكر أن بعد أن تاب غيلان أمام عمر واعترف بخطأه فإن عمر بن عبد العزيز علم أن غيلان استمر في القول في القدر، فيذكر أن عمر استدعاه ثانية ليعود ويتوب قائلاً: ”أقول قد كنت أعمى فبصرتني وأصم فأسمعتني وضالاً فهديتني“. هذا ما دعا عمر ليضيف: ”اللهم إن كان عبدك غيلان صادقاً وإلا فاصلبه“. يذكر ابن عساكر أن هشام بن عبد الملك هو من قام بصلب غيلان فيما بعد، إلا أن هذه الأحاديث التي ذكرها تدل على أن عمر بن عبد العزيز كان هو أول خليفة أموي يكشف عما لدى غيلان من أفكار خارجة عن الدين، وأنه هو من دعا إلى الله أن يقتض منه. يتضح هذا جلياً عندما يقوم ابن عساكر بإضافة حادثة أخرى قام فيها عمر بن عبد العزيز بالدعاء إلى الله أن يعاقب غيلان على بدعته فيذكر أن عمر قال: ”اللهم إن كان صادقاً فارفعه ووقفه وإن كان كاذباً فلا تمته إلا مقطوع اليدين والرجلين مصلوباً“، ويضيف أن عمر بن عبد العزيز قام مرة أخرى بالدعاء إلى الله من أن يقتض من غيلان، وكان ذلك بحضور شخص يدعى عمرو بن مهاجر. وهذا ما يزيد من وضوح الفكرة التي أراد ابن عساكر توصيلها وهي أن الخليفة عمر هو بنفسه كان على علم بما لدى غيلان من بدع، ولذلك فإن عملية صلبه وإعدامه التي تمت على يد الخليفة هشام إنما كانت تلبية لما أراده عمر بن عبد العزيز. وفي هذا الخصوص

بالتحديد يذكر ابن عساكر أن عمرو بن مهاجر قال: "فوالله إني لفي الرصافة جالس فقيل لي قد قطعت يداه ورجلاه، قال فأتيته فوقفت عليه وإنه لملقى فقلت له يا غيلان هذه دعوة عمر بن عبد العزيز قد أدركتك قال ثم أمر به فصلب". ينهي ابن عساكر حديثه عن غيلان بإضافة حديث ورد فيه "إن هشاماً وقر في صدره من قتل غيلان شيء فكتب إليه نمير لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن قتل غيلان كان من فتوح الله العظام على هذه الأمة".

إن محاولة فهم الأسلوب الذي لجأ إليه ابن عساكر لتصوير غيلان الدمشقي لا يمكن عزلها عن الواقع الذي ظهر فيه كتاب 'تاريخ مدينة دمشق' والظروف السياسية التي كانت موجودة آنذاك. وهنا لا بد من الإشارة بالتحديد لمحاولات نور الدين زنكي لمواجهة الأطراف الدينية المختلفة وتأسيس دولته التي كانت تعتمد على وجود مذهب ديني واحد يعمل على توحيد البلاد تحت راية واحدة، وهذا بالطبع قد تمثل بالتحديد بنبذ البدع، ومحاولة تقديم دمشق على أنها عاصمة تاريخية قام فيها الخلفاء الأمويون من قبله بذات الجهد لنبذ ما هو منحرف عن 'الدين الصحيح'. ولذلك فإن غيلان الدمشقي قد ظهر هنا على أنه ذلك الفاسق صاحب البدعة الذي حاول التقرب من الخلفاء لكنهم قاموا بكشفه والتنبه لخطره منذ البداية.

غيلان الدمشقي كما صورته هيثم حقي

لم تقتصر قصة غيلان الدمشقي على الظهور في كتب المؤرخين كابن عساكر والقاضي عبد الجبار بل إنها استدعت اهتمام العديد من الكتاب حتى يومنا هذا. فقد قام المخرج السوري هيثم حقي عام 2008 بتأليف وإخراج فلم سينمائي تناول هذه القصة وحمل اسم 'التجلي الأخير لغيلان الدمشقي'. يقوم الفلم بالتركيز على إظهار غيلان بشخصية المدافع عن الحق والعدل بكل ما أوتي من قوة، وهو لا يتوانى عن ذلك حتى عندما كان مدركاً أن هذا الطريق قد يؤدي بحتفه على يد هشام بن عبد الملك. فيقوم هيثم حقي بدوره بالتركيز على علاقة غيلان بالخليفة عمر بن عبد العزيز، إذ يصور الفلم أن غيلان كان يدعو إلى أن تكون الخلافة للأصلح سياسياً، وأنه قَبِلَ بخلافة عمر بن عبد العزيز فقط عندما رأى سعي عمر إلى إحقاق الحق والقضاء على الظلم. في هذا السياق يظهر غيلان في الفلم قائلاً لعمر: "وإذا كنت قد ورثت الخلافة ونحن نرفض توريثها ونطالب بالبيعة للأصلح سياسياً فإننا نأبى الحق يقال فبعد ما رأينا من أفعالك ونبذك لمتاع الدنيا وزهدك بفخفة الملك والسلطان، تراك يا ابن عبد العزيز الأصلح لها، وإذ نبايعك أميراً للمؤمنين، نوصيك بتقوى الله في عباده ورد أموال المسلمين التي استولى عليها أبناء عمومتك من بني أمية لبيت مال المسلمين باستعمالها في إصلاح حال العباد التي آلت إلى فساد"

ويتضح في هذا الفلم سعي حقي إلى التركيز على الدور السياسي لغيلان الدمشقي، وتصوير موقفه من عملية اختيار الحاكم منطلقاً من إيمانه بالعدل ورفع الظلم من دون أن يكون لديه أية مصلحة أخرى، فيظهر غيلان في الفلم مدافعاً عن موقفه تجاه تولي عمر بن عبد العزيز الحكم فيقول:

"قد بايعناه لنعيد الحق لأصحابه. أعرف ما تقولونه من أننا تنازلنا عن ما كنا نطالب به من تفويض الأمر للأصلح بين الناس لكننا وجدنا عمر بن عبد العزيز الأصلح والأقدر على لم الشمل مع وعده برد المظالم والعدل فإن لم يفعل وقفنا في وجهه كما وقفنا في وجه سلفه"

يشير الفلم كذلك بشكل بسيط إلى شخصيات تاريخية أخرى فيتم ذكر ابن رشد والحلاج وعبد الرحمن الكواكبي، وذلك من خلال تصوير ما مثلته هذه الشخصيات من أفكار دعت لإحكام العقل والخروج عن السلطة الدينية المستبدة التي قامت بدورها بقمع هذه الأفكار بيد من حديد.

إن ربط هذه الشخصيات بشخصية غيلان الدمشقي يعبر عن رغبة حقي بإظهار امتداد تاريخي للاتجاه الذي ينزع إلى إحكام العقل والقيام بالثورة على الواقع المستبد. هل أراد حقي توسيع المجال الزمني لهذا الامتداد التاريخي ليعبر به عن الواقع الحالي المعاصر؟ ماهي الرسالة التي أراد توصيلها للمشاهد من خلال العودة لإحياء هذه الأمثلة من التاريخ؟

إن 'التجلي الأخير لغيلان الدمشقي' لم يمثل عملاً تاريخياً قائماً على تقديم سرد أو تصور معين لفترة، أو شخصية تاريخية معينة. بل لجأ حقي في هذا الفلم إلى المزاوجة بين الواقع المعاصر والقصة التاريخية، وذلك من خلال الانطلاق من تصوير حياة شخصية الشاب سامي، الموظف المسحوق الذي يعيش في مدينة دمشق ويحاول إعداد رسالة دكتوراه عن غيلان الدمشقي. يصور الفلم حياة سامي الذي يثيره ويشده كثيراً ما يجري حوله من مشاكل، وبالأخص تلك التي تتمثل بحالات الظلم.

من خلال نافذته يقوم سامي بمراقبة ما يجري في المنزل المقابل لمنزله، إذ يقوم جاره المدمن على القمار بتحويل زوجته إلى سلعة لتقوم هي رغماً عما يقع عليها من إهانة بمحاولة توفير بعض المال لأطفالها. يراقب سامي ما يدور في هذا البيت وما يحدث حوله على نطاق أوسع، من دون أن يكون قادراً على المشاركة الفاعلة في هذا الواقع فيصل إلى درجة الانفصال التام عن واقعه، حتى يصل به المطاف إلى إيصال الرسائل من الفتاة التي أحب إلى الشخص التي كانت على علاقة به، وليقوم لاحقاً بتوصيلها بنفسه إلى منزل هذا الشاب.

يمثل الواقع الذي يعيش فيه سامي، بكل ما فيه من مشاكل اجتماعية وسياسية، نموذجاً عن المجتمعات المعاصرة التي يستهدفها الفلم.

وبنفس الوقت فإن الطريقة التي قام بها سامي بمواجهة هذه المشاكل تمثلت بالانفصال عن هذا الواقع، والهروب نحو تخيل ما حدث مع غيلان الدمشقي منذ عدة قرون خلت تلبية لرغبته بإحقاق العدل ورفع الظلم، فيحاول التعويض عما يعيشه من سلبية وبرودة وعدم قدرة على التأثير من جهة، بما يقوم هو بتخيله عن غيلان الدمشقي وسعيه الدؤوب إلى إحقاق الحق وتحقيق العدل. عندما تصل الأمور مع سامي إلى الحد الأقصى من الخسارة المترافقة بالسلبية فإنه يلجأ إلى تخيل مشهد صلب وإعدام غيلان الدمشقي على يد هشام بن عبد الملك.

إن لجوء حقي إلى استعادة قصة غيلان من خلال ما يقوم به سامي من هروب من واقعه إنما يساهم في تشكيل فهم أعمق لهذه القصة التاريخية وإمكانية تجليها في واقعنا المعاصر، فالتجلي الأخير لغيلان الدمشقي إنما حدث -حسب حقي- في خيال سامي. لا شك أن قصة غيلان قد استهوت حقي لما حملته هذه الشخصية من إحكام لدور العقل، واتجاه نحو تحقيق العدل، إلا أن اللافت للانتباه أن العلاقة بين عمر بن عبد العزيز وغيلان، والتي أراد حقي إظهار فكرة العدل من خلالها، قد ساهمت بنفس الوقت بتثبيت فكرة استحالة تحقيق هذا النوع من العدل الذي يقوم على وجود حاكم عادل. فالفلم يظهر أن هذه العلاقة سرعان ما انتهت بقتل عمر بن عبد العزيز وانتقال الخلافة لاحقاً ليد هشام بن عبد الملك الذي قام بدوره بإعدام غيلان. إن الاتجاه الذي اتبعه حقي في تصوير استحالة تحقيق هذا النوع من العدل إنما يعبر عن رغبته لإظهار أفكاره السياسية الخاصة بشكل فني. وهذا ما يتوافق بشكل تام مع الرؤية التي يمتلكها حقي في مجال السياسة، والتي يمكن أن تتلخص في الديمقراطية الاجتماعية التي تعمل على تحقيق مبدأ المواطنة المتساوية أمام قانون يعدل ليصبح عادلاً (حقي، 2011).

خاتمة

إن التاريخ بما فيه من أحداث لا شك يشكل مجالاً واسعاً للاستفادة منه في ميادين كثيرة وخصوصاً في ميادين السياسة والفكر وعلم الاجتماع، إلا أن قراءة التاريخ والطريقة التي نستخدمه فيها تتطلب كثيراً من العناية خصوصاً عندما يلجأ الباحث أو المهتم - في شكل مباشر أو غير مباشر - إلى تسخير التاريخ في سبيل المصلحة الآنية. إن الحالات الثلاثة التي تم فيها تذكّر وتصوير غيلان الدمشقي في فترات مختلفة تشكل نماذج لبعض الأساليب التي يتم من خلالها تذكّر الماضي في سبيل مواجهة اللحظة الآنية. ففي حالة القاضي عبد الجبار فإن غيلان الدمشقي ظهر كأحد مؤسسي فكر الاعتزال الذي كان القاضي من أهم دعائه.

في هذا السياق تم تصوير غيلان كرجل حكيم يسعى بكل ما أوتي إلى تحقيق العدل والوقوف بموقف قوي لحماية الدين عندما يشتد الخطر عليه خصوصاً من أولئك الذين يدعون تمثيله. إن تصوير غيلان بهذا الشكل في 'فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة' إنما عبر عن سعي القاضي للبحث في التاريخ عما يمكن أن يكون قد شكل أصلاً ومرجعياً ليس فقط لمذهب الاعتزال، الذي كان يمر بوقت صعب، بل للأسرة المأمونية في مجابهتها للمخاطر التي كانت تحدق بها.

أما بالنسبة لابن عساكر فإن صورة غيلان التي قدمها والتي كانت مناقضة تماماً لما جاء من خلال القاضي عبد الجبار كانت أيضاً خلاصة بحث ابن عساكر عن نماذج تاريخية تشكل أساساً لما كان يجري في عهده. لقد بدا غيلان من خلال 'تاريخ مدينة دمشق' كشخص زنديق قام الخلفاء الأمويون بكشف مآربه وخطره على الدين فوضعوا حداً له، وهذه الصورة لا بد من مقارنتها مع سعي الزنكيين آنذاك نحو تأسيس دولة قوية يتولون فيها مهمة حماية الدين. ولذلك فإن ابن عساكر اتجه إلى تشكيل 'فهم عضواني' للتاريخ الذي يعيد نفسه ويكون غيلان فيه هو الأساس للبدع التي ينبغي القضاء عليها.

لقد قدم هيثم حقي مقارنة دقيقة تفادت الوقوع في التبسيط الذي يسترجع الماضي كما هو ليوظفه في ظروف الحاضر. فقد قام بدوره بالربط المباشر بين اللحظة الآنية وما يمر بها من تحديات مع القصة التاريخية، إلا أن الأسلوب الفني الذي تمت من خلاله استعادة شخصية غيلان إضافة إلى الدور السلبي الذي تمتع به سامي قد ساهما في توضيح فكرة عدم إمكانية تحقق الماضي في الحاضر، وبالتالي عدم جدوى الهروب من الواقع الحالي لاستعادة ما مر في الماضي من أحداث.

المصادر والمراجع

- ابن عساكر. تاريخ مدينة دمشق. بيروت: دار الفكر، 1997
- حوراني البرت. الفكر العربي في عصر النهضة. ترجمة: كريم عزقول. بيروت: دار النهار للنشر، 1977
- القاضي عبد الجبار. فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة. تحقيق: فؤاد سيد. الدار التونسية للنشر.
- العظمة عزيز. التراث بين السلطان والتاريخ. الدار البيضاء: عيون المقالات، 1987
- عمارة محمد. مسلمون ثوار. القاهرة: دار الشروق، 1988
- حقي هيثم. الخوف من الديمقراطية. جريدة الحياة. 14 تشرين الثاني 2011

References

- Lindsay James E. Ibn Asakir and Early Islamic History. Princeton: The Darwin Press, 2001
- Mourad S. A. Early Islam between Myth and History. Leiden: Brill, 2006
- The Encyclopedia of Islam. Leiden: Brill, 1995



سلاف علّوش*

بين الشعر والفيس بوك: ومضات للتواصل الاجتماعي

الخلاصة:

تعد المادة المعنونة 'بين الشعر والفيس بوك' إضاءةً أو مقارنةً بسيطةً للتحوّل الذي طرأ على الشعر بين القوائد والمقطعات الشعرية المطبوعة أو المنشورة في الصحف والدوريات، والتي حظيت باهتمام القارئ المهتم بالشعر أصلاً، وبين النص الشعري الأحدث - والأحدث بالمعنى الزمني لا بالمعنى النقدي للمفردة. لقد اختار هذا النص طريقه إلى المتلقي عبر صفحات التواصل الاجتماعي، فغاب عنه القارئ المهتم والقادر على التمييز، فتلك الصفحات هي مجتمع بأكمله وليست منبراً متخصصاً كما هو حال الديوان الشعري أو المجلة أو الجريدة المختصة والتي يحصل عليها قارئٌ تقصّد اقتناءها والاطلاع على ما ضمت بين صفحاتها، فاستطاع هذا القارئ أن يحكم على النص بحسب خبرته أو علمه أو قدرته اللغوية. ضمت المادة تعريفاً بسيطاً لشكل النص الشعري الأكثر رواجاً في صفحات الفيس بوك ذلك الشكل المسمى أدبياً بالومضة الشعرية. وحاولت تقديم الأسباب التي ساقى النص الشعري إلى هذا الاختزال، فالنص مؤثر ومتأثر بالواقع الاجتماعي الذي نعيشه ما أدى به إلى التأثير شبه الإجباري بعصر السرعة الذي نعيشه. كما ضمت أيضاً مجموعة من الومضات لشعراء لم يتم النشر لهم سابقاً في مطبوعاتٍ ورقيةٍ، واقتصرت إبداعاتهم على صفحات التواصل الاجتماعي. وقد تم انتقاء الأسماء عشوائياً من بين الصفحات التي استطعتُ الاطلاع على ما فيها من كتابات. وقد اعتمدتُ تقديم بضعة نصوص لكل شاعر لتبيان شعريته وعدم اقتصارها على جملة إبداعية وردت محض صدفة مع محاولات لتلقي كل نص على حدا وقرائه كمتلقٍ لا كناقد.

* خريجة جامعة البعث - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية 1999، وحائزة على دبلوم التأهيل التربوي 2000، ودبلوم الدراسات العليا في الدراسات الأدبية 2001، وتحضر حالياً رسالة ماجستير في المسرح. نشرت عدة دراسات ومقالات في العديد من الصحف والدوريات منها جريدة الأسبوع الأدبي، ومجلة الموقف الأدبي التابعة لاتحاد الكتاب العرب في سوريا، ومجلة الرافد في الشارقة. فائزة بالمركز الثالث في مسابقة سعاد الصباح قسم النقد في الكويت 2005.



بين زمن كان الشعر فيه تاريخاً قائماً بذاته يسجل الحرب، الحب، المرض، العلم، وزمن آخر أصبح فيه الشعر محاولات جاهدة للتعبير عن فكرة أو المطالبة بحق، محاولات لرفع صوت الكلمة في وجه الرصاصة. وهذا يؤكد لنا ارتباط الكتابة كفكرة وأسلوب وتعبير بالواقع العام الذي يعيشه الإنسان كما يؤكد أيضاً تبدل أسلوب وواقع النص حسب التبدل الحياتي الذي يعيشه الكاتب والمتلقي في آن معاً. فلطالما أثرت السياسة في وقع الكلمة ونهجها ولطالما أثر العلم والتكنولوجيا بها أيضاً، إنها عرضة للتأثير والتأثر طالما استمرت الكلمة والكتابة والإنسان في الوجود.

عود على بدء فإننا نرى التباين بين المنابر المتعددة للكلمة. فمن ذلك الشاعر الذي كان يقول نصاً ويمضي وهو يدرك أن النص غداً محفوظاً في أذهان سامعيه ولا حاجة له للبحث عمن يحتفظ أو ما يحتفظ بما قال، إلى مرحلة التدوين، التي كان الشاعر فيها ينهك نفسه في نحت الكلمة، ونحت منبرها أيضاً، باحثاً عن ورق يحتفظ له باختلاجاته الداخلية، إلى مرحلة افتقدنا فيها ما هو ورقي وأصبح على الكلمة أن تكون سريعة خفيفة تتناسب مع مزاج متلقيها العاجل. فتصدت المشهد أشكال جديدة من الشعر تتناسب وعصر السرعة.

ما الدوافع التي أدت إلى بروز هذه الأشكال الجديدة؟ ثمة سؤال يتعلق بالزمن، فإذا كان الشعر فناً من الفنون الزمانية من حيث هو لوحة لغوية تحرك الأفعال تشكيلها الزماني مع تفاعل إيحائي للمكان وتأثيره في ذات الشاعر فهل نلمس أثراً للزمن الراهن بسرعه الجنونية؟ وللمكان الذي بدأ يضيق حتى حدود اختناق شاغليه؟ هل لهما أثر في الأدب بعامة والشعر بخاصة؟

تخلص الشعر في سيرورته السابقة من كثير من ضوابطه كقافية ووزن ومطلع وخاتمة لينتقل إلى الوزن السريع الذي يتخفف قدر ما استطاع، لنصل إلى ما يسمى بالنص النثري والذي يُطلق عليه الآن اسم قصيدة النثر، ثم لتصبح الومضة هي الأكثر تناسباً مع المنابر المفتوحة للمتلقي والكاتب في آن معاً حيث أصبح الوقت ضيقاً على حد تعبیر الجميع فلا يسمح بدودة أو محاضرة أو أمسية أو ما كان من منابر للتعبير. فما هي تلك الومضة؟ ومن أين أتى هذا المسمى لنص يكاد يضاها أطول النصوص إبداعاً وتألقاً؟

الومضة هي صفة لهذا الشكل المقتبس أو المأخوذ أو المقلد كشعر الهايكو الياباني أو المقطعات الشعرية

الإنكليزية القصيرة جداً، وهي تختلف عن القصيدة القصيرة باتساع فضاء الأخيرة في البوح أو الصورة أو الموسيقى أو المساحة فالومضة أكثر إيجازاً وتكثيفاً واختزالاً.

بعد هذا ربما أمكن لنا مقارنة الومضة بتعريف بسيط: فهي نص أشبه ما يكون بهرق خاطف يتسم بعفوية وبساطة تمكنه من النفاذ إلى الذاكرة للبقاء فيها معتمداً على تركيز عالٍ وكثافةٍ شديدةٍ مردهما انطباع كامل، واحد مستخلص من حالة شعورية أو تأملية أو معرفية عميقة، فهي تتوفر على التركيز والغنى الواضح بالإيحاءات والرموز، وتدفع رقرق وانسياب عضوي بديع لوعي شعري عميق. إذن فالشكل نص مختصر مختزل بأعلى قدرة للاختزال، وأما المضمون فهو مقولات تومض من خلال النص بسرعة خاطفة.

في ظل هذا التخفف أصبحت صفحات التواصل الاجتماعي هي الأكثر حظوة بتعبيرنا واختلاجاتنا، انفعالاتنا وهمومنا ومطالبنا، وأصبح المنبر مفتوحاً لكل من يريد الكتابة فضاعت مقاييس النص بكل أشكاله، وبات الشعر في غالبه ومضة أو خاطرة.

وهذا لا يعني انتفاء وجود النص الطويل الذي يبرز تمكن قائله من لغته الشعرية وقدرته على البوح واستجراح المتلقي للتفاعل والتواطؤ ضمناً مع هذا النص ولكننا سنعرض في هذه الإضاءة مبدئياً للنصوص القصيرة جداً أو الومضات الشعرية التي حظي موقع التواصل الاجتماعي 'فيس بوك' بنشرها على صفحاته كوسيلة لعرض النص بصفته الوسيلة الأقرب والأسهل والأكثر حظوة بالقراء في زمننا هذا بينما سنقوم بإنجاز إضاءة تخص النص الشعري الطويل الذي احتضنه أيضاً هذا الموقع. وهنا نجد أنفسنا في مواقع التواصل الاجتماعي أمام ازدحام للكلمات لا ضابط له إلا الأهواء الشخصية فيما نقول.

كثرت الكتاب والشعراء، أو لنقل كثرت الكتابات والمحاولات الشعرية البسيطة أو العميقة التي تستحق تسمية شعر، بينما غاب القارئ المتمكن من انتقاء ما يمكن تسميته شعراً وما ينتمي إلى الهرطقة اللغوية التي لا طائل منها. وما نحن الآن بصده هو فقط محاولات للتعرف على بعض النصوص الشعرية القصيرة لبعض الأسماء التي لم يتح لها منبر لنصها، أو أنها أثرت البقاء بعيداً عن الضوء في ظل صخب الكلمة وكثرة الذين يقومون بفعل الكتابة اقتراناً بقلّة القراء الذين يميزون الغث من الثمين. وبقيت الأسماء اللامعة سابقاً هي المتعارف عليها كشعراء وروائيين وقاصين ونقاد، وافترقنا لجيل ربما لم يعرف طريقاً ليوصل نصه إلينا سوى تلك الصفحات.

رغم وجود الكثير من النصوص التي لا طائل منها والتي لا تنتمي إلى الأدب لا من قريب ولا من بعيد إلا أننا فعلاً نجد نصاً قد ضاع حقه وحق قائله على تلك الصفحات، فحُرِمَ ثمرة إبداعه كما سرق منه نصه حيث لا مجال للتوثيق أو نسب النص هنا. فنكون قد عدنا أدراجنا إلى ظاهرة السرقات الأدبية وما عاد يعرف من أبداع ماذا. والنماذج كثيرة لهذا الإبداع الذي لا يحظى باهتمام منابرينا، بل وربما يمر كثر عليه دون الالتفات لما ضم النص من حس وصورة. سأحاول هنا أن ألتمس بعضها عليّ أستطيع تسليط الضوء قليلاً على تلك الجملة من الأحاسيس التي لم نسمع صوتها في دورياتنا ودور نشرنا.

”صادروا المغارة ... يا مريم

فبات إيماننا .. في العراء“ (تيسير ناصر)⁽¹⁾

كم من المعاني والصور تتداعى إلى ذهن المتلقي عند قراءة تينك الجمليتين؟ هل هي حقاً مغارة ولد فيها المسيح وباتت مريم تتضرع إلى ربها فتحمل المفهوم الديني البحت حيث أصبحنا مؤمنين بلا نبي ولا رسالة ولا حاضر؟ أم أنها مصادرة فكرية سلبنا فيها إرادة الفكرة والموقف وأصبحنا مسلوبي العقول لا تحكمنا سوى غريزة

القطيع حيث أن تلك المصادرة منعتنا من التعبير فكان لزاماً علينا الاتباع؟ أم أنها مصادرة عاطفية، سلبنا فيها مشاعرنا وموضوعها فأصبحنا محبين بلا محبوب؟ تبقى الأسئلة مفتوحة ونظرة المتلقي أيضاً على النص فكل يأخذ النص إلى أرضية سابقة في نفسه وثقافته ومفاهيمه ويبقى الشاعر المرجع الأوحده لفتح النص.

”ولأنك .. الأنثى الوطن

كان قدري بكِ

أن أنتهي

لاجئاً ... مرتين“ (تيسير ناصر)

هجرة أخرى يحملها الشاعر من نص إلى نص، غربة تتكرر في رفضه للواقع. ولا تزال تتكرر المعاني المفتوحة للتلقي ويبقى الشاعر مفتاحه، هل هي الأنثى الأرض التي نضيع فيها في ترحالنا ولا نعثر على وطن، أم أنها أنثى آدم التي يشعر بالغربة خارجها؟ أهى الأنثى الأم التي تركنا غرباء حاملنا نخرج من رحمها فنبحث عنها في كل النساء ولا نجدها ونعود أدراجنا إليها طلباً لقتل الغربة فنلجأ للخلاص منها ونعاود اللجوء إليها.

”كلهم

كانوا يحصون المسامير في جسد النبي

لم يصغ أحد

لشجن المجدليلة“ (تيسير ناصر)

معاناتنا؟ أم هي معاناة فردية؟ هل الشاعر هو النبي أم هو المجدليلة؟ نحن النبي، والوطن هو المجدليلة؟ نحن المجدليلة، والوطن النبي؟ لم نزل أمام الاحتمالات المتعددة لنص يمنحنا مساحات من التفكير استطاع قائله اختزالها بجملة أو اثنتين.

”الناجون من الحرب

قتلى نسيهم الموت“ (تيسير ناصر)

الموت لا ينسى، ولكننا ميتون بانتظار طابور الرثاء، لا يعرف أحد دوره فيه، نستبق إليه لنحصل على حظ أقل من القهر.

”تشطرنى الحرب

نصفُ

يردُّ .. كل مطلع قهر:

(العين بالعين

... والطفل بالطفل)

وآخر

يضمد بالحب

ما أعطته القذائف.. في نوايانا

فينام قرير القلب

في حدة... أنثاه“ (تيسير ناصر)

وينتقل الشاعر من نص مختزل مكثف إلى نص أكثر رحابة في مفرداته وصوره، نص يحاول تجسيد صورة أو مشهد من مشاهد الحياة ولكنه يتركنا أيضاً أمام حيرة السؤال وسعة الخيال. نص لم يجد متنفساً سوى صفحات الفيس بوك التي حرمتها ألقه كما حرمته متلقياً متمحصاً يحاول الدخول إلى كنه النص والتفاعل معه. وحرمتنا أيضاً حالة من التحليق في فضاء نص أسر لطالما تمنينا أن نكون قائله، ولطالما حاولنا أن نكون على قدره من التعبير والإحساس.

”كيف لنا أن نكون اثنين وأنا لا أعرف سوى أنك أني،

وكيف للحياة أن تجعلك غريباً، وأنت روح تعرفني أكثر مني“ (ألمى جاد)⁽²⁾

لا أكثر من ذلك اختزالاً لتعريف الحب أو التماهي. نصل إلى الفكرة لنبقى في حيرة موضوعها الذي تعرفه الكاتبة وحدها، أهو الله الذي يذوب فينا فيكوننا ونكونه؟ أم أنه معشوق لحالة حب تتملكنا؟ أم هو وطن لا نكون خارجه ولا يحمل معناه إن أخرجناه منا؟

”وأنت تذهب في النسيان

تذكر أن

عطري مازال يجري الآن في دمك“ (ألمى جاد)

هي الأنثى الباقية التي لن يصل يوماً إلى نسيانها مهما حاول، هي قصة تطول الصفحات في شرحها إن دخلنا في متاهة الحب والتعلق والفقد والفرق والذاكرة، اختزلتها الشاعرة بجملتين تفضيان إلى استحالة محوها من الذاكرة..

”الحزن أكبر من لص يتسلل في الأعماق خلصة

الحزن.. قنّاص يصيب الروح بمهارة“ (ألمى جاد)

لنا أيضاً أن نكتب صفحات في تعريف وشرح أحزاننا وأسبابها ونتائجها، بينما تومض لنا الشاعرة بتعريف شدة في الاختزال للحزن بعبارة أدبية وصورة مختلفة عن المألوف.

”هذا الشتاء قاس

لعل ليالي الشتاء جرّحها البرد كثيراً

وهواء الشتاء يشبه الغياب ... يشبهني

أناديك

والريح تخذش صوتي!“ (ألمى جاد)

الشاعرة ذاتها تخطو بنا خطوة من ومضتها إلى سعة أكبر في الكلام، فتقدم الصورة والانفعال بمفردات أكثر فرماً تصل بنا إلى تحديد أكبر لموضوعها وتحاول تسليمنا مفتاح نصها بذلك.

”الحنين في القلب كحصان

لا يرفع ساقاً إلا ليضع أخرى“ (بيسان خير بيك)⁽³⁾

<https://www.facebook.com/alma779?fref=ts> 2

<https://www.facebook.com/bissan.kherbic?fref=ts> 3

ذلك الألم الذي يملكنا فلا يترك منا ذرة من جسد أو ذاكرة إلا ويحتلها، حين يملكنا الحنين كان حصاناً تحفر دعسات أقدامه في قلوبنا حُلماً بعد آخر، في رؤية كاتبة النص أو لنقل مبتكرة الصورة، أومضت لنا فاخترت وأبدعت.

”يَدُكَ فِي يَدِي

نَهْرٌ يَصُبُّ فِي مَنْبَعِهِ“ (بيسان خير بيك)

تلك اليد التي تحولت نهراً ينتهي هديره في تلك الكف التي تتلقى.

”على عتبة العالم أقف كالباب

بعينه الثاقبة وبيده القصيرة“ (بيسان خير بيك)

كم من احتمالات المعنى يحمل ذاك النص المقتضب أهى باب على عالم مفتوح بلا حدود أم أنه عالم يتجسد بقلب حبيب. أم هو رصيف الذكريات؟ أم؟ كم من التساؤلات يفتحها أمامك نص ما تعدى بضع مفردات فكان قصيدة طويلة في احتمالاته.

”أضع يدي على ورقة بيضاء وأمرّر القلم بين أصابعي

وفي الرسمة كانت كفى تشبهي

شبه جزيرة مفتوحة لجهة القلب فقط“ (بيسان خير بيك)

تخرج الشاعرة من المشهد الخاطف لترسم مشهداً أرحب لك فيه أن ترى الصورة واضحة، وتترك لك مساحة أيضاً كي تكون جزءاً من الصورة. وكي تبهن أن من يومض في إحساسه ليس بعاجز عن الإطالة فهو يملكها أئى شاء فرد المساحة الأوسع لنا معرفة ولكنها المساحة الأقل خيالاً.

”جاء الوقت ضيقاً هذه المرة

لا أنا عبرت إليك ولا القدر نجح في إبعادك عني“ (محمود الشاعر)⁽⁴⁾

كأن الوقت ضيف يحل بتوقيت محدد فيختصر فيه الشاعر ضيق نفسه وجدران ذاكرته التي تحبسه فيها خارج وقت العالم الواقعي.

”كم مَضَى بِكَ الوقت إلى اللا وقت

قال: العُشاق يَسْكُنون في الأبد وَنَحْنُ وَقَعْهم في دَمِ النور“ (محمود الشاعر)

يبقى شاعرنا حبيس دائرة الوقت لكنه يحاول تجريب تأثير هذا الوقت فينا علنا نصل وإياه من خلال مفرداته إلى بقعة واحدة من الإحساس فنمتزج مع نصه ووقته.

”يَمِ الوقت

قريباً من باب الغد يقف وحيداً

دون صديق ولا حبيبة

وحيد مثل شجرة التل الذي شهد الحب والحرب

وحيد كزهرة في كتاب

ينتصب الوحيد أمام الغد

كفنجان قهوة على طاولة سلب الموت كرسياها“ (محمود الشاعر)

ينتقل بنا الشاعر من ومضة إلى خاطرة لكنه يبقى يدور في حلقة الوقت فيوحي لنا بضيقه في وجهه وإحساسه بقرب الموت منه في كل لحظة، ينتقل إلى الخاطرة ليقدم لنا شرحاً عن نفسه المرصودة في انفعالات النص ومفرداته.

”أين يهرب النوم في عتمة الليل ... أيعقل

أن يبقى الحلم مستيقظاً في انتظاري؟؟“ (قاسم مصطفى البرباري)⁽⁵⁾

وهل ينام الحلم أصلاً؟ أو أنها تلك الأعذار التي تمنحها لأحلامنا حين تهجرنا وتمضي؟ وهل هو الحلم الذي يزورنا في النوم؟ أو هو الحلم الذي يمنحنا الحياة ونحن ننتظر الموت على شرفته؟

”وقف القلب خاشعاً

لذكرى ... عليها تكون صلاتنا الأخيرة“ (قاسم مصطفى البرباري)

أو نستطيع ختم باب القلب في وجه الذكرى؟ أم هي آمنيات لا تتحقق ونبقى دائمي الصلاة لذكريات مرت؟

”عندما يللمل النهار ضجيجيه ويرحل أتجول بين الأزقة

أزرع أوراق أحلامي عليها تكبر وحدها فتتحقق“ (قاسم مصطفى البرباري)

يمر أحدها فيراه كلاماً عادياً سطر على وجه صفحة الكترونية ويمضي ربما دون أن يلتفت أننا حقاً نزرع الأحلام. نزرعها في دواخلنا، في شوارع من نحب، وفي أزقة الأمكنة التي نعشق، الأحلام أيضاً تكبر، وتنتظر المطر.

تبقى الفروقات قائمة بين شاعر وآخر، فهناك من يكتب ليصلك إحساسه فيبدع في الإيصال، ومنهم من يكتب فيبهرك بصوره المحبوبة كمشهد مترامي الأطراف والأبعاد. لوحة لك فيها أن تذهب بخيالك وتخترع معادلاً للنص في نفسك، فيدهشك ويمحك فضاء أكبر مع النص من نص واضح المعالم والحدود.

لنا الآن أن نرى فضائل الفضاءات الإلكترونية على نصوصنا المستقلية هنا وهناك، فقد حصل النص على سرعة أكبر في الانتشار والتلقي وعلى فضاء أوسع من صالة للإلقاء في مدينة أو بلد. ورغم الظلم الواقع على ذاك النص والشاعر، فكم من احتمالات تدمير صفحة ضمت كل خلجات وتاريخ صاحبها لتتحول من تأريخ إلى ممحاة؟

لكن إذن ذاك العشب الذي تنهمر فوقه قطرات ندى هؤلاء الشعراء فيلتمع خضرة وامتناناً لحالات عميقة من الإحساس خلقوها فينا، وليغفروا لنا أنهم ما وجدوا منبراً يستحق وقع خطا كلماتهم وإحساسهم. ولكن تلك المساحة البيضاء أمامهم ليصبوا فيها ومضاتهم فيكون خيالنا القصيدة.





فيكتور يوس بيان شمس*

السينما كمعبر عن تفاوت الصراع

الخلاصة:

الريح، هو واحد من الغايات الأساسية لصناعة السينما، ومضمون العمل السينمائي، غابة أخرى، وشرط أساسي من شروط وصوله وتسويقه. والسينما كغيرها من الفنون التي تتفاعل مع الواقع، تأخذ منه، وتساهم في بناء ورفع سوية الوعي والثقافة المجتمعية. تعبّر الأعمال التي نوقشت-في هذه الدراسة- عن طرق مختلفة في علاج قضية واحدة، ما زالت الشعوب العربية ترزح تحت تأثيرها إلى اليوم. المسألة الأساس فيها، أن كل عمل عالج هذه القضية من زاوية تتوافق ليس فقط مع رؤيته، بل مع مصالحه أيضاً، عدا عن أنه حاول التوفيق بين الشرطين السابقين 'الريح، والمضمون'. هذا ما برز بوضوح في الأعمال الثلاثة التي نوقشت. فـ 'الطريق إلى إيلات' حاول من خلال السرد والتصوير والتوصيف كلغة مفهومة للشريحة العربية الأوسع والأبسط، تبييض صفحة النظام العربي في طور الهزيمة التي تعاني منها الأمة العربية، من خلال 'عملٍ بطوليٍّ' لا يخلو من التشويه الميلودرامي الذي وصل حدود التزوير والديماغوجية في مشاهد كثيرة، وهو فيلمٌ له مهمةٌ محدّدةٌ واحدة: تضليل الوعي العربي كشرطٍ لاستمرار النظام. أما الفيلم الإيطالي 'الحياة حلوة' فقد حقّق الشرطين 'الريح، والمضمون' بلغةٍ أيديولوجيةٍ متعدّدة المعاني، تخاطب كل واحدة منها جمهوراً مختلفاً عن الآخر. بينما صيغ فيلم 'الزمن الباقي' بطريقةٍ قلّما اعتُمدت في السينما العربية. حاول فيه مخرجه توصيف القضية الفلسطينية بطريقةٍ ذكية، لكنها جاءت بلغةٍ واحدةٍ مليئةٍ بالرموز والدلالات التي قد تستعصي على المشاهد العربي العادي. وقد بدا الفيلم وكأنه يستكمل ما انتهى عنده روبرتو بينيني في فيلمه 'الحياة حلوة'؛ أي نشوء إسرائيل بزوال فلسطين. إذًا، لعبت السينما دوراً جوهرياً في بناء الوعي تجاه قضايا الشأن العام تارةً، وتشويهه تارةً أخرى، فكانت كسلاح ذي حدين، يؤدّي الغرض لمن أحسن استخدامه. في الحالتين كان المشاهد العربي ضحيتها كما هو ضحية واقع بات يسعى لتغييره. هل ستنتج الحركة الثقافية العربية سينما أخرى تعبّر عن واقعها بشكل منسجم مع وعي المشاهد العربي؟ هذا مرهونٌ ومشروطٌ بقدرتها على تغيير واقعها، أي هدم الوعي السائد، لبناء وعيٍ ممكنٍ آخر، لأن الواقع يحدّد الوعي وليس العكس، فالوعي الجمعي العام يختلف في طور النصر، عنه في طور الهزيمة. هذا ما يفسّر الهوة الثقافية التي تلمسنا بعضاً من آثارها في بضعة أعمال سينمائية.

* كاتب سوري مقيم في القاهرة منذ أواسط العام 2012 بعد أن انتسب إلى 'ائتلاف اليسار السوري'. عمل في صفوف 'اتحاد الشباب الديمقراطي السوري' منذ العام 1995 وحتى 1998، ثم في 'الحزب الديمقراطي الشعبي' في لبنان منذ العام 1999 وحتى أواسط العام 2011 حيث تركه بعد أن اتخذ الحزب موقفاً مؤيداً للنظام السوري. درس العلوم السياسية والإدارية في الجامعة اللبنانية ببيروت، وله مساهمات في عدد من الصحف والمجلات والمواقع السورية والعربية.



مقدمة

بنت إسرائيل بعد نشوئها في العام 1948 كيائها السياسي على مجموعة من الأساطير، والأوهام الدينية التي تعتبر الآخرين 'أغيار'، سخرهم الله لخدمة بني إسرائيل، سعى الكيان على وقعة وترسيخ مجموعة من الشعارات: 'فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض'، وبحسب الرواية التلمودية: "حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل". وقد حرص هذا الكيان على تقديم نموذج 'حضاري ديمقراطي' في منطقة تحكمها نُظُم استبدادية، ستثبت الأحداث اللاحقة في المنطقة حاجة هذا الكيان لهذه الأنظمة، بدليل تصريح رئيس وزراء العدو السابق يهود باراك إبّان قيام الثورة المصرية: "بيننا وبين مصر اتفاقية، لكن فيما بيننا وبين النظام السوري تفاهم غير معلن ضمن حدودنا لعقود طويلة"، وهو ما أكّده في بداية الأحداث في سوريا، تصريح رامي مخلوف ابن خال بشار الأسد، وواجهة النظام المافيوية الاقتصادية عندما قال في 11 أيار 2011: "أمن إسرائيل، من أمن سوريا!"

إذاً، مصالح وجودية متبادلة بين كيانات كانت تبدو متعادلة، ثبت لاحقاً أن وجود إحداها شرط لوجود الأخرى، لا تقوم إلا بها. لكن كيف يُترجم هذا على صعيد الثقافة والفنون والأدب، وهي الألوان الأكثر تأثيراً في الوعي الجمعي العام؟

منذ العقد الأخير من القرن الماضي وإلى اليوم، تشهد ساحتنا الثقافية والأدبية هجمة سينمائية شرسة، ذات هويات قومية/لغوية متعدّدة، تسعى بشكل حثيث لتبييض صورة إسرائيل، عبر أفلام مزدوجة اللغة لما تحويه من رسائل متعدّدة تخاطب عدّة نماذج من العقول. والسينما، مثلها مثل باقي الفنون، الرسم والموسيقى والمسرح والرواية والقصيدة والأغنية وغيرها، قائمة على قاعدة بسيطة ساذجة مفادها أن 'الفن لغة العالم'، وهي للأمانة لغة خطيرة عابرة للعقول والقلوب، تستطيع أن تفعل وتؤثّر، أكثر بكثير من فعل المدافع والطائرات.

فيلم 'الحياة حلوة'

وفي تدليلاً على ذلك نبحث في فيلم إيطالي للمخرج والممثل الشهير 'روبرتو بينيني Roberto Benigni'، عنوانه 'الحياة حلوة Life is Beautiful'. يقع الفيلم في ساعة وستة وخمسين دقيقة، وقد كُلف إنتاجه 2 مليون دولار أميركي، وهو أعلى رقم يسجله إنتاج فيلم سينمائي إيطالي حتى اليوم، ساهمت في إنتاجه شركات إيطالية هي: 'ميلامبو سينماتوغرافيا Melampo Cinematografica' و'مجموعة غيتشي غوري Gecci Gori Group'. عُرض الفيلم عام 1997. والمفارقة، أنه عرض في حوالي 30 دولة ليس منها إسرائيل، وسجل أرباحاً فاقت 230 مليون دولار.

يتحدث الفيلم الذي رشح لسبع جوائز 'أوسكار' ونال منها ثلاث، عن شاب يهودي إيطالي يُدعى 'جويدو Guido'، يغادر مدينته في فترة الحرب العالمية الثانية مع صديقه إلى مدينة أخرى يعيش فيها عمّه الذي يملك فندقاً فاخراً فيها، ليعمل عنده كنادل. وفي الطريق إلى المدينة تتعطل سيارته، وبينما يصلحها صديقه يذهب إلى مزرعة قريبة لغسل يديه، فتسقط سيدة تدعى 'دورا Dora' من أعلى سطح المزرعة ليتلقفها جويدو بين ذراعيه، ويعالجها من لسعات تعرّضت لها. وبحوار سريع، عرّف عن نفسه بالـ 'أمير'، كما خاطب السيدة الشابة دورا بالـ 'أميرة'.

غادر جويدو المزرعة محملاً ببعض البيض الدجاج كعربون اعتراف على ما فعله. ثم بعد الوصول إلى المدينة والعمل فيها، يحاول الشاب الحصول على رخصة لإنشاء مكتبة، فيتعرّض بإجراءات روتينية تعيقه بعض الشيء، ليكون البيض الذي في جيبه ردّ قذري على كل من يتسبب في تعرّضه. هذا ما حدث مع أحد موظفي البلدية الذين امتنعوا عن توقيع طلبه لإنشاء المكتبة.

والفيلم بدقائقه الـ 116 لا يخلو من المواقف القدرية الكثيرة التي ترمي بجويدو بأحضان دورا كيفما التفت، فها هو يقع عليها أثناء هروبه على دراجة هوائية من أحدهم عند أحد المفترقات، ولا يوفر فرصة انتحال شخصية مفتش التربية ليزور المدرسة التي تعمل بها، أو لقاء بالصدفة في ساحة عامة. مواقف كثيرة من هذا النوع يتخلّلها الفيلم.

أما دورا، والتي كانت مخطوبة لأحد الضباط الفاشيين في تلك الحقبة، فقد بدأت تبادل جويدو المشاعر لدرجة أنها طلبت منه في الحفلة المقامة بفندق عمه أن يختطفها، وهذا ما حدث فعلاً على حسان عمّه الذي كتب عليه الفاشيون عبارات مسيئة لليهود بعد أن صبغ باللون الأخضر. تزوج جويدو من دورا، وأنجب 'يوشع Joshua' الذي يحلم بدبابة حقيقية، ثم افتتح مكتبته، إلا أن الفرحة لم تكتمل، فاعتقل جويدو وابنه، واقتيدوا إلى معسكرات العمل الشاق الفاشية، لانتظار مصيرهم. عندما اكتشفت الأم دورا ما حدث، اتخذت قرارها ولحقت بهم لتشارك زوجها وابنها المصير ذاته.

يُلحّ الطفل يوشع بالأسئلة على أبيه، يريد أن يعرف إلى أين يذهبون، ولماذا. وما أنّه كان وحيد أباه الذي يخاف عليه من معرفة الحقيقة، يقنعه الوالد بأنهم ذاهبون ليلعبوا لعبة قاسية بعض الشيء، لكن الرابح فيها سيحصل في النهاية على ما يريد ويحلم، والطفل هنا يحلم بالدبابة. واقعان يُعاشان في نفس المكان؛ واحد حقيقي، يعاني فيه الأب ما يعاني في المعسكر الفاشي. وآخر وهمي، يحاول جويدو أن يصوّر لابنه لإبعاده عن هذا الواقع المرعب الذي آلت حالهم إليه.

يتعلّق جويدو بالأمال مهما كانت ضعيفة أو شبه معدومة، يراهن على الضابط الفاشي الذي كان يخدمه في

مطعم عمّه قبل الاعتقال، إلا أن كل آماله تبخّرت أمام سطحية الضابط، وأنانيته، ونرجسيته، التي لم تستطع أن تخرج إلى الفضاء الإنساني الأرحب، ليشعر بمأساة هذا النادل المعتقل.

فجأة يشعر المعتقلون بأن شيئاً ما يحدث في الخارج، ليتكهّن البعض بأن الجنود يقومون بتصفية بعض المعتقلين تمهيداً لمغادرة المكان. يخرج جويدو وابنه لعله يجد زوجته ليهربوا معاً، فيخبّئ ابنه في مكان ما في ساحة المعسكر، ويبدأ بالبحث منفرداً، وعندما اكتشف أمره، اقتيد من قبل جندي إلى حتفه، حيث قتل بكل بساطة.

مع انبلاج فجر اليوم التالي، كانت ساحة المعسكر خالية تماماً، إلا من بعض الفوضى والدخان، خرج الطفل من مخبئه ليفاجأ بدبابة أميركية تقتحم ساحة المعسكر، ثم ينقله جندي على ظهر هذه الدبابة التي ظهرت له وكأنها الحلم الموعود الذي تحقّق إلى أمه خارج المعتقل، وليصرخاً معاً: "انتصرنا!"

في نقاش الفيلم

هذا هو الفيلم باختصار. والسؤال هنا: ما الرسالة التي حاول الفيلم إيصالها؟ العنف الفاشية مثلاً؟ إظهار المأساة اليهودية 'الهولوكوست'؟ حالة إنسانية تتعلّق بعائلة خاضت تجربة قاسية؟

الفيلم يحتوي كل هذا، عدا عن ذلك فإن هذه الأفكار وصلت عبر العديد من الأعمال سواء السينمائية أو غيرها، وسيصبح من الابتذال تكرارها بفيلم ضخم لروبرتو بينيني.

المسألة بحاجة لعين تستطيع اختراق ما يستبطن الفيلم من رسائل أيديولوجية عميقة، فهو عمل مغرق بالرموز والدلالات الهامة، ويخاطب أكثر من شريحة، كلّ حسب فهمه، إضافة إلى أن هناك عامل آخر يتحكّم بصناعة السينما، وهو عامل الربح. بمعنى: أن العمل الناجح، هو العمل الذي يستطيع التوفيق، بين مسألة الربح، ومسألة الرسالة السياسية الموجهة للنخبة، التي قد تكون مغلفة بمظهر إنساني يستطيع الوصول لكل الفئات والشرائح الثقافية.

في المعنى الثاني أدّى الفيلم رسالته تماماً، أي أنه استطاع استجلاب التعاطف مع حالة إنسانية، خيضت في تلك الحقبة فعلاً. لكن لبّ المسألة يكمن في الشق الأول، أي بالرسالة السياسية الموجهة للنخبة.

يلمّ مشهد دخول الدبابة الأميركية شعث الفيلم كله، على طريقة الخطف الخلفي في كتابة الأدب، أي أن مفتاح فهم الفيلم، يبتدئ من هنا. ماذا لو حملت القوات المقتحمة لساحة المعسكر العلم البريطاني، أو الفرنسي، أو الروسي، أو أي من دول الحلف آنذاك؟ هل سيتغيّر معنى الرسالة التي أراد مخرج العمل إيصالها؟ بالإجابة على هذا السؤال المفتاحي يتحدّد المعنى الحقيقي للعمل، ففي مرحلة أفول نجم بريطانيا عن منطقتنا، سطع نجم الولايات المتحدة الأميركية، مع أنهما خاضتا الحرب العالمية الثانية وانتصرتا معاً!

بالعودة لشخصيات الفيلم الرئيسية، حاول المخرج تصوير الأب جويدو على أنه الشخصية الأكثر تعقيداً وتركيباً، فهي تمثّل الماضي السيئ لليهود في تلك الفترة من الحرب العالمية الثانية. أي الماضي الذي سيعاني المأساة بكل تفاصيلها، وهو الماضي الذي ما فتئ القدر يرميه على تلك الأميرة الجميلة، وأحياناً يرميها عليه، إنها أرض الحلم الموعودة، هناك حيث كما صرّح شمعون بيريز في العام 2008 في الذكرى الـ 60 لتأسيس الكيان: "إسرائيل دولة ولدت منذ ثلاثة آلاف عام، وهي اليوم في السّتين من عمرها". إنها أرض فلسطين التي منها انطلقت كل المزايم والأساطير. وجويدو هو الماضي الذي كان ينتج بالتزاوج مع تلك الأرض ذاك الحلم، والحلم هنا هو ذلك الابن البريء الذي يبحث عن مستقبل يتوقعن فيه. نتج عن المأساة وعاشها، وكان الماضي الذي مات مع موت

أوروبا الفاشية يخاطبه مطمئناً: ستنجو يا صغيري وتكبر 'ستتوقعن'. وهذا الابن يوشع في حاجة لقوة حقيقية توصله إلى بر الأمان بانتهاء المأساة، بحاجة لتحقيق حلمه، وها هو الحلم يتحقق بانتهاء تلك الحقبة السيئة من تاريخ أوروبا، ليخرج من ذلك التاريخ، منتصراً على ظهر دبابة، هي وحدها الكفيلة بإيصاله لأحضان أمه بأمان. أليست "فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض"؟

إذاً، طرح الفيلم قضية قيام هذا الكيان بطريقة فنيّة غاية في الذكاء والمكر والدهاء، تستجلب العطف وتوصل الرسائل بلغتين، تغلف إحداها الأخرى، واحدة إنسانية بسيطة، والأخرى أيديولوجية معقدة. لكن، هل استطاعت السينما العربية تقديم شيء يضاهي ما طرحه روبرتو بينيني؟ سنأخذ هنا نموذجين، واحد فلسطيني، والآخر عربي، علّنا نتلمّس شيئاً.

في السينما الفلسطينية

في العام 2009، عُرض في 'مهرجان كان' السينمائي الـ 60 فيلماً للمخرج الفلسطيني إيليا سليمان، الذي شاركت في صناعته مجموعة كبيرة من شركات الإنتاج، فمن فرنسا 'Film The' و'Nazira Films' و'France 3 Cinema'، ومن بلجيكا 'Artemis Films'، ومن الإمارات العربية المتحدة 'MBC Group'، إضافة إلى دعم من شركة 'Programme MEDIA de la Communauté Européenne' التابعة للاتحاد الأوروبي.

يقع فيلم 'الزمن الباقي' في ساعة وأربعة وأربعين دقيقة، ويؤرخ لنكبة العرب في فلسطين العام 1948 من خلال عائلة المخرج نفسه، وهي عائلة مسيحية من مدينة الناصرة، تشهد على عمليات اقتحام المنظمات الصهيونية لمدينة الناصرة وتهجير سكّانها إلى الدول العربية المحيطة بفلسطين، وكيف أمضى رئيس بلدية هذه المدينة وثيقة الاستسلام بمباركة دينية من جميع المرجعيات التي كانت موجودة في المدينة. جرى هذا بعد انكسار القوات العربية المشاركة في الحرب وانسحابها منها. قاوم من بقي في الناصرة بقدر استطاعتهم، ومنهم فؤاد سليمان والد المخرج، إلى أن تغيّرت الأحوال بعد سنوات بحيث حاز فؤاد سليمان على رخصة صيد من سلطات الاحتلال، وتفرّغ لعمله في ورشته وعائلته.

بدأ ابنه يكبر، وتغيّرت طرق النضال. فما عجز عنه الكبار، حاول أن يوجده فؤاد بابنه إيليا، تُدَلُّ على ذلك مشاهد توبيخ أستاذ المدرسة لإيليا الذي كان يتحدث لزملائه عن 'الإمبريالية الأميركية'، ليسأله الأستاذ موبّخاً: "من قال لك أن أميركا إمبريالية؟! ثم كيف تتحدّث بهذه الأمور في المدرسة؟!". يكبر فؤاد سليمان ويكبر ابنه معه، إلى أن يمرض ويموت، ليكمل إيليا الطريق. من هنا يعرض الفيلم مرحلة جديدة كان فيها إيليا مسافراً، ثم عاد إلى أرض الوطن، ليكمل حياته مع أمه التي كانت في آخر سنوات حياتها، يتناهشها المرض.

يذهب إيليا في رحلة استطلاعية إلى مدينة رام الله في الضفة الغربية، ليجد أن الناس تعيش حياة عادية، تذهب إلى الحانات والمراقص، تتعاش مع مواجهة الاحتلال بشكل روتيني، فلا الدبابة تخيفهم، ولا تحذيرات دوريات الاحتلال التي تصرخ عبر مكبرات الصوت معلنة عن بدء حظر التجول تثنيهم عن الرقص في الملاهي الليلية التي يرتادونها. لكن إيليا يصطدم بالجدار العازل بين الضفة وبقية فلسطين التاريخية، الذي يسهل القفز من فوقه عبر خشبة الزانة. هذا هو الفيلم باختصار.

في نقاش الفيلم

حاول إيليا سليمان أن يؤرخ لاحتلال فلسطين بطريقة ذكية، بحيث أخذ عائلته نموذجاً لتمرر الأحداث في بقعة صغيرة، هي مدينة الناصرة. يعرض الفيلم الهروب المخزي لكتيبة عربية بعد أن تركت ثيابها العسكرية في الطريق، لترتديها عناصر عصابة 'الهاغانا' الصهيونية، وتعود للمدينة التي حُذت بهم، فاستقبلتهم 'بالزغاريد' والتي سرعان ما اكتشفت، أن النعجة ليست سوى الذئب الذي انتزع جلدها، ليتقنّع به.

حاول الفيلم إظهار حالة من التعايش الحذر بين سكان البلاد الأصليين، والمحتلّين الجدد. فالمحتل الجديد أصبح يتذوّق التوبة، وقد يعمل خادماً في بيتك. ثم أن شرطي المرور عندهم أصبح كشرطي المرور في عالمنا العربي، يمرّر من يريد، ويوقف من يريد. إضافة إلى أن الناس في أراضى 1948 أصبحت متعايشة مع الاحتلال وقوانينه وثقافته، بحيث أنك ترى مجموعة من التلاميذ العرب يغتوّن في مدرستهم لذكرى استقلال إسرائيل رافعين أعلامها بأيديهم، يجري هذا بحضور المسؤولين التربويين الإسرائيليين.

أسقط إيليا سليمان بعض الخطابات الحماسية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر على بعض المشاهد الأشد هدوءاً في الناصرة، في محاولة سوربالية لإظهار الصخب الخارجي المتزامن مع هدوء داخلي، ربّما يكون نابغاً عن عجز، أو يأس أو إحباط طال المجتمع الداخلي برّمته.

في القفزة الزمنية الممتدة من لحظة اختفاء الوالد فؤاد سليمان عن مشاهد الفيلم، إلى اللحظة التي ظهر فيها إيليا كشخصية رئيسية تكمل ما تبقى من دقائق الفيلم بصمت مطلق. غيّب المخرج مرحلة مهمة جداً، وهي مرحلة السبعينيات من القرن الماضي والتي شهدت حرب أكتوبر من العام 1973، وهي الحرب التي بنى عليها النظام السوري منظومة تسلّطه وتحكّمه بالمجتمع السوري، لا بل والمجتمع اللبناني الذي مزقته الحرب الأهلية بعدها بسنوات. أمّا على الجانب المصري، فما زال النظام إلى اليوم محكوماً باتفاقية 'كامب ديفيد' التي كانت سبباً في عزل مصر عن محيطها العربي لسنوات طويلة، وقد قيّدتا بسلاسل الاتفاقيات المجحفة التي وقع الشعب المصري ضحيتها إلى اليوم.

إذاً، يظهر فجأة إيليا الصامت، ليقدم له شرطي إسرائيلي طبق التوبة مرحباً بعودته، ويهتم بشؤون منزلهم، ثم يعود إيليا ليجلس مع أصدقائه على نفس المقهى الذي كان يجلس والده عليها، قبل النكبة وبعدها. ثم يزور الضفة الغربية ليتعرف على واقع آخر مغاير، واقع تأثّر بالمتغيّرات الخارجية، بحيث سيطرت عليه ثقافة أخرى، أخذت جيل الشباب من بعد اتفاقية 'غزة-أريحا' في 13 أيلول/سبتمبر 1993 ليتشابه مع جيل الشباب في محيطه العربي وغير العربي. إذ تغيّر نمط الحياة، وطرق النضال، وأصبح التعااطي مع الاحتلال على أنه سلطة يجب مناهضتها، وليس احتلالاً تجب مقاومته.

هذا لا يعني أن روح التحدي، أو المواجهة قد خفتت، بدليل مشهد الدبابة الرابضة على باب أحد البيوت، تحرك مدفعها على ساكن البيت كيفما التفت، لكن التعامل ما بين الصهاينة والفلسطينيين، أخذ شكلاً آخر، له علاقة بالمتغيّرات، متأثراً، ومؤثراً بها.

ومن خلاصات الفيلم المهمة التي يستطيع المشاهد استنتاجها: الاختلاف الثقافي والديموغرافي والنضالي بين فلسطين 1948، و فلسطين 1967، والتي عبّر عنها جدار الفصل العنصري أيما تعبير.

الفيلم ذكي، ومليء كسابقه بالرموز والدلالات التي استخدمت في مكانها لاختصار عقود من الزمن بحبكات 'ميلودرامية' تجمع بطريقة موفقة ما بين البساطة والتعقيد، وكأنه تكملة لما بدأه فيلم 'الحياة حلوة' لروبرتو

بينيني، فهو يؤرّخ للمرحلة التي انتهى عندها هذا الفيلم، لبدأ فيلم 'الزمن الباقي' بتكملة الحكاية التي كانت شرحاً وتفسيراً وتبريراً للواقع الفلسطيني الجديد، أكثر منها وعظاً وإرشاداً، أو ادعاءً لبطولات سينمائية فارغة من أي مضمون. هذا على الجانب الفلسطيني، لكن ماذا عن الجانب العربي؟

السينما العربية

قلنا سابقاً أن للسينما غايتين لا تنفصلان عن بعضهما، واحدة تتعلق بالربح، والأخرى تتعلق بمضمون المنتج، الذي يجب أن يتناسب وذوق المستهلك. والسينما في بلادنا، مثلها مثل باقي الفنون، تخضع لمواصفات تحددها الطبقات السائدة، أي الحاكمة. ولهذا، سيكون أي إنتاج عربي خالص محكوم بالترويج لرؤية السلطة التي لا تنهزم ولا تكسر في الصراع مع العدو، مثالنا على ذلك الفيلم المصري الشهير 'الطريق إلى إيلات' الذي عرض للمرة الأولى في العام 1993، للمخرج المصري إنعام محمد علي، ومن إنتاج قطاع الإنتاج المصري، وهو قطاع حكومي. بتكلفة غير معروفة على وجه الدقة.

يتحدث الفيلم عن عملية عسكرية نوعية تتطلب خبرة من نوع خاص، لن يستطيع تنفيذها سوى رجال الضفادع البشرية، وقد كلفت مجموعة مصرية بالتدريب على الغوص لمسافات طويلة لضرب ثلاثة أهداف إسرائيلية هي: ناقلة الجنود 'باتشيفغ'، وناقلة العتاد 'باتيام'، والرصيف الحربي لميناء مدينة إيلات.

تخلل العملية صعوبات كثيرة، يستطيع الفريق التغلب عليها، ومن ثم ينفذ ما ذهب من أجله، تظهر في الفيلم شخصية أبو هاني الذي يبدو كأحد المتعاملين مع 'الأمن المصري' وهو يساهم في تسهيل تلك العملية، بحيث يظهر مع الجنود في مصر، والأردن قبل التنفيذ. ويظهر أيضاً بعض الفدائيين الفلسطينيين، يواكبون العناصر المصرية حتى لحظات ما قبل انطلاق العملية.

احتوى الفيلم على مشاهد لإثارة المشاهدين، كمشهد تمدد الصاعق، مما اقتضى حقه من قبل أحد الضباط المصريين ليتمكّنوا من إدخاله في 'التوربين' المتفجّر، عدا عن مشاهد عاطفية من قبيل ضعف أحد الجنود المشاركين، والذي انهار عندما علم في اللحظات الأخيرة بمضمون العملية.

في نقاش الفيلم

غرق الفيلم، الذي حقّق نجاحاً باهراً بالمبالغات التي وصلت حد التزوير، فأبو هاني الذي هُمّش دوره في العملية، هو وديع حدّاد ابن صدف الفلسطينية المتوفي في ألمانيا الشرقية عام 1978، والذي ناضل في صفوف 'حركة القوميين العرب' ثم في 'الجهبة الشعبية لتحرير فلسطين' التي أسست عام 1967 مع رفيقه جورج حبش الذي توفي في عمان عام 2008. ووديح حداد هو ذاك الطبيب الذي كتبت عنه 'الواشنطن بوست' عند وفاته معنونة صفحتها الأولى بوصفه: "الطبيب الذي قبض على مطارات العالم ذات مرة".

كان وديع حداد عزّاب المنظمات الثورية التي قاتلت من أجل فلسطين، 'كالجيش الأحمر الياباني'، ومجموعة العمل المباشر الفرنسية، و'الألوية الحمراء الإيطالية'، و'بادر-ماينهوف' الألمانية، وغيرها الكثير الكثير. كانت كل هذه المنظمات تعتبر هذا الرجل مرجعيتها، وهو من كان يعلن عن العمليات التي تنفذ ضد الكيان الصهيوني، وهو من يفاوض لمبادلة المخطوفين بالأسرى. كان وديع حدّاد رقماً صعباً في معادلة الصراع مع العدو الصهيوني الذي تمكّن من اغتياله بالسم، وبأيدي عربية.

إذاً ببساطة، هُمّش هذا الرجل الذي أنجز العملية من ألفها إلى ياءها، لكنه بكل بساطة بحسب الفيلم، تعرّج حاجته لعناصر نوعية غير موجودة في المنظّمات الثورية التي كانت تعمل تحت إشرافه، لكنها موجودة بالجيوش العربية النظامية، لامتلاكها للقدرات والتقنيات اللازمة، فلجأ إلى الرئيس جمال عبد الناصر حينها، شارحاً له عن تفاصيل العملية، فوافق الرجل فوراً ومنحه الرجال القادرين على الالتزام التام بالتوجيهات لإنجاز ما هو مطلوب منهم. هذا لم يظهر في الفيلم، بل ظهر عكسه. بالإضافة إلى أن العملية بحسب رواية آخرين كانوا مقربين من أبو هاني، نُقِدت بصواريخ محمولة على زوارق، وليس كما جاء في الفيلم!

عدا عن ذلك، فإن الطبيعة التسوية للأنظمة العربية فيما بعد مرحلة الرئيس عبد الناصر، ما كانت لتقبل بنوعية العمل الذي قام به وديع حداد (أبو هاني)، وهو عمل يقطع عليها كل خطوط التسوية والتفاوض، مع عدو يجب أن يُحافظ معه على حالة 'اللا حرب، واللا سلم' كإستراتيجية لبقاء واستمرار هذه الأنظمة. وبناء عليه، تم تزوير الفيلم بما يتناسب مع ما طرحه هذه الأنظمة من ادّعاءات عن انتصارات وهمية حققتها جيوشها على إسرائيل.

لقي هذه الفيلم ترحيباً جماهيرياً، لا لأنه صادق، فالجيل الجديد لا يعرف من هو وديع حداد وماذا فعل، حيث هنا بالضبط يكمن هامش التزوير. أُعجب الجيل الجديد بالفيلم، كإعجابه بأي عمل يهاجم العدو، سواء كان سينمائياً، أو مسرحياً، أو غنائياً، أو 'عملية استشهادية' أو أي شيء من هذا القبيل. مطلوب من السينما، كما غيرها، أن تغرس في عقول الناس وهماً مفاده: هذه الأنظمة لم تتخلى عن فلسطين. وهكذا، فإن فيلم تعتبر هذه غايته القصوى، لن يقدّم بالتأكيد سوى عمل سردي وصفي، يتخلّله التزوير لسببين: إضفاء عامل الإثارة، وتبييض صفحة النظام العربي. والسينما العربية لا تغامر، فعامل التشويق مطلوب، وإن كان شرطه التزوير. وإلا، كيف يُسوَّق عمل يبتغي الريح؟

في الخاتمة

استحضرنّا في نقاشنا لفيلم 'الحياة حلوة' للمخرج والممثل الإيطالي الشهير روبرتو بينيني نموذجين من الأفلام العربية واحد فلسطيني، والآخر عربي مصري، لعلّنا نستطيع مقارنة أساليب ونتائج هذه الصناعة. يعيننا هنا بالطبع، مسألة فلسطين بشرح وتفسير مسألة الاحتلال والتحرير. فما أظهره الفيلم الإيطالي، هو وقعة الأسطورة، وهي واقعة بالفعل، أي أنّه عبّر عن تحقيق الحلم اليهودي بطريقة ذكية جعلت المشاهد العادي يتعاطف ويتفاعل معها، سواء كان عربياً أم غير ذلك. تفسير للتاريخ على طريقتهم، يفهمه كلّ على طريقتة، وهذا هو المطلوب.

أما إيليا سليمان فقد حاول أن يظهر الماضي بسرد مرّمز، ليبرّر ما آلت إليه الحال، أي أنّه فسّر مسألة الهزيمة والتعايش مع العدو بطريقة ذكية. يبقى أن هناك مأخذ مهم على هذا الفيلم، أنّه أغفل مسألة العمل المقاوم، فيما حاول إظهار بعض جوانب الاحتجاج السلمي، بهذا يكون إيليا سليمان قد أغفل واحداً من أهم جوانب تلك الفترة، خاصة وأن الفيلم عندما عرض في العام 1997، كان قد مرّ على الانتفاضة الأولى حوالي 10 سنين. والسؤال: ما الجديد الذي أضافه هذا الفيلم؟ فعلى عكس 'الحياة حلوة' الذي أغرق في الرموز والدلالات مبتعداً عن التفاصيل. غرق فيلم 'الزمن الباقي' في التفاصيل المرّمزة، ولم يكن كسابقه الإيطالي مغلفاً بلغتين، إيليا سليمان تحدّث بلغة واحدة لفئة واحدة، أغلب الظن أنّه لم يكن موجّهاً للمتفرّج العربي بشكل عام، بل خاطب النخبة أينما كانت.

هل كان باستطاعته تجنّب الترميز؟ ربّما، لكن ذلك كان سيقضي إطالة مدّة الفيلم أكثر بكثير، لأن الترميز ساعد بشكل واضح على الاختصار.

أمّا فيلم 'الطريق إلى إيلات'، فهو إنتاج هيئة حكومية، إذ ما المتوقّع من أنظمة عالمنا العربي سوى هذا اللون من الأعمال الميلودرامية المبتذلة؟ هذا الفيلم أنتجته هيئة حكومية في بلد محكومة باتفاقية 'كامب ديفيد'، تواطأت حكوماتها مع العدو في حصار قطاع غزة. كانت تدّعي العداء، بينما ممارساتها تعبّر عن شيء آخر. أنتجت أفلام كثيرة في الفترة الأخيرة على نمط 'الطريق إلى إيلات'، فيلم 'أولاد العم' مثلاً، وهو فيلم ساذج مبتذل، أقرب للخيال منه للواقع.

لا يمكن لأي عمل سينمائي، أو فني من أي صنف، أن يزور واقعاً معاشاً، ولا أن يغيّره. باستطاعة العمل الفني أن يدعم ويعبّر عن واقع، هو ناتج عنه بقدر ما يؤثر فيه. هذا ينطبق على الفيلم الإيطالي 'الحياة حلوة'، لكنه أبداً لا ينطبق على ما قدّمته السينما العربية إلا ما ندر، كاستثناء يؤكّد القاعدة، وهذا ينطبق على أفلام من نمط 'الزمن الباقي' لإيليا سليمان الذي جانب المنطق بتفاصيل تبريرية تفسيرية كثيرة.





ياسمين حسين عيود*



محددات تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري: دراسة ميدانية في التنوع الثقافي**

الخلاصة:

يهدف البحث إلى تعرف محددات تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري وإلى تحديد المهام والإجراءات المنوطة بالأسرة لتعزيز هذه الهوية وأكثر هذه العوامل تأثيراً في تشكيل شخصية الطفل المستقبلية وتأسيس الهوية الثقافية، إضافة إلى إبراز دور التربية والتعليم في تدعيم الهوية الثقافية والحفاظ عليها من خلال تقديم بعض المقترحات والإجراءات حول ذلك. وقد توصل البحث من خلال إجراءاته إلى أن المحددات الثقافية الأكثر تأثيراً في إطار الأسرة هي كالاتي: التربية الأخلاقية الممثلة لملامح المجتمع، الأغاني التراثية، اللغة الأم (العربية أو أي لغة أخرى يتحدث بها السوريون من سريان وأرمن وآشور وأكراد)، القصص والحكايا التراثية، الحرف والصناعات اليدوية، طقوس الاحتفالات والأعياد والأعراس. أما المحددات الثقافية الأكثر تأثيراً في إطار المؤسسات التعليمية (الروضة، المدرسة) هي كالاتي: التنوع الثقافي والتعددية في محتوى المناهج وأنشطة التعليم والتعلم، ترسيخ مشاعر الاعتزاز بالتراث الثقافي السوري لدى الأطفال، ترسيخ الشعور الوطني في وجدان الأطفال بالتأكيد على أهمية دراسة التاريخ المشترك، تزويد الأطفال بمعلومات وتجارب وخبرات أصيلة عن الدول الأخرى بثقافاتها المتنوعة، وجود منهج معاصر يخصص بالاهتمام منهج اللغة العربية، البرامج اللاصفية والمشاركة في الأعياد الوطنية. وقد خلص البحث إلى التأكيد على ربط الطفل بهويته الثقافية ولغته الأم، والتربية على الانفتاح وتقبل الآخر في الأسرة والمؤسسة التعليمية. تقدم المادة الحالية توطئةً نظريةً لمحددات تشكيل الهوية ومنهج البحث، على أن تتلوه أجزاء تنشر تباعاً في الأعداد القادمة من المجلة.

* ياسمين عيود باحثة ومدرسة معتمد في المجال التربوي والحقوق، مع تجربة واسعة في الإدارة والتعليم الحكومي الجامعي والمدرسي. حاصلة على ماجستير في تربية الطفل، دبلوم الدراما في سياق تعليمي، دبلوم إدارة الموارد البشرية، وتحضر حالياً لدرجة الدكتوراه. لديها العديد من الأبحاث والمقالات المنشورة. ** تم إعداد هذه الدراسة في سياق نشاط مؤسسة اتجاهات للثقافة المستقلة.



مقدمة

تُعد الهوية الثقافية حجر الزاوية في تكوين الأمم والمدخل الأساسي لتحقيق التنمية البشرية في أي مجتمع من خلال تكوين الإنسان المنتج، الواعي لقضايا أمته الراهنة، الساعي لتقليص الفجوة بين الواقع الراهن وما وصلت إليه الحضارة الإنسانية من تقدم وازدهار على مختلف الأصعدة.

وأما المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تعتبر أن الهوية الثقافية هي: "النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والأفعال الأصيلة للفرد والجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية، التي تحدت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموح الغد". (اليونسكو، 2003، ص111)

وبما أن الهوية الوطنية مدينة للثقافة التي أوجدتها، فإن الواجب الأول للدولة، إنما يتمثل في: "تعزيز الهوية الثقافية التي تُكسب الأمة مكونات هويتها الوطنية، وفي ترسيخ حضور هذه الهوية في مختلف مناحي الحياة والأنشطة الإنسانية جميعاً، وفي العمل على تنميق هذه الهوية نحو الكمال الإنساني الممكن" (بسيسو، 2005، ص12).

فقد أثبتت غالبية الدراسات أن الفرد يبدأ في إدراك هويته في سن مبكرة، وأن السن الطبيعي لإدراك الطفل لهويته القومية تبدأ ببلوغه 6-7 سنين، ويزداد إدراكه بتقدم عمره، وبالتالي يمكن إكساب الفرد الاتجاهات الإيجابية نحو الولاء للوطن في سن مبكرة (حسين، 2000).

كما أشارت دراسة أخرى إلى أن الطفل يمكنه اكتساب الاتجاهات الإيجابية نحو الولاء للوطن منذ سن السابعة، وذلك من خلال نشاطه مع الجماعات المختلفة، ولذلك فإن قوة الانتماء تعضد الهوية الثقافية لدى أفراد المجتمع (حسانين، 1989).

ومن هنا صارت المؤسسات التربوية بدءاً من الأسرة وانتهاءً بالجامعة مطالبة بالحفاظ على ثقافة الأفراد المعرضة للتدهور والانقراض، وأن تعمل على التأكيد على الهوية الثقافية للمجتمع؛ لأن التعليم يشكل حجر الزاوية في تشكيل الهوية الثقافية وفي تعزيزها والحفاظ عليها لكل شعب من الشعوب، لذلك فإن الدول تتخذ التعليم

كأداة أساسية لتربية أبنائها منذ الصغر على المبادئ والأفكار والأيدولوجيات التي تشكل في النهاية الهوية الثقافية للمجتمع.

ولا تقل وسائل الإعلام عن بقية المؤسسات مسؤولية في تكوين الهوية الثقافية للطفل والتأسيس لها، لما تتوفر لها من امتيازات ومواصفات تجعلها موضع جذب واستقطاب وبخاصة التلفزيون الذي يتيح للطفل الفرصة كي يكون في موضع التقمص الوجداني Empathy وما يترتب على ذلك من تأثير في شخصية الطفل وثقافته. ولكن مع هذه الامتيازات والمواصفات نتلمس جوانب الضعف والتقصير في أجهزة الإعلام إزاء الطفولة، وذلك لقلة البرامج الموجهة للطفولة والتي إن وجدت فإنها تعاني من غياب النموذج القومي المؤثر في شخصية الطفل واقتصارها على نماذج ثقافية عالمية لا تمت إلى ثقافة الطفل العربي بصلة تذكر وبما يجعل الطفل يميل إلى تبخيس الذات والانبهار بالآخر.

مشكلة البحث

إن من أبرز الدوافع نحو تأكيد الهوية الثقافية هو ما يشهده عالم اليوم المتغير في كثير من أحداثه، والمتمثل في الانفتاح والنمو والتقدم التكنولوجي الذي له تأثيراته الواضحة على المجتمع بمختلف مكوناته وخصائصه، ومما لا شك فيه أن العولمة الثقافية أصبحت تباشر تأثيرها على الأجيال الجديدة من أبناء المجتمع، حيث تسري مفاهيم جديدة ومفردات غربية على لغتنا العربية، صار الجيل الجديد يرددها ويدافع عنها، بل صار ممكن الخطورة يتمثل فيما يمكن أن تتعرض له قيم الانتماء والاعتزاز بالوطن والعروبة من تهديد، وصار من الواجب على مؤسسات التربية والتعليم - متمثلة في الأسرة والروضة والمدرسة والجامعة - أن تتحمل مسؤولياتها لاستعادة التوازن المفقود والدفاع عن هويتنا وثقافتنا.

وهذا ما أشار إليه محمد عابد الجابري ليبين وضع أطفال العالم في ظل العولمة التي تعمل على تقويض الهوية الثقافية، حيث ينقسمون الى ثلاث فئات هم (حسب الغزاوي، 2008، ص18):

- أطفال الأغنياء: الذين يعيشون في وضعية 'الا انتماء' يكبرون بلا جذور، ولا يحملون أي هوية وطنية، ولا يشعرون بالانتماء الاجتماعي، وطنهم هو المنتجات والسلع ذات العلامات أو 'الماركات' الرفيعة المشهورة، ولغتهم هي لغة الرموز العالمية، إنهم يدرّبون على الاستهلاك والثقة في الماكينات أكثر من الأشخاص (fast food، fast eats، fast life).
- أطفال الطبقة الوسطى: وهؤلاء يتظاهرون بأن لديهم أكثر مما هو عندهم بالفعل وهم يعانون ويخفون حاجتهم الحقيقية.
- أطفال الفقراء: وهؤلاء لا يلعبون 'باللِزر' كما يلعب أطفال الأغنياء ولكن بطلقات الرصاص التي تخترق أجسادهم، والمجتمع على العموم يقهرهم ولا يستمع إليهم، جذورهم في الهواء وجذور أولاد الأغنياء ليس لها وجود. كما أن هيمنة السوق في بلدان عديدة عملت على كسر روابط التضامن الاجتماعي وتمزيق الانسجام الاجتماعي.

هذا التصنيف ينطبق في جزء كبير منه على وضع الطفولة في بعض أرجاء العالم العربي والذي يدل على أن إمكانية اختراق هوية الطفل العربي واردة بدرجة كبيرة، وأن إمكانية الصد الثقافي المقابل لا تقوى على المجابهة والتحدي ومثل هذا يشكّل خطراً داهماً لمستقبل الطفل العربي ومحاولة اجتزائه من محيطه الثقافي باتجاه

التغريب.

وبالتالي في ظل هذه الظروف من اللا انتماء والضياع كان لا بد من التأكيد على أهمية الهوية في تشكيل الشخصية الفردية والمجتمعية، وهذا ما عاد الجابري ليؤكد عليه حين رأى أنه: "لا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية إلا إذا تجسدت مرجعيتها في كيان تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن 'الجغرافية والتاريخ'، الدولة 'التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة'، والأمة 'النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة'" (الجابري، 1998، ص16).

وحقيقة إن ما يميز المجتمع السوري هو التنوع الثقافي الناتج من التنوع الإثني نتيجة التركيبة السكانية المكونة من العرب، والأكراد، والتركمان، والآشوريين والأرمن فضلاً عن الأقليات الأخرى المتأخية عبر العصور والتي انصهرت ضمن وحدة ثقافية استطاعت تحقيق تجانس نسبي في الأفكار والمعتقدات والتقاليد، والتصورات السائدة في المجتمع السوري وصولاً إلى تحقيق هوية ثقافية مميزة للشخصية السورية. وعلى ضوء هذه المعطيات السابقة يمكن بلورة مشكلة البحث في التساؤل الرئيسي الآتي: ماهي محدّدات تشكيل الهوية الثقافية للطفل في ظل التنوع الثقافي في المجتمع السوري؟

أهمية البحث

يكتسب البحث أهميته من خلال الجوانب الآتية:

- بيان تأثير التنوع الثقافي في تشكيل الهوية الوطنية السورية.
- معرفة العوامل الأسرية والتربوية والثقافية المؤثرة في تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري.
- أهمية معرفة محدّدات تشكيل الهوية الثقافية التي قد تفيد المهتمين في مجال تطوير البرامج والمشاريع الثقافية للأطفال باتخاذ الإجراءات الإيجابية وخلق الظروف الملائمة مما يؤدي إلى تغيير الواقع الثقافي والتربوي وتطويره.
- إن هذا البحث ينسجم مع توصيات المؤتمرات والتقارير العربية للتنمية الثقافية مثل المؤتمرات الدورية للوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، الاجتماع الإقليمي حول الحفاظ على التراث الثقافي 2012 في لبنان، مؤتمر حماية التراث الثقافي العربي والنهوض به عام 2007 التي تؤكد ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية في مواجهة تحديات العولمة.
- أهمية ما كانت قد أغفلته الدراسات والأبحاث في المجال الثقافي، إذ يتوقع -في حدود علم الباحثة- أن يكون هذا البحث الأول من نوعه في سوريا الذي يبحث في موضوع محدّدات الهوية الثقافية للطفل السوري.

أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

- 1- تعرّف أهم العوامل الأسرية والتربوية والمجتمعية المؤثرة في الهوية الثقافية للطفل السوري.
- 2- تعرّف أكثر هذه العوامل تأثيراً في تشكيل شخصية الطفل المستقبلية وتأسيس الهوية الثقافية بما يتفق مع

ثقافة المجتمع، بحيث يؤدي ذلك إلى تجاوز التحديات التي تضعف تلك الهوية.

3- تحديد المهام والإجراءات المنوطة بالأسرة لتعزيز الهوية الثقافية.

4- إبراز دور التربية والتعليم في تدعيم الهوية الثقافية والحفاظ عليها من خلال تقديم بعض المقترحات والإجراءات حول ذلك.

أسئلة البحث

يتضمن البحث التساؤل الرئيس الآتي: ماهي محددات تشكيل الهوية الثقافية للطفل في ظل التنوع الثقافي في المجتمع السوري؟ وتمكن الإجابة عن هذا التساؤل من خلال سعي البحث للإجابة عن التساؤلات الفرعية الآتية:

- ما المقصود بالهوية الثقافية؟ وما مكوناتها؟
- ما إسهامات التربية الأسرية والتعليم المدرسي في الحفاظ على الهوية الثقافية في ظل التنوع الثقافي في سوريا؟
- ما هي أكثر العوامل تأثيراً في تشكيل الهوية الثقافية للطفل السوري؟

منهج البحث

اعتمدت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي لرصد أبرز محددات الهوية الثقافية، وتحليل العوامل التي ربما تكون مسؤولة عن تشكيل الهوية الثقافية في المجتمع السوري، والوقوف على أبرز مظاهرها في إطار من التفسير والتحليل، ثم التنبؤ بالدور الذي يمكن أن تسهم به التربية الأسرية والمجتمعية في تدعيم والحفاظ على الهوية الثقافية في ظل التنوع الثقافي في سوريا. فهذا المنهج يساعد في الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات حول هذه الظواهر استناداً إلى حقائق الواقع، وتعتبر الأبحاث الوصفية أكثر من مشروع لجمع المعلومات، فهي تصف وتحلل وتقرن وتقيس وتفسر (Lokesh, 1993, p405).

أدوات البحث

لتحقيق أهداف البحث قامت الباحثة بإعداد الأداة التالية: تصميم استبانة موجه للمعلمين ولوالدي الأطفال والياfebين من سن 3-12 سنة تشتمل على مجموعة من البنود التي تقيس مدى تركيز الأسرة والمربين على إكساب الطفل لمجموعة من التعاليم والعادات والقيم والمعارف والاتجاهات.

مجتمع البحث وعينته

يتكون المجتمع الأصلي للبحث:

- الوالدين للأطفال في مرحلة الطفولة (3-12 سنة) في محافظة دمشق.

- معلمي مرحلتي الروضة والتعليم الأساسي الحلقة الأولى في محافظة دمشق.

أما عينة البحث فتتكون من 525 من الآباء والمعلمين ممثلة للمجتمع الأصلي مختارة عشوائياً.

حدود البحث

- الحدود البشرية: 525 والد/ة ومعلم/ة وممثل/ة للمجتمع الأصلي مختارين بطريقة عشوائية.
- الحدود المكانية: قامت الباحثة بتطبيق البحث أثناء ورشات العمل التدريبية والجلسات الحوارية مع كل من الآباء والأمهات والمعلمين في عدة مراكز وقاعات تدريبية في محافظة دمشق.
- الحدود الزمانية: قامت الباحثة بتطبيق الدراسة في الفترة الزمنية الواقعة بين 2013/4/20م ولغاية 2013/6/10م.

مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائية

- والتعريفات هنا جاءت كما هو مقصود منها في البحث أي 'التعريفات الإرائية':
- المحددات determinants: أي عنصر أو أي عامل أو أداة تستخدمها الأسرة وسيلةً تثقيفية في تشكيل الهوية الثقافية للطفل في مرحلة الطفولة (3-12) سنة.
 - ثقافة الطفل child culture: مجموعة العلوم والفنون والآداب والمهارات والقيم التي يستطيع الطفل استيعابها وتمثيلها في كل مرحلة الطفولة (3-12) سنة لتمكنه من توجيه سلوكه داخل المجتمع توجيهاً سليماً.
 - الهوية الثقافية cultural identity: مجموعة السمات والخصائص التي تنفرد بها الشخصية السورية، وتجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الثقافية الأخرى، وتتمثل تلك الخصائص في اللغة والدين والتاريخ والتراث والموروث الثقافي من عادات وتقاليد وأعراف وغيرها من المكونات الثقافية.
 - التنوع الثقافي: أي تعدد المعتقدات وقواعد السلوك واللغة والدين والقانون والفنون والعادات والتقاليد والأعراف والنظم الاقتصادية والسياسية لمجتمع ما، فالمجتمع الواحد يمكن أن يتضمن هويات ثقافية متنوعة تشكل في كليتها الهوية الوطنية المميزة للمجتمع ككل.

الدراسات السابقة

دراسة هاني موسى، 2010، جامعة بنها:

- عنوان الدراسة: دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية في المجتمع العربي.
- هدف الدراسة: إبراز دور التعليم في تدعيم الهوية الثقافية والحفاظ عليها.
- نتائج الدراسة: توصلت الدراسة إلى ما يلي:
- ضرورة إسهام الأسرة في التأكيد على القيم الداعمة للهوية الثقافية ومواجهة التداعيات السلبية للعوامة على أبنائهم.
 - أهمية الحفاظ على الهوية الثقافية من خلال القدرة على التعامل بشكل إيجابي مع التعددية الفكرية والثقافية والعرقية والسياسية والاقتصادية.
 - التأكيد على التنوع الثقافي والتعددية في محتوى المناهج وأنشطة التعليم والتعلم.

- تقديم قراءة جديدة للتراث تتماشى مع متغيرات العصر؛ بحيث يكون عاملاً من عوامل الإبداع.
- إثبات الوجود والهوية الثقافية العربية على الخريطة العالمية من خلال التواجد على شبكة الإنترنت، وتزويدها بقواعد بيانات ونظم معلومات باللغة العربية، وإنتاج برامج تمكّن مستخدمي الإنترنت من البحث والتقصي باللغة العربية.

دراسة سامي الغزاوي، 2009، جامعة ديالى العراق:

عنوان الدراسة: محدّدات الهوية الثقافية للطفل العراقي 'دراسة ميدانية في مرحلة رياض الأطفال'

هدف الدراسة: معرفة المحدّدات التي تستخدمها الأسرة العراقية في عملية تشكيل الهوية الثقافية للطفل.

نتائج الدراسة: توصلت الدراسة إلى الآتي: قلة المتوفر من المحتوى الثقافي المقدم للطفل العراقي، وهو نتاج طبيعي للظروف التي مر بها العراق خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي المتمثلة بقيام حرب الخليج الثانية عام 1991، وما أعقبها من حصار ظالم سحق إنسانية الإنسان العراقي إلى الحد الذي دفع أكثر أفراد الطبقة الوسطى إلى بيع مذكراتهم من أجل توفير لقمة العيش للأبناء، فكيف ستكون الهوية الثقافية للطفل في مثل هذه الظروف؟ وما أوضاع أطفال الطبقات المهمشة إذا كان هذا هو حال الطبقة الوسطى؟ وقد أثرت الأمية الأبجدية والثقافية للوالدين، التي ازدهرت في ظل هذه الظروف الاستثنائية المعقدة، على تشكيل هوية الطفل العراقي. فضلاً عن دخول قوات الاحتلال العراق في 2003/4/9 وما رافق الاحتلال من أحداث ومواجهات مسلحة دامية راح ضحيتها الآلاف من الشهداء والمعوقين والمهجّرين داخل وخارج البلاد، فمشاهدة أعمال العنف الرمزي من خلال أجهزة التلفاز ومعايشته على الطبيعة أثناء المواجهات الدامية بين المسلحين 'مختلف فصائلهم' وقوات الاحتلال جعلت معظم وسائل تشكيل الهوية الثقافية تعكس جانب العنف؛ سواء أكان في المحتوى الثقافي كالحكايات التي يسمعها الطفل، أم في طبيعة الألعاب التي يمارسها في المناسبات الوطنية التي يشارك فيها الطفل ذويه.

دراسة فريال حمود، 2009، جامعة دمشق:

عنوان الدراسة: الهوية الاجتماعية 'دراسة ميدانية في المدارس العامة في مدينة دمشق'.

هدف الدراسة: تعرّف تشكّل الهوية الاجتماعية وفق المجالات الأساسية التي تتكون منها باستخدام 'المقياس الموضوعي لرتب الهوية الإيديولوجية والاجتماعية'.

نتائج الدراسة: توصلت الدراسة إلى ما يلي:

- بينت النتائج الإحصائية أن الفروق في مستويات الهوية الاجتماعية لصالح الذكور في مستوى الانغلاق.
- كما بينت العلاقة الارتباطية أن مجالات الهوية أكثر نشاطاً في مستوى التعليق، وأن الفروق بين الجنسين كانت لصالح الذكور.
- مستوى الإنجاز والتعليق لمجال الترفيه، وفي مستوى الانغلاق لمجال الدور الجنسي، وهذه الفروق لصالح الإناث في مستوى الانغلاق لمجال العلاقة مع الآخر.
- وتضمنت مقترحات الدراسة: الاهتمام بتنمية مجالات الهوية - تطوير آليات الوسائط التربوية لتهيئة المراهقين للأدوار الاجتماعية - دعم البرامج والأنشطة التي تحفّز المراهقين لتحديد أهدافهم وتوجيه نشاطاتهم بطرق بناءة.

دراسة أحمد كنعان، 2004، جامعة دمشق:

عنوان الدراسة: دور التربية في مواجهة العولمة وتحديات القرن الحادي والعشرين وتعزيز الهوية الحضارية والانتماء للأمة.

هدف الدراسة: إبراز دور التربية وبيان كيفية التصدي للاستلاب الثقافي من خلال تعزيز الهوية الحضارية والانتماء القومي عن طريق بناء المناهج الحديثة المتطورة، والإفادة من معطيات التكنولوجيا الحديثة والتقانات التربوية المتعددة في إعداد المعلمين وتأهيلهم وتدريبهم المستمر

نتائج الدراسة: خلص البحث إلى تأكيد الهوية العربية الحضارية الأصيلة، ويدعو إلى مواجهة التحديات المختلفة، وتعزيز الانتماء القومي لأبناء الأمة العربية من خلال:

- ضرورة رفض الهيمنة الثقافية الأجنبية، وتعزيز الهوية الثقافية العربية، وذلك بدعم اللغة العربية وتعزيز مكانتها وتنشيط التنمية القومية.
- تطوير المناهج التعليمية ومواكبتها لمعطيات الحضارة العالمية الحديثة.
- إعداد المعلمين وتدريبهم المستمر لمواجهة التحديات بمختلف أشكالها وغرس القيم العربية والروح الديمقراطية وتجسيدها سلوكاً عملياً.

دراسة شحادة وبيكرمان 2003 ، Beckerman&Shhadi، فلسطين:

عنوان الدراسة: تصورات الأطفال تجاه القضايا الخاصة بهويتهم الثقافية 'الفلسطينية واليهودية'.
Palestinian-Jewish Bilingual Education in Israel: Its Influence on Cultural Identities and Its
(Impact on Intergroup Conflict)

هدف الدراسة: تعرف تصورات الأطفال تجاه القضايا الخاصة بهويتهم الثقافية الفلسطينية واليهودية الخاصة والتي تتشكل خلال التفاعل في مدرسة يهودية فلسطينية ثنائية اللغة.

نتائج الدراسة: توصلت الدراسة إلى ما يلي: جاءت الدراسة كخطوة أولى اتجهت نحو أن تكون دراسة طويلة عن التأثير طويل الأمد للتعليم ثنائي اللغة على الأطفال، وكيف يتصورون النزاع، وعلاقاتهم الحاضرة والمستقبلية مع 'الآخر'، وهوياتهم الثقافية وإدراكهم للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني، وباختصار فإن هذه الدراسة ركزت على دور التربية ثنائية اللغة في تشكيل الهويات في بيئات مليئة بالنزاع.

دراسة مريم الشرقاوي، 2002، مصر:

عنوان الدراسة: أساليب تعزيز الهوية في مواجهة الهيمنة الثقافية - رؤية معاصرة لإدارة التعليم.

هدف الدراسة: التأكيد على التميز الثقافي والهوية الثقافية، وأهمية التفاعل بوعي مع النظام العالمي الجديد، وذلك من خلال وضع منظومة لأساليب الإدارة التعليمية لتعزيز الهوية الثقافية.

نتائج الدراسة: توصلت الدراسة إلى ما يلي: ضرورة بناء هوية ثقافية ذات ثوابت راسخة، واحترام التفاوت داخل الإطار الثقافي الواحد، وأن تتحمل إدارة التعليم مسؤولية الحفاظ على الهوية الثقافية.



دراسة إسماعيل عبد الفتاح، 2000، مصر:

عنوان الدراسة: الهوية الثقافية للطفل العربي 'رؤية من الواقع المصري'.

هدف الدراسة: التأكيد على أن المدرسة تؤدي دوراً حيوياً في تأكيد الهوية الثقافية وتحقيق التجانس القومي عن طريق التوحيد الثقافي والفكري بين مختلف الطبقات وفي كل أنحاء الدولة، مما يؤدي إلى التماسك القومي للمجتمع.

نتائج الدراسة: توصلت الدراسة إلى ما يلي: يقوم التعليم بدور بارز في تدعيم الإحساس الوطني والهوية الثقافية الوطنية والقومية، وتدعيم الولاء والانتماء في نفوس الطلاب، كما يسهم بإيجابية في تشكيل أو إعادة بناء الشخصية الوطنية والقومية للأجيال الجديدة، وتوحيد التوجهات القومية للطلاب؛ مما يوحد الهوية القومية، وضرورة عقد المؤتمرات لتطوير التعليم بهدف الإسهام في تشكيل الهوية الثقافية في مقررات التاريخ واللغة العربية وفروعها المختلفة.

كما أشارت مجموعة من الدراسات إلى أهمية ودور المناهج التعليمية في تعزيز وتنمية الهوية الثقافية في المجتمعات التي تواجه مجموعة من المتغيرات العالمية وخاصة العولمة، وكلها تدعو إلى ضرورة إعادة النظر في المناهج التعليمية الحالية، والعمل على تطويرها وهندستها بشكل آخر يؤدي إلى تعزيز وتنمية الهوية الثقافية لدى الطلاب؛ لأن هذه المناهج تتجاهل القضايا والمشكلات المعاصرة؛ مما يسهم في تغريب الطلاب واغترابهم عن مجتمعهم، وبالتالي فهذا يدعو إلى ضرورة التفكير في منهج معاصر في ظل الهوية الثقافية وخاصة منهج اللغة العربية، ذلك المنهج الذي يعد من العوامل الرئيسة في تكوين الهوية الثقافية والحفاظ عليها (موسى، 2010، ص 6).

تعليق على الدراسات السابقة ومدى الاستفادة منها في البحث الحالي

بعد العرض السابق للدراسات العربية والأجنبية التي أتيح للباحثة الاطلاع عليها، والتي تناولت متغيرات البحث الذي نحن بصدد، رأت الباحثة أن تناقش تلك الدراسات حتى تتضح نوعية العلاقة بينها وبين البحث الحالي بغرض الاستفادة منها في صياغة البحث الحالي، وفي اختيار أدواته وعينته، وكذلك الاستفادة منها في إعداد الاستبانة، وتعرف الأسلوب الإحصائي، وما توصلت إليه هذه الدراسات من نتائج.

منهج الدراسات السابقة:

إن معظم الدراسات السابقة اتبعت منهجاً واحداً هو المنهج الوصفي التحليلي، وترى الباحثة أن هذا المنهج هو أنسب المناهج لقياس المتغيرات الخاصة بالبحث الحالي، ولهذا تتفق الباحثة مع هذه الدراسات في استخدام المنهج الوصفي التحليلي لقياس متغيرات البحث مع أفراد العينة المستخدمة.

الأدوات المستخدمة في الدراسات السابقة:

اتضح للباحثة من خلال استعراض الدراسات السابقة أن الأدوات المستخدمة لمعرفة محددات الهوية الثقافية بجوانبها المختلفة هي الاستبانة، وقد اعتمدت هذه الدراسات على مصادر متعددة لتعرف محددات ومكونات هذه الهوية من وجهة نظر الآباء والمعلمين وحتى الأطفال أنفسهم.

مكانة الدراسة الحالية بين الدراسات السابقة:

تتبن مكانة الدراسة الحالية بين الدراسات السابقة من خلال النقاط التالية:

- أهمية تناول موضوع الهوية الثقافية للطفل، حيث أخذ هذا الموضوع اهتمام الباحثين العرب والأجانب من خلال إجراء الدراسات والأبحاث الميدانية.
- أكدت الدراسات التي تناولت التربية والهوية الثقافية (موسى، 2010؛ الشرقاوي، 2008؛ الجابري، 1998؛ الغزاوي، 2009) أنه لا بد من اتخاذ خطوات وقائية تعزز الهوية الثقافية من خلال البرامج والأنشطة التربوية، وجاء هذا البحث ليسلط الضوء على دور المؤسسات التعليمية كذلك في تشكيل الهوية الثقافية.
- لا توجد دراسة في القطر العربي السوري -على حد علم الباحثة- تناولت الهوية الثقافية للطفل السوري ومحدداتها.
- كما تعدّ الدراسة الحالية إسهاماً جديداً في معرفة المحددات الهوية الثقافية للطفل السوري في ظل التنوع الثقافي الغني للبيئة السورية لتكون مرجعاً يمكن الاستفادة منها في تطوير الاستراتيجيات والبرامج الثقافية التي تستهدف شريحة الأطفال واليافعين.

مما سبق نجد وعلى الرغم من وجود تشابه بين الدراسات السابقة والدراسة الحالية في تسليط الضوء على الهوية الثقافية وفق المتغيرات، إلا أنها تختلف عنها من حيث هدفها وموضوعها وعينة البحث فيها.

الإطار النظري

تعريف الهوية الثقافية:

في واقع الأمر إن إيجاد تعريف محدد لمفهوم الهوية أمر بالغ الصعوبة، بسبب تعدد المدارس الفكرية التي تناولت الموضوع، بالإضافة إلى سعته وشموليته، حيث تشارك في تكوينه متغيرات متعددة، وخاصة المتغيرات المجتمعية التي تطرأ وتؤثر في الفكر، فالهوية مفهوم له دلالاته اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية. وبالنسبة لمفهوم 'الهوية' لغةً فقد قيل "الهوية في الفلسفة حقيقة الشئ أو الشخص التي تميزه عن غيره، أو هي بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى البطاقة الشخصية أيضاً" أما عن آراء المفكرين حول مفهوم الهوية فيلاحظ أن الأمر لا يختلف كثيراً، وإن كان يتصف بأنه أكثر تحديداً؛ لأنه يرتبط بالبعد الثقافي أو الاجتماعي للمصطلح، فقد عرّف سعيد إسماعيل علي الهوية بأنها: "جملة المعالم المميزة للشئ التي تجعله هو هو، بحيث لا تخطئ في تمييزه عن غيره من الأشياء، ولكل منا - كإنسان - شخصيته المميزة له، فله نسقه القيمي ومعتقداته وعاداته السلوكية وميوله واتجاهاته وثقافته، وهكذا الشأن بالنسبة للأمم والشعوب" (علي، 1997، ص95). كما أشار أحد الباحثين إلى أن الهوية: "مفهوم اجتماعي نفسي يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته، وكيفية تمييزه عن الآخرين، وهي تستند إلى مسلمة ثقافية عامة، مرتبطة تاريخياً بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية للمجتمع" (عيد، 2001، ص110).

كما أن الهوية ترتبط بالانتماء، فقد عرّفها البعض بأنها: "مجموعة من السمات الثقافية التي تتصف بها جماعة من الناس في فترة زمنية معينة، والتي تولد الإحساس لدى الأفراد بالانتماء لشعب معين، والارتباط بوطن معين، والتعبير عن مشاعر الاعتزاز، والفخر بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد". (الفقي، 1999، ص205)

ومن المفاهيم التي قدمت للهوية الثقافية ما تبنته منظمة اليونسكو والذي ينص على: "أن الهوية الثقافية تعني أولاً وقبل كل شيء أننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية، بما لها من قيم أخلاقية وجمايلية تميزها، ويتضمن ذلك أيضاً الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة وتقاليدها وعاداتها وأسلوب حياتها، وإحساسنا بالخضوع له والمشاركة فيه، أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية، وتعد بالنسبة لكل فرد منا نوعاً من المعادلة الأساسية التي تقرر - بطريقة إيجابية أو سلبية - الطريقة التي ننسب بها إلى جماعتنا والعالم بصفة عامة" (المحروقي، 2004، ص 164)

كما تشير الهوية أيضاً إلى أن هوية الشخص تعني صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره، وقد شبهوها بالبصمة، كما ذهب بعض التعريفات إلى أن الهوية الاجتماعية هي: "تلك السمات الخاصة بمفهوم الذات الفردية في ضوء أسس ومرتكزات لجماعتهم الاجتماعية، وعضويتهم الطبقية معاً، ومع ارتباطاتهم العاطفية والتقييمية وغيرها من الارتباطات السلوكية؛ التي تربطهم بهذه الجماعة مؤكدة، انتماءاتهم إليها" (Feather, 1994, p467). وهذا التعريف يوضح العلاقة بين الانتماء وبين الهوية، حيث إن كلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، فالإنسان عندما يعرف أن هويته ترتبط بهوية المجتمع الذي يوجد فيه، فإن هذا يجعله يتمسك ويرتبط بمجتمعه.

إذن يمكن أن نخلص من ذلك بالآتي (موسى، 2010، ص 12):

- أنه يصعب أن نجد تعريفاً جامعاً مانعاً للهوية الثقافية.
 - أن الهوية تختلف من مجتمع لآخر ومن عصر لعصر.
 - أن الهوية تختلف باختلاف التوجهات الفكرية والأيدولوجية.
 - أن الهوية الثقافية تتكون من مزيج من اللغة والدين والتاريخ وثقافة المجتمع، وهذا معناه أن الهوية يكون لها خصوصيتها المستمدة من ثقافة المجتمع وتصلقها تاريخه وحضارته.
 - أن هناك ثلاث مستويات للهوية تتمثل في: الهوية الفردية وهي على مستوى الفرد، والهوية الجماعية وهي التي تكون على مستوى الجماعة التي يوجد فيها الفرد، والهوية الوطنية والقومية، وهي التي تشمل المجتمع كله، وهذا معناه أن الهوية الثقافية لأي فرد لا تكون كاملة.
 - أن الهوية الثقافية تتكون في ضوء ثلاثة عناصر رئيسة هي: الوطن والأمة والدولة.
 - أنه لا يوجد تعارض بين وجود هوية لكل مجتمع وبين التفاعل مع متغيرات العصر.
 - أن من مظاهر ضعف الهوية عندما يؤدي الإعجاب بالعلم والتقدم إلى الإعجاب بمن أبدعوه، فيسيرون وراءهم ويتبعون خصوصياتهم الثقافية، وهذا يقودنا إلى ضرورة التعرف على مكونات الهوية الثقافية.
- وفي ضوء ذلك يمكن تعريف الهوية الثقافية بأنها مجموعة السمات والخصائص التي تنفرد بها الشخصية، وتجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الثقافية الأخرى، وتتمثل تلك الخصائص في اللغة والدين والعادات والتقليد والأعراف وغيرها من المكونات الثقافية ذات السمة المميزة لمجتمع ما. ولتحديد مرجعية الهوية الثقافية السورية لا بد من تحديد إطار مرجعي للهوية العربية يعتمد على ما يلي (الفران، 2008، ص 15):
1. الدين: كما هو معروف أن فكرة الدين مرتبطة بالإنسان منذ وجوده، كما يعتبر أحد المقومات المعبرة عن هوية المجتمع.
 2. اللغة: تُعتبر اللغة لأي أمة من الأمم عنواناً لشخصيتها وهويتها، وأداة للتعبير ولترجمة الخواطر والأفكار

- والمشاعر، وهي وسيلة التفاهم والتعلم والتطور وتناقل الخبرات والثقافات والحضارات.
3. العرف: يُعتبر العرف الإطار المرجعي لأي مجتمع من المجتمعات، لأنه يحدد خصوصيته وهويته ويميزه عن غيره من المجتمعات، كما يختلف من مجتمع إلى الآخر حسب طبيعته وقيمته.
4. الجغرافية: تحدد الجغرافية من خلالها الحدود الطبيعية لأي أمة من الأمم، بما تتضمنه من عرقيات و قوميات وشعوب، بحيث تجمعهم ظروف ومصير وأهداف واحدة.

المراجع:

- الجابري، محمد عابد (1998): العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، ع 228، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- الجابري، محمد عابد (1995): مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- حسنين، عبد العزيز (1989): تنمية الاتجاهات الإيجابية نحو الولاء للوطن لدى الأطفال في سن السابعة من العمر، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس.
- حسين، عصام أحمد (2000): إدراك الهوية القومية لدى الطفل المصري، رسالة ماجستير، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس.
- الشراوي، مريم (2008): أساليب تعزيز الهوية في مواجهة الهيمنة الثقافية - رؤية معاصرة لإدارة التعليم، مؤتمر 'مناهج التعليم والهوية الثقافية'، جامعة عين شمس.
- عيد، محمد إبراهيم (2001): الهوية الثقافية العربية في عالم متغير، مجلة الطفولة والتنمية، مجلد 1، ع 3، القاهرة.
- الغزاوي، سامي (2009): محددات تشكيل الهوية للطفل العراقي. دراسة ميدانية لمرحلة رياض الأطفال، جامعة ديالى، العراق.
- الفران، هاني (2006): محددات تأكيد الهوية الثقافية العربية في التصميم المعماري من خلال الأسلوب البنائي الحديث 'دراسة تحليلية'، بحث غير منشور، كلية الفنون الجميلة، جامعة دمشق.
- الفقي، إسماعيل (1999): إدراك طلاب الجامعة لمفهوم العولمة وعلاقته بالهوية والانتماء 'دراسة امبريقية'، المؤتمر القومي السنوي الحدي والعشرون للجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس بعنوان 'العولمة ومناهج التعليم'.
- كنعان، أحمد (2004): دور التربية في مواجهة العولمة وتحديات القرن الحادي والعشرين وتعزيز الهوية الحضارية والانتماء للأمة، بحث مقدم إلى ندوة: العولمة وأولويات التربية، كلية التربية جامعة الملك سعود.
- المحروقي، حمدي (2004): دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة علي الهوية الثقافية، منشورات مركز تطوير التعليم الجامعي، جامعة عين شمس.
- اليونسكو (2003): 'اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي': المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة 'اليونسكو'، في الفترة 29 سبتمبر/أيلول - 17 أكتوبر/ تشرين الأول، باريس.

References

- Feather, N. T (1994): Values, National Identification and Favoritism Towards the In-Group, British Journal of Social Psychology, no 33.
- Lokesh, K. (1993): Methodology of Education Research, Rikas publishing house, New Delhi.





عزام القصير*

العودة إلى المستقبل: قراءة في دعوات تطبيق الشريعة

الخلاصة:

إن هدف إقامة الدولة الإسلامية التي تحكم بمقتضى الشريعة هو حجر الزاوية الذي يستند إليه بناء الأيديولوجية الإسلامية الآخذة في الانتشار. هذا الهدف العام والجامع يشكل السّتار الأيديولوجي الذي يخفي وراءه خليطاً غير متجانسٍ من التنظيمات والجماعات التي قد تختلف في الإستراتيجيات وتتناوب في تحديد الأولويات وتفسير المعطيات. نتخذ هنا منحنى دراسة الخطاب الأيديولوجي والمشتركات الجامعة لمُتبنّي الإسلام السياسي، مجموعات وأفراداً في مرحلة ما بعد سيد قطب، في ضوء استعراض مقتضب للأفكار والمحطات التاريخية التي أدّت إلى طُفُو حركات الإسلام السياسي على سطح الحراك السياسي في المنطقة العربية في الوقت الراهن. تُؤلي هذه الدراسة اهتماماً خاصاً للعوامل الذاتية التي أنتجت الفكر الديني المتشدد ورُوّجت لاقتحامه الشأن العام. ذلك من دون إهمال العوامل الموضوعية - الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - التي مهّدت الطريق لانتشار الفكر الجهادي التكفيري. وفي الختام تحاول الدراسة تبيان سبل إنعاش الفكر الإسلامي بغية تجاوز الأثر السلبي لبعض التيارات الإسلامية المتطرفة على الشأن العام.

* باحث وأكاديمي سوري، مهتم بشؤون الشرق الأوسط وقضايا الإسلام السياسي. درس العلوم السياسية في جامعة دمشق ومن ثم انتقل إلى بريطانيا حيث أنهى برنامجاً في الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية والإنسانية. يعمل حالياً على إعداد رسالة الماجستير في معهد الدراسات العربية والإسلامية في جامعة إكستر، بريطانيا.



جيشٌ من الفتية العرب والمسلمين مستعدٌ لينفجر في أي لحظة، ليقتل ويُقتل. رجالٌ مثلاً يريدون الدولة الإسلامية ولو على دوي المدافع وجماجم الشهداء. هكذا نقف اليوم عراءً أمام مرآة الذات، وفي الآذان صوتٌ إغريقي يهمس: اعرف نفسك. يسأل واحدٌ منا: هل حقاً نحن خير أمةٍ أُخرجت للناس؟ وهل هذه معالم الرسالة الخالدة للأمة العربية؟ فيجيب آخر: نعم زالت الأقنعة وبتنا نراقب يومياتنا الدامية على الشاشات. مرارة الواقع تمحي طلاء الأيديولوجيا وتبدد وهم الشعارات.

إن هدف إقامة الدولة الإسلامية التي تُحكم بمقتضى الشريعة هو حجر الزاوية الذي يستند إليه بناء الأيديولوجية الإسلامية الآخذة في الانتشار. هذا الهدف العام والجامع يشكل الستار الأيديولوجي الذي يخفي وراءه خليطاً غير متجانسٍ من التنظيمات والجماعات التي قد تختلف في الإستراتيجيات وتباین في تحديد الأولويات وتفسير المعطيات. نتخذ هنا منحى دراسة الخطاب الأيديولوجي والمشتركات الجامعة لمتبني الإسلام السياسي، مجموعات وأفراداً في مرحلة ما بعد سيد قطب، في ضوء استعراض مقتضب للأفكار والمحطات التاريخية التي أدت إلى طفو حركات الإسلام السياسي على سطح الحراك السياسي في المنطقة العربية في الوقت الراهن. تُولي هذه الدراسة اهتماماً خاصاً للعوامل الذاتية التي أنتجت الفكر الديني المتشدد ورُوّجت لاقتحامه الشأن العام. ذلك من دون إهمال العوامل الموضوعية - الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - التي مهدت الطريق لانتشار الفكر الجهادي التكفيري. وفي الختام تحاول الدراسة تبيان سبل إنعاش الفكر الإسلامي بغية تجاوز الأثر السلبي لبعض التيارات الإسلامية المتطرفة على الشأن العام.

بدايةً، فكرة الدولة الإسلامية التي بدأ التنظير المنهجي لها مع المفكر الباكستاني أبو الأعلى المودودي (1903-1979) هي نتاج للفكر الحدائثي تماماً كفكرة النهضة التي سيطرت على الخطاب الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. على الرغم من ذلك فإن جهداً كبيراً قد بذل لتأصيل فكرة الدولة الإسلامية بمنحها سنداً تاريخياً وتغليفها بغلاف إسلامي.

كتب المودودي في مقدمة كتابه: 'نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور': 'الحاجة ماسة إلى أن نكشف الغطاء عن وجه 'نظرية الإسلام السياسية' رجاء أن ينقشع بذلك هذا الظلام الفكري الضارب أطنابه على المجتمع، وتلجم أفواه من أعلنوا سفهاً (أن الإسلام ما جاء للمجتمع الإنساني بنظام اجتماعي ولا سياسي) فنخرج

بذلك نوراً للذين يتسكعون في ظلمات العصر حائرين لا يهتدون⁽¹⁾. كان ذلك، فأخرج المودودي للعالمين مصطلح 'الحاكمية' الذي احتضنه فيما بعد سيد قطب (1906-1966) ورعاه أفضل رعاية، فمنها المصطلح وترعرع وتفرع عنه جاهلية وتكفير وجهاد أعمى. حتى وصلنا اليوم إلى جماعات تتحدث عن آيات الحاكمية في القرآن.

الملفت هنا أن كلمة 'حاكمية' التي باتت من مرتكزات الخطاب السياسي للحركات الإسلامية المعاصرة كما 'الدولة الإسلامية' لم يرد ذكرها في القرآن أو الحديث النبوي. إن عدنا أيضاً لمعاجم اللغة العربية لن نجد ذكراً للمصطلح. يربط المودودي الحاكمية بالجذر اللغوي 'حكم' الذي جاء القرآن على ذكر اشتقاقه أكثر من مائتي مرة، لكن أياً منها لا يشير إلى تولي وممارسة السلطة السياسية. غالبية الاستخدامات تشير إما للحكمة والبصيرة والقدرة على تمييز الحق من الباطل، أو إلى العلم والفقه والقضاء. و'الحاكم' في معاجم اللغة هو القاضي، ففي أدبيات الحديث النبوي وفقهه كثيراً ما يتطابق 'الحكم' و'القضاء' دوغماً تفریق. فالمصطلح العربي والقرآني المستخدم للدلالة على الشأن السياسي هو 'الأمر' والذي استمر مصدراً للنسبة إلى الدولة أو الحكومة حتى العهد العثماني، حيث استُخدمت صفة 'الأميري'، التي حُرِّفت فيما بعد لـ 'الميري'، للدلالة على كل ما هو مرتبط بالسلطة السياسية أو القطاع العام⁽²⁾. يكتسب التحليل اللغوي السابق أهمية خاصة عند محاولة فهم النصوص القرآنية المستخدمة لتبرير دعوات تطبيق الشريعة. فعلى سبيل المثال، أحد أكثر الشواهد الشرعية تكراراً في كتابات المودودي وعلى ألسنة منظري الإسلام المعاصرين هي جملة من الآية الرابعة والأربعين من سورة المائدة: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}. بالعودة لأسباب النزول يتضح أن المقصود ليس أمراً إلهياً يقضي بتطبيق الشريعة في كل زمان ومكان، بل إن الآية مقتطعة من سياق تاريخي يدور حول تحكيم الرسول في خلاف حول دفع الدية بين بني قريظة وبني النضير⁽³⁾. ليس في ذلك مجرد سوء فهم أو خلافاً فقهياً محدود الأثر، بل إن ألوفاً دفعوا حياتهم ثمّن تفسيرات الآية وسذاجة التعميم. فعندما سُئل طارق الزمر، أحد الأعضاء البارزين في جماعة الجهاد في مصر، عن سنده الشرعي في إطلاق التكفير وإباحة الاغتيالات، كان رده موجزاً: الله عز وجل {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}⁽⁴⁾.

بالعودة للاستخدام الاصطلاحي لـ 'الحاكمية'، فإن بناء الدولة الإسلامية يستند إلى مبدأ الحاكمية الذي يعني أن الشريعة يجب أن تكون القانون الأعلى في الدولة. فتبعاً للمودودي، إن كان دخول الفرد الإسلام يُستهل بنطق شهادة أن لا إله إلا الله، فإن دخول الدولة في الإسلام يكون بنطق دستورها لشهادة أن لا حاكمية إلا لله⁽⁵⁾. فالحاكمية لله، وما على العباد سوى طاعة الإرادة الإلهية والعمل بمقتضاها، واتباع غير ذلك يستتبع حتماً الدخول في طور الجاهلية.

يشترك المودودي مع من أتوا بعده في استخلاص النتيجة السابقة، والتي تعني عملياً تكفير الحكومات والمجتمعات الإسلامية التي تتعق قوانين وضعية. ولكن بدأ الافتراق عند تحديد الإجراءات الواجب اتباعها لإخراج المجتمعات الإسلامية من حالة الكفر والجاهلية. فمنهج المودودي يقضي بالسعي لاستلام السلطة عبر الآليات السياسية المتاحة بغية الشروع في تطبيق الشريعة وأسلمة المجتمع، أما سيد قطب فقد بنى على فكر المودودي وأضاف لمسات راديكالية قادت إلى الاسترسال في 'فعل' تكفير المجتمعات والنخب على حد سواء. كلمة 'فعل' هنا

1 المودودي، أبو الأعلى. نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1969، ص 10.

2 الأنصاري، محمد جابر. التأزم السياسي عند العرب وسوسيولوجيا الإسلام: مكونات الحالة المزمنة، طبعة ثانية، دار الشروق، 1999، ص 155-170.

3 ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، الجزء الثالث، دار طيبة، ص 113.

4 حنفي، حسن. الحركات الإسلامية في مصر، المؤسسة الإسلامية للنشر، بيروت، 1986، ص 104.

5 المودودي، أبو الأعلى. نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1969، ص 201.

مقصودة والغاية منها الدلالة على أن التكفير ليس مجرد تهمة، بل حكمٌ ناجزٌ تنفيذه واجبٌ عبر فعل الجهاد. كتابات المودودي حول تطبيق الشريعة والمنهج القطبي الراديكالي عَدَدًا زاد الحركات الجهادية التي أخذت تتزايد كالفطر منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي. وهكذا طوت التوليفة القطبية - المودودية صفحة السلفية الإصلاحية والمنهج العقلي في التفسير الذي اتبعه محمد عبده وجمال الدين الأفغاني في فتراتٍ سابقة، وشُرعت الأبواب لسلفية جهادية تنظر بعين الريبة للعقل وتفترط في استخدام العنف.

إن التحول على مستوى فكر الإسلام السياسي يبدو منسجماً مع المدخل الماركسي في التحليل من حيث أن جملةً من العوامل والشروط المادية قد أسهمت في توجيه التحول على مستوى الأفكار. فقراءة تنظير المودودي للدولة الإسلامية بمعزل عن ظروف ولادة دولة باكستان سيودي للوقوع في خطأ سيد قطب الذي رأى في نظريات المودودي نظريات الإسلام. فعلى سبيل المثال، يرى محمد عمارة أن المودودي حارب الديمقراطية خوفاً من الأغلبية غير المسلمة في الهند قبل استقلال باكستان عام 1947، أما بعد ولادة باكستان ذات الأغلبية المسلمة شَرَعَ في إثبات ديمقراطية الإسلام وعدم تعارضه مع النظام التمثيلي⁽⁶⁾. كذلك فإن من الإجحاف تحليل راديكالية قطب من دون التطرق لظروف القمع الوحشي الذي تعرض له على أيدي أجهزة أمن النظام الناصري. عموماً فقد شكلت السجون المصرية بؤراً لتخصيب الفكر الجهادي الانقلابي. باتباع ذات الأسلوب في التحليل فإن ما يبدو رواجاً للمنهج القطبي ليس دليلاً على صحة المنهج، كما أن نزوعه نحو العدوانية والعنف ليس بالضرورة مستمداً من روح الإسلام، بل إن اختلال البنى التحتية، المعبر عنه في انتشار البطالة وغياب قنوات المشاركة السياسية والتوزيع غير العادل للثروة، أدى لرواج الفكر الإسلامي الراديكالي خاصةً في الأرياف المهمشة وفي أحزمة الفقر حول المدن.

إن الإرث الذي تركه المودودي وقطب يولي أهمية خاصة لأسلمة الدولة والمجتمع عبر تطهيرهما من الأمراض التي أتت من الغرب والعودة بهما لنقاء الجيل الأول وفرض الشريعة على جميع مناحي الحياة. وتحقيق ذلك يكون بعبور بوابة 'الدولة الإسلامية'. إن ادعاء المودودي وقطب وأخلافهم الكشف عن نظرية إسلامية خالصة في السياسة وحكم الدولة ما هو إلا جانب من جوانب محاولات تحميل النصوص ما لا تحتمل، ومظهرٌ من مظاهر عبادة النص وتجاهل مقاصده.

فما ذلك سوى جزء من محاولاتٍ أعمّ لاستنطاق النصوص بنظريات واكتشافات علمية وإنسانية لاحقة. فصدمة الحداثة دفعت البعض للتوقع واتخاذ الموقف الجمائي والبدء في رحلة البحث عن الذات في مواجهة الآخر المتقدم والمسلح بجميع أسباب القوة.

غدا التاريخ والنص المقدس ملجأ الحركات الإسلامية الباحثة عن بدائل محلية الصنع للدولة الحديثة (Nation-State) وهياكلها ونظم الحكم فيها. حَبَّت في المقابل الأصوات المندادية بالتخلُّق بأخلاق الإسلام والجري في مضمار الحضارة الإنسانية إلى جانب الأمم الأخرى. وشارت قوى التيار العقلي التوفيقي فُسِّح المجال لتيار تليفقي يبين صوراً ذهنيةً لعصر ذهبي ويدعو لإحلالها ولو كان السبيل إلى ذلك عنفٌ منفلتٌ من أيِّ عقل. فأصبح تجاوز الواقع وإنكاره سمةً عامة لدى الإسلاميين الجدد. تكدس الغبار على كتب التوفيقين ولم تعد كلماتهم تلقى صدىً، بل إن البعض أسماهم 'فقهاء السلطان' و'فقهاء الجيوش والنفاس'. فلم يعد يُعتدُّ بآراء مرجعيات تقليدية كالشيخ محمد الغزالي، الذي خُلص إلى أن 'الإسلام لم يضع رسماً محدداً لأسلوب الحكم، وإنما وضع له أخلاقاً وقيماً، فكيف نولي حاكماً وكيف نعزله؟ وكيف نحاسبه ونراقبه؟ ما هي أجهزة الشورى؟ وكيف نستوثق من التقاء الآراء الناضجة فيها؟ وكيف نمضي في مجراها دون إرهابٍ أو إغراء؟ ... للأمم في هذه الميادين أن

تجتهد في وضع النظام الذي يحقق مصلحتها دون قيد ما⁽⁷⁾. في ذلك موقف متقدم يؤيد القاعدة القائلة: "حيثما وجدت مصلحة الناس فثمَّ شرعُ الله".

ليس المقصود مما سبق تبرُّهُ علماء الدين وفقهائه التقليديين، فهم يتحملون مسؤوليةً رئيسيةً في واقع الأدلجة وتسطيح الفكر الإسلامي. فالشيخ الغزالي نفسه يقول في موضع آخر: "لو أن السلف الأول اشتغل بالفلسفة اللاهوتية لما خرج الإسلام من جزيرة العرب ... خلقت البطالة أناساً يطيلون الفكر العاث والنظر الشroud ... أوجد الفراغ مجالس كلامية كثيرة كان لها في تاريخنا وكياننا أثر رديء"⁽⁸⁾. من يرتأب من جدل الفكر يتيح المجال للخطاب الأحادي اللون وادعاءات امتلاك الحقيقة. أسئلة جوهريّة لابد من نقاشها في العلن، فتشريح الميثولوجيا الدينية لم يعد سفسطة. ركود الفكر الإسلامي واتخاذ الموقف الدفاعي هو في صميم الأزمة. فالجنة والنار والقضاء والقدر والتكفير والجهاد وغيرها مواضيع توجّه جيلاً من الشباب البائس اليائس من دنياه، جيلاً أصبح حطب أو هام 'الدولة الإسلامية'. خلاصة القول أن الفكر الإسلامي لن يستعيد حيويته حتى ينفخ الحوار فيه الروح. ألم يحن وقت إحياء علوم الدين؟ مضى أكثر من مائة عام ولم يظهر بيننا مجدّد يهذب الأصول لينقذ من الضلال. ولكن كيف أسهم الواقع في ردة الإسلاميين عن العقل ودخلهم جاهلية الفكر؟

إن كان الاستخدام المشروع للعنف هو أهم ما يميز الدولة الحديثة بحسب ماكس فيبر، فإن تجارب أنظمة الحكم في العالم العربي في فترة ما بعد الاستقلال أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك نجاح تلك الأنظمة في تسخير حق استخدام العنف لربط المؤسسات والنخب الدينية والعسكرية والاقتصادية بالنظام السياسي ولتفريغ المجتمع من أي نشاط أو تنظيم مدني قادر على لجم السلطات. يكاد النظام البعثي في سورية أن يكون الحالة المعيارية التي ينطبق عليها التعميم السابق. فعندما رفع سوريون شعار إسقاط النظام السياسي أدركوا سريعاً أن ذلك يستلزم تغيير النخب الدينية والاقتصادية والعسكرية أيضاً. فالنظام السياسي تغلغل في ثنايا الدولة السورية حتى بات فك الارتباط بين الاثنين أمراً غاية في الصعوبة.

ذلك الاستخدام الأدائي للدولة لأكثر من نصف قرن أدى لشيوع فهم مشوه لفكرة الدولة الحديثة لدى العامة في العالم العربي. فالدولة لم تعد مؤسسة حيادية ينتفع منها الجميع، وإنما ملكية خاصة لطغمة حاكمة. أيضاً فإن ادعاء الأنظمة السياسية الشمولية تبنيها العلمانية قاد إلى تلازم مصطلح العلمانية في ذهن الكثيرين مع التسلط وقمع الحريات. في ظل هذا الواقع كثيراً ما يتم اليوم تقديم الشريعة الإسلامية على أنها السلة التي تحوي مفاتيح حل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي توارثها الحكام العرب. أمعن الحركات الإسلامية الجديدة في غلوها حتى تجاوزت أفكار مرجعها الحديث المتمثل بكتابات سيد قطب ومنهجه. في هذه المرحلة لم تعد الدولة الحديثة إطار عمل تلك الحركات واستمر نكران الدولة الحديثة حتى وصلنا لدعوات إقامة 'الدولة الإسلامية' وليس دولة إسلامية. فدولة الإسلام غدت واحدة، دستورها القرآن، والحاكمة فيها لله وحده، يُطبق فيها شرع الله فتستظل به الأمة الإسلامية جمعاء. وصفة بسيطة تقدّم للخروج من المأزق التي باتت تتنازع الدول العربية والإسلامية.

هذا الخطاب الإسلامي التبسيطي هو المقابل للخطاب السياسي الأيديولوجي في الجمهوريات العربية طيلة النصف الثاني من القرن العشرين والذي هيمنت عليه فكرة فرض الوحدة العربية لجمع شمل الأمة العربية الواحدة. فكما عجز القوميون العرب سابقاً عن رسم إستراتيجيات واضحة للنهوض بالواقع العربي والوصول

7 الغزالي، محمد. مقالات الشيخ محمد الغزالي، جمع: عبد الحميد حسانين حسن، الجزء الثاني، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ص 209.

8 مرجع سابق، ص 201.

إلى الوحدة المنشودة فإن الإسلاميين اليوم يسرون على نفس الخطى في ما يتعلق بالانشغال بالكليات وإهمال الجزئيات. في هذا الخصوص، يرى البروفسور عزيز العظمة أن إصرار القوميين العرب على إعطاء فكرة التجانس والوحدة صفة البداهة، وترددهم قبل الإقرار بحقيقة التنوع والاختلاف، جعلهم غير قادرين على إدراك الواقع. فأصروا على استمرار ذاتٍ مُتوهمةٍ فرضوها بسطوة الدولة المستبدّة، فكانت النتيجة مزيداً من التفتت. ذات النقاش ينسحب على الأيديولوجية الإسلامية السائدة. ففي دعوات تطبيق الشريعة الإسلامية تغليب للرّمزي على التاريخي، بمعنى تغليب هوية ثابتةٍ مُتوهمةٍ على حقيقة التكرّر والتنوّع داخل هذه الهوية.⁽⁹⁾

ختاماً، لا أسلمةُ كلِّ شيءٍ ستأتي بالحل ولا تفريغ المجتمع من الإسلام هو الترياق المُنتظر. الواقع معقد ويستلزم برنامج عمل متكامل للنهوض. فأحد أهم معوقات اللحاق بركب الحضارة هو ما يطلق عليه عبد الإله بلقزيز مصطلح 'المنهج الاستعجالي'⁽¹⁰⁾ والذي يشير إلى العزوف عن اجترار حلول تستجيب إلى تعقيدات الواقع العربي المعاش واللجوء إلى خطوات متهورة كالانقلابات، أو النزوع إلى صفاتٍ بنكهةٍ أيديولوجيةٍ تختزل الواقع في أحد جوانبه، ديناً كان أم سياسة، اقتصاداً أو اجتماع. ولكن أيّ مشروعٍ للنهوض لن يُبصر النور ما لم يقبل الإسلاميون التاريخ، فادّعاءً لا زمنيّة الإسلام والتمسك بإمكانية عزل الفكرة عن تاريخيّتها له ارتداداتٌ كارثيةٌ على الأمة والتي هي في حقيقة الأمر تجمع افتراضيّ لأفرادٍ يتأثرون بالواقع وتشكّل استعداداتهم وفقاً لمقتضياته. قد تجمعهم فكرةٌ أو أفكار ولكن كلاً منهم اتخذ مساراً تاريخياً متميزاً أثناء صياغة احتياجاته ونمط تفكيره وأسلوب حياته.

مشروع العودة للمستقبل غير قابل للحياة. فإما مقاومةٌ بعودةٍ لماضي متخيّل أو تقدّم محسوبٌ نحو مستقبلٍ مأمولٍ يستوعبنا جميعاً.

9 العظمة، عزيز. الأصالة أو سياسة الهروب من الواقع، دار الساقى، بيروت، 1992، ص 22-24.

10 بلقزيز، عبد الإله. الجيش والسياسة والسلطة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002، ص 18-23.

المشهد البصري





ملائكة في زمن الحرب رامي مكّي*

حول العمل الفني:

رغمًا عن قذارات الحرب تبقى البراءة في عيون أطفالنا. تم التقاط الصورة في إحدى مدارس اللاجئين السوريين عام 2013.



* رامي مكّي: مصور فوتوغرافي ومصمم جرافيك. له العديد من النشاطات في الوسط الفني والسياحي السوري. أسس شركة تصميم وإدارة فنية باسم أرابيان صول في دمشق عام 2006. كما أنشأ موقعاً إلكترونياً يوثق بصرياً تفاصيل دمشق القديمة. له مشاركات بعدة معارض فنية محلية وعربية. موقعه الشخصي على الإنترنت: www.ramimaki.com





عناق الأخطبوط إعداد سمارة سلام*

حول العمل الفني:

‘عناق الأخطبوط’ جزء من عمل فني بعنوان ‘لجوء’.

ترين أن الكوكب مقهى صغير، مقهى وحيد يمكنك التدخين فيه. لا زيت الزيتون ولا الزعتر البري داخل الخبز. يوجد ما يكفي من المنفى كي تعرفي أن الحب شيء مختلف تماماً، وأن الجسد رؤية أقل تعقيداً وأكثر ألماً. بعين سمكة كل شيء يتجه اليك، يدور، يدور، ويبعد على شكل دوائر من حولك. يداك الطويلتان عبتاً لا تقدران على اللعب.

عندما دخلت الجزائر صعدت فوق الميزان: متر وستون، في 45 كيلو. لا فرق الآن في الحجم!

أصبحت حيواناً! حيواناً يأكل بشرامة، يمارس الحب، يفقد اللغة، وتُسرق منه أوراقه الثبوتية وجواز سفره. ينتقل من بيتٍ لآخر كمجرد جسد. مع حيوانك الجديد الذي يتنفس بكل ما لديه من قوة السخرية. تنحنين لتلتقطي كوب قهوة بالحليب. تخطيه، يعود شعرك لطبيعته تحت المطر. تبتسمين وتختبئين لأن القطط أيضاً لا تحتمله.

تتوقفين عن حمل الكاميرا ... لا يمكن لحيوان أن يحمل كاميرا!

* سمارة سلام: طالبة في المدرسة العليا للفنون الجميلة في العاصمة الجزائرية.





إصرار بعدسة مصطفى دباس*

حول العمل الفني:

‘إصرار’ صورة تم التقاطها في ركن الدين في عيد الفطر سنة 2012.



* مصطفى دباس: صحفي، خريج كلية الإعلام بجامعة دمشق. مصور فوتوغرافي ورسام كاريكاتور. شارك في معرض تصوير فوتوغرافي بعنوان ‘أنتِ، ومعرض كاريكاتور بعنوان ‘وجهة نظر‘.





انتصرنا

كاريكاتور هاني عباس*

حول العمل الفني:

تم رسم 'انتصرنا' عام 2013. بقياس A4 على الكمبيوتر.

* هاني عباس: خريج دار المعلمين دمشق 1999. توقف عند السنة الثالثة في كلية التربية جامعة دمشق. عضو نقابة الفنون الجميلة السورية منذ 1999. أقام أول معرض فردي عام 1998 في جامعة دمشق، إضافة إلى عدة معارض فردية ومشاركة في سوريا والعالم. حاصل على المركز الأول للرسمين المحترفين في سوريا ثلاث مرات، حاصل على المركز الثاني في 'مسابقة حرية الصحافة العالمية' 2013، وعدة جوائز شرفية وتقديرية عربية ودولية. عضو لجنة تحكيم في عدد من المهرجانات منها 'مهرجان سوريا الدولي للكاركاتور'، و'مهرجان ناجي العلي الأول للكاركاتور' بدمشق 2007، وعضو لجنة تحكيم جائزة مركز 'بديل' في رام الله. له ثلاثة أفلام كرتون قصيرة منجزة وقيد المونتاج. يرسم في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية العربية.



نزوح دعاء نشار*

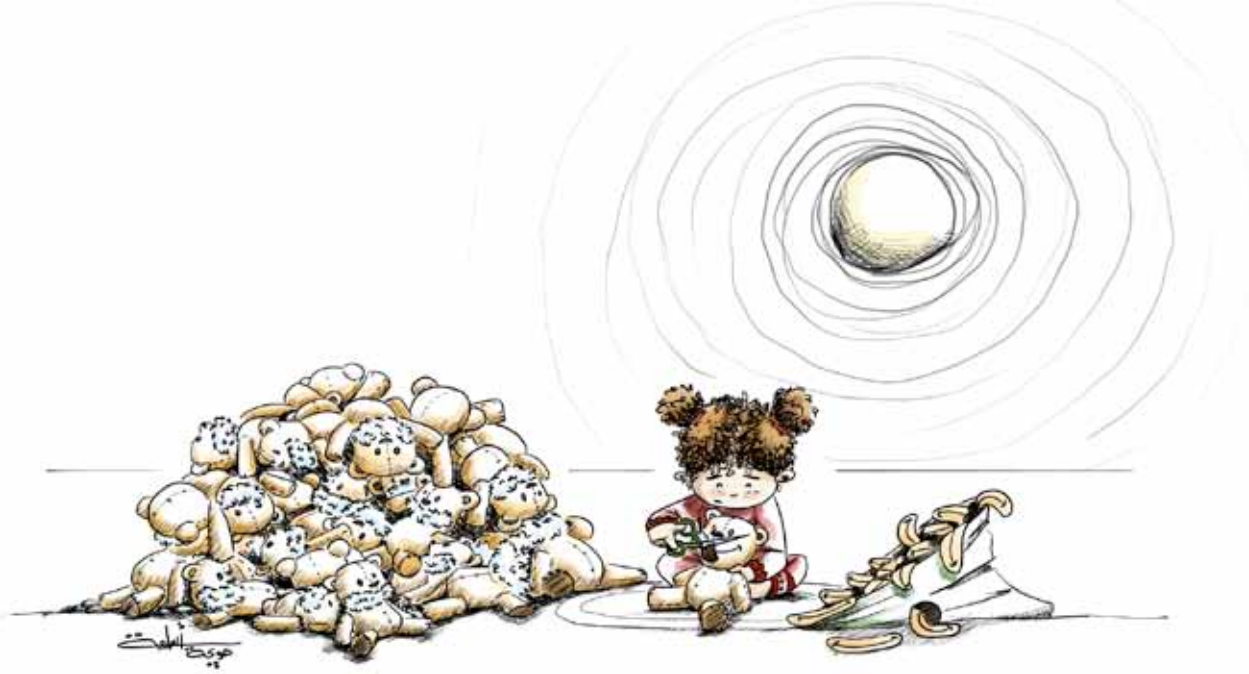
حول العمل الفني:

تم التقاط الصورة بتاريخ 15 آب/أغسطس 2013.



* دعاء نشار: تدرس في السنة الرابعة في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، تخصص تصوير زيتي.





ابتسامة أسامة حويجة*

حول العمل الفني:

تم رسم 'ابتسامة' بتاريخ 10 كانون الثاني/يناير 2014. والعمل يتكلم عن فقدان معظم أطفال سورية للابتسامة بسبب الأوضاع الحالية ومحاولة البحث عنها.



* أسامة حويجة: فنان سوري خريج كلية التربية الرياضية جامعة تشرين عام 2005. عمل في شركة النجم للإنتاج الفني دمشق باختصاص رسام تحريك ثنائي الأبعاد 2006-2008، ويعمل حالياً في دبي في شركة 'الصورة الحقيقية للإنتاج الفني' منذ عام 2008 حتى الآن. شارك في عددٍ من المعارض السابقة منها معرض كاريكاتور فردي في المكتبة المركزية جامعة تشرين 2002، ومعرض كاريكاتور جماعي في سلمية 2004، ومعرض كاريكاتور فردي في المكتبة المركزية في جامعة تشرين 2005.





قصة محاربة بعدسة بانا ماخوس*

حول العمل الفني:

التقطت 'قصة محاربة' في 21 كانون الأول/ديسمبر 2013، والصورة من سلسلة تحمل نفس العنوان، شاركت الصورة في معرض عن المرأة السورية 2013 بعنوان 'أنت'.



* بانا ماخوس: مصورة فوتوغرافية. خريجة كلية الاقتصاد بجامعة تشرين، وطالبة في كلية الإعلام بجامعة دمشق. عضوة في 'فرقة المسرح الجامعي' في جامعة تشرين حيث شاركت في عدة مسرحيات بصفة مساعد مخرج ومصور فوتوغرافي. كما شاركت في خمسة معارض مشتركة في التصوير الفوتوغرافي بين اللاذقية ودمشق، وعدة ورشات عمل في صناعة الأفلام وكتابة السيناريو، ولها تجربة فيلم قصير (فيديو آرت) بعنوان 'بلا لون'.





ضاع المفتاح كاريكاتور مرهف يوسف*

حول العمل الفني:

تم رسم العمل 'ضاع المفتاح' عام 2002، وأعيد تجديده ووضع تعديلات عليه عام 2009.



* مرهف يوسف: فنان سوري خريج معهد الفنون التطبيقية 2004 (اختصاص نحت). مختص في مجال الكاريكاتور والرسوم المتحركة وفن الطفل (سيناريو وقصص). شارك في العديد من المعارض والمليقات في سوريا، ولديه العديد من التماثيل مختلف المواد خشب وحجر وبرونز. شارك في إعداد عدد من أفلام الرسوم المتحركة كمسلسل 'دانية' على الـ MBC، وسلسلة أغاني جحا. ولديه العديد من الأفلام القصيرة أهمها فيلم 'بحيرة الوجدع'، وفيلم 'لحظة أمل'. شارك في العديد من معارض الكاريكاتور في سوريا وإيطاليا ورومانيا ومصر وغيرها، حيث فاز على العديد من الجوائز منها 'جائزة الويب' في مهرجان ديفا في رومانيا 2006، والجائزة الخاصة في 'مسابقة الأفلام' في سوريا عام 2007، والجائزة الثانية في 'مسابقة الثقافة العالمية' في كندا عام 2010.

حدايق الفكر

يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام، دمشق - لندن



حول مجلة دِلْتَا نُون

مجلة دِلْتَا نُون مجلة يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام (دمشق - لندن). تسعى المجلة إلى دراسة العلاقة بين الفكر والشأن العام في منطقة غرب آسيا وشمال إفريقيا (الشرق الأوسط) عموماً، وفي سوريا خصوصاً. تعمل المجلة على نشر مواد تتراوح بين المقالات والدراسات والريبورتاجات الصحفية ومراجعات الكتب، إضافة إلى قسم خاص بالصور الفوتوغرافية والرسومات والكاريكاتور. وتهتم المجلة بنشر المواد التي تناقش، في صورة مترابطة ومنهجية، ما ينضوي تحت المحاور الثلاثة التالية:

- **الفكر:** بما يشمل هذا العنوان العريض، على سبيل المثال، من أفراد (كالمثقفين والأكاديميين والخبراء والكتّاب والإعلاميين)، ومؤسسات (المراكز بحثية، والجامعات، والصحافة، ودور النشر)، ومُخَرَّجَات (كالكتب، والأفكار، والحركات الفكرية)، وغيرها.
- **الشأن العام:** بما يشمل هذا العنوان العريض، على سبيل المثال، من أعراف وثقافات سائدة ومُهمَّشة، وقضايا الاقتصاد والتنمية والخدمات، والمجتمع المدني، والصحة والتربية والتعليم، وتطبيق القانون والتشريعات والحقوق الأساسية، والممارسات السياسية، وغيرها.
- **العلاقة بين المحوَرَيْن السابقين، أي بين الفكر والشأن العام:** سواء على مستوى التأثير والتأثير، والتقاطع، والسببية، والانفصال، والاستقلالية، وغيرها.

دعوة للكتابة في مجلة دِلْتَا نُون

بعد إصدار العدد صفر في أيار/مايو 2014، تسعى مجلة دِلْتَا نُون إلى إصدار عددها الأول في شهر تموز/يوليو 2014. وعليه ندعو المهتمين (بخاصة من الجيل الشاب والصاعد) إلى إغناء المجلة بمساهماتهم الفكرية والنقدية والمستقلة، بعد الاطلاع على شروط وتعليمات النشر في الموقع الإلكتروني للمجلة: www.delta-n.c-tpa.org. يمكن إرسال الكتابات إلى هيئة التحرير على البريد الإلكتروني: editors@c-tpa.org. علماً أن آخر موعدٍ لاستقبال المساهمات هو منتصف حزيران/يونيو 2014.

رسائل القراء

ترحب مجلة دِلْتَا نُون برسائل القراء سواء كانت تعليقات أو تعقيبات أو ردود على المواد المنشورة في المجلة، أو اقتراحات وانتقادات تسهم في الارتقاء بعملها. يمكن للقراء توجيه كافة الرسائل إلى هيئة التحرير على البريد الإلكتروني: editors@c-tpa.org

مقالات

- الأصولية الإسلامية في المشرق العربي - مازن علي
- نحو تأسيس وعي اجتماعي مختلف - عماد العبّار
- العرس في أوكرانيا والطلب في سوريا - رهام كوسا
- دور النساء السوريات في العدالة الانتقالية - علياء أحمد
- الدولة الريعية زمن التحول السياسي - مجد جمّول
- التدوين السوري وجدلية الالتصاق بالواقع - وليد بركسية
- الحقيقة ليست هناك - عمّار المأمون

دراسات

- المثقف والمعارضة والشأن العام في سوريا - محمد ديبو
- غيلان الدمشقي في سياقات مختلفة - فراس الحوّاط
- بين الشعر والفيسبوك - سلاف علّوش
- السينما كمُعَبّر عن تفاوت الصراع - فيكتور يوس شمس
- محددات تشكل الهوية الثقافية للطفل السوري - ياسمين عيود
- قراءة في دعوات تطبيق الشريعة - عزّام قصير

المشهد البصري

- ملائكة في زمن الحرب - رامي مكي
- عناق الأخطبوط - سمارة سلام
- إصرار - مصطفى دباس
- انتصرنا - هاني عباس
- نزوح - دعاء نشار
- ابتسامة - أسامة حويجة
- قصة محاربة - بانا ماخوس
- ضاع المفتاح - مرهف يوسف

مراجعات كتب

- إيقاعات أدبية على أنغام سورية - فرزند عمر
- التحوّل الديمقراطي .. سوريا نموذجاً - عبد الحاج

ريبورتاجات

- إبداع وسط الألم - الفريق الصحفي في مجلة دِلْتَا نُون
- حول مراكز بحوث السياسات - الفريق الصحفي في مجلة دِلْتَا نُون



مجلة دلتا نون

يصدرها مركز دراسات الفكر والشأن العام، دمشق - لندن

email: editors@c-tpa.org

www.delta-n.c-tpa.org

@DeltaN_Arabic



DeltaN.Arabic



مركز دراسات الفكر والشأن العام

Centre for Thought and Public Affairs

email: info@c-tpa.org

www.c-tpa.org

@CTPA_Arabic



CTPA.Arabic

